(31) المرجع نفسه ، ص 19.

(32) أحمد مالكي ، "نحو رؤية جديدة للعلاقات المغاربية الإفريقية". **نشرية مجموعة الخبراء المغاربيين** ، عدد 04 ، فبراير 2011 ، ص 03.

(33) أحمد إدريس ، "الأزمة الليبية وتداعياتها على منطقة المغرب العربي"، **نشرية مجموعة الخبراء المغاربيين** ، عدد 06 سبتمبر 2011 ، ص 01.

(34) عبد النور بن عنتر ، "الأزمة الليبية: غياب جماعي وخلافات ثنائية". **نشرية مجموعة الخبراء المغاربيين** ، عدد 06 سبتمبر 2011 ، ص 06.

(35) المرجع نفسه ، ص 07.

(36) عبد النور بن عنتر ، البعد المتوسطي للأمن الجزائري: الجزائر ، أوربا والحلف الأطلسي ، مرجع سابق ، ص 21.

(37) أحمد محمد أبو زيد ، "معضلة الأمن اليمني-الخليجي: دراسة في المسببات والانعكاسات والمآلات" ، **المستقبل العربي** ، العدد 414 ، آب/أغسطس 2013 ، ص 74.

(38) Paul Roe, **Ethnic violence and societal security dilemma** (USA and Canada: Routledge Taylor and Francis group, 2005), p 09.

(39) عبد النور بن عنتر ، البعد المتوسطي للأمن الجزائري: الجزائر ، أوربا والحلف الأطلسي ، مرجع سابق ، ص 21.

(40) نفس المرجع ، ص ص 70-71.

(41) هذه الدول هي: أستراليا ، الأرجنتين ، البحرين ، مصر ، إسرائيل ، اليابان ، الأردن ، نيوزيلندا ، الفلبين ، كوريا الجنوبية ، الكويت ، تايلاند وباكستان.

(42) عبد النور بن عنتر ، **الاستراتيجيات المغاربية حيال أزمة مالي، في: ندوة المغرب العربي والتحولات الإقليمية الراهنة** ، الدوحة ، 17/18 فبراير/شباط 2013 ، مركز الجزيرة للدراسات.

(43) نفس المرجع.

(44) نفس المرجع.

(45) نفس المرجع.

(46) محمد بغداد ، **دماء الصحراء: حروب القاعدة في الساحل الإفريقي** (الجزائر: ذاكرة الأمة ، 2012) ص 16.

السفتجة الالكترونية وقواعد قانون الصرف في التشريع الجزائري

نزيهة غزالي*

الملخص

تعتبر السفتجة الالكترونية وسيلة دفع تقليدية مطورة ولا تختلف عن السفتجة الورقية رغم أنها طورت أساسا لترقية العمل المصرفي الذي ابتكر هذا النموذج دون تدخل المشرع تفاديا للمشاكل الناجمة عن استخدام السفتجة التقليدية ، وتعتبر من المواضيع التي لم يضع لها المشرع الجزائري حلا بعد.

واقعيا لا يتم التعامل بالسندات التجارية الالكترونية الا من خلال البنوك ، الا انه لا يوجد ما يمنع الأفراد من التعامل بهذا النوع من السندات من الناحية القانونية وبالتالي امكانية وجود سفاتج الكترونية بين الأفراد ، وتبقى الغاية من المعالجة الالكترونية لبيانات السندات التجارية (الشيك ، السفتجة ، السند لأمر) تمكين بنك منشئ السند أو حامله الشرعي من مطالبة بنك الملتزم الصرفي بالوفاء عبر وسائل الاتصال الالكتروني.

الكلمات المفاتيح: السفتجة الالكترونية ، الكمبيالة الالكترونية ، الاوراق التجارية الالكترونية.

Résumé

La lettre de change électronique est un moyen de paiement traditionnel développé et ne diffère pas de la lettre de change écrite malgré qu'elle a été développée pour améliorer le travail bancaire qui a créé cette norme sans l'intervention du législateur afin d'éviter les problèmes découlant de l'utilisation de la lettre de change écrite, et elle est un des sujets auxquels le législateur algérien n'a pas encore donné de solution.

En fait, les effets commerciaux électroniques ne sont traités qu'à travers les banques, cependant, rien n'empêche les particuliers d'utiliser ce type de relation, et donc la possibilité d'existence de lettres de change électroniques entre les particuliers, ainsi le traitement électronique des données portés sur les titres commerciaux (chèque, lettre de change et billet à ordre) consiste à permettre à la banque émettrice du titre ou son porteur légal de réclamer à la banque de l'engagé à honorer le paiement à travers les moyens de communication électroniques.

Mots clés : la lettre de change électronique, le billet à ordre, les effets de commerce électroniques.

Summary

Electronic bill of exchange is a developed traditional means of payment and does not differ from the written bill of exchange although it was developed to improve the banking work that created this standard without the intervention of the legislature in order to avoid problems arising from the use of the written exchange, and is one of the subjects to which the Algerian legislature has not given solution.

In fact, electronic trade effects are not treated only through banks, however, nothing prevents individuals from using this type of relationship, and therefore the possibility of existence of electronic exchange of letters between individuals, as well electronic processing of data carried on commercial securities (checks, bills of exchange and promissory note) is to enable the bank issuing the title holder or his legal claim to the bank of the commitment to fulfill the payment through the electronic communication means.

Keywords: electronic bill of exchange, promissory note, the effects of electronic trade.

* طالب دكتوراه، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

مقدمة

يعتبر القطاع المصرفي من أكثر القطاعات التي تأثرا ت بالثورة المعلوماتية وبدأ الاستخدام العملي للسفتجة يطرح عدة اشكالات منها التكلفة المالية الباهظة التي تصرف على الورق المستخدم في اصدارها ، والجهد الكبير للموظفين القائمين على اتمام العمليات المتعلقة بها ، وكذا الصعوبات الناشئة عن تداول السفتجة لذلك بدأت البنوك البحث في مسألة الغاء السفتجة التقليدية أو ايجاد البديل بالإبقاء عليها مع تطويرها وتحديثها ، وفي النهاية فضلت اعتماد السفتجة الالكترونية نظرا لمميزاتها من حيث الوقت والجهد والمال وكذا انسجامها مع المعلوماتية في تنظيمها والرغبة في الاستفادة من التجهيز الالكتروني بالحاسب الالي للبنوك .

حاليا من الناحية الواقعية لا يتم التعامل بالسفاتج الالكترونية الا من خلال البنوك ، وحتى بالنسبة للسفاتج التقليدية تلعب البنوك دورا هاما في عملياتها الا أنه لا يوجد من الناحية القانونية ما يمنع الأفراد من التعامل بالسفاتج الالكترونية رغم أنها طورت أساسا خدمة للعمل البنكي ومسايرة للتطور التكنولوجي سارعت العديد من المؤسسات للاستفادة من ثورة الاتصالات وأول هذه المؤسسات البنوك التي اعتمدت في عملها اليومي على المعالجة الالكترونية للبيانات وكذلك اعتمدت وسائل دفع الكترونية (طورت التقليدية واعتمدت الحديثة منها) .

وبالتالي فالتعامل بالسفتجة الالكترونية حتى بين الافراد ممكن الا أن الأمر يحتاج الى قدر أكبر من التنظيم الفني والقانوني لمثل هذه السندات خاصة على ضوء الاعتراف بحجية المستندات الالكترونية وفي ظل اصدار القانون 04[1]/15 الخاص بالتوقيع والتصديق الالكترونيين في الجزائر.

رغم ان المشرع الجزائري قام بتعديل القانون التجاري بالقانون 02/05 الا أن هذا التعديل لم يأت بجديد فيما يتعلق بموضوع السندات التجارية الالكترونية أو ما يعرف بوسائل الدفع الالكترونية التقليدية المطورة رغم أنه أدرج لأول مرة بابا كاملا بعنوان الباب الرابع " في بعض وسائل وطرق الدفع " في تعديله للكتاب المتعلق بالسندات التجارية[2] " المواد من 543 مكرر 19 إلى المواد 543مكرر24 " حيث خصص الفصل الأول للتحويل الالكتروني للأموال والثاني للاقتطاع والثالث لبطاقات الدفع والسحب.

يرجع أول ظهور للسندات التجارية الإلكترونية إلى فرنسا في 2 يوليو 1973 ، وهذا استجابة لتوصية لجنة تطوير وتخفيض الائتمان القصير الأجل والمعروفة بلجنة "Gilet"[3] التي اقترحت وسيلة جديدة للوفاء عوضا عن السفتجة التقليدية تسمى السفتجة الالكترونية ،و تتمثل هذه التجربة الفرنسية في تدخل البنوك في هذه العملية إذ لا يتصور وجود هذه السندات إلا إذا تدخلت المؤسسات البنكية في إطارها ،و ذلك نتيجة لجهود لجنة "Gilet" التي تكفلت بمحاولة حل المشاكل المالية والإدارية الناشئة عن التعامل بالسفتجة التقليدية ، خاصة إذا تعلق الأمر بالاستفادة من الوسائل المعلوماتية الحديثة والتجهيز الالكتروني في ظل وجود الحاسب الآلي للمقاصة الموجود بالبنك المركزي بفرنسا[4].

المشرع الجزائري ورغم تعديله للقانون التجاري لم يراعي هذه التطورات التي مست السندات التجارية الالكترونية ، وبالعودة للباب المتعلق بالسندات التجارية نلاحظ أن المشرع أضاف وسائل الدفع الحديثة ، الا أنه لم يشر ضمن هذا التعديل الى أي تطوير يخص السندات التجارية خاصة وأن السفتجة الالكترونية والشيك الالكتروني يعتبران من أكثر السندات التي يمكن الاستفادة منها في تقنية المعلومات الالكترونية التي غزت القطاع المصرفي وأن جل البنوك في القطاع المصرفي تتعامل بهذه السندات.

تختار البنوك السفتجة الالكترونية في تعاملاتها نظرا لما توفره من مزايا بالمقارنة مع السفتجة العادية ، وحتى البنوك التي لا تملك الوسائل الالكترونية للمعلومات يمكن أن تتعامل بالسفتجة الالكترونية عن طريق البنوك التي تملكها لأنه لا يمكن أن تقدم السفتجة الالكترونية للتحصيل الا عن طريق البنوك التي تشترك في نظام المقاصة الالكترونية لبنك الجزائر وبالتالي يطرح التساؤل عن الحل الواجب التطبيق في حالة حدوث نزاع بين البنوك ؟ وإن كان ولا بد فرضا من تطويع قواعد قانون الصرف في التشريع الجزائري فإلى أي مدى تنطبق هذه القواعد على السفتجة الالكترونية ؟ أم أننا نجد أنفسنا أمام إشكالية حقيقية وهي وجود فراغ تشريعي يجب على المشرع الجزائري تداركه في هذه المسألة ؟

للإجابة على هذا الإشكال سنتناول الموضوع من خلال الخطة التالية:

المحور الأول: مفهوم السفتجة الالكترونية

المحور الثاني: مدى خضوع السفتجة الالكترونية لقواعد قانون الصرف في التشريع الجزائري

المحور الأول: مفهوم السفتجة الالكترونية

السندات التجارية التقليدية في التشريع الجزائري هي محررات مكتوبة وفقا لأوضاع شكلية منها السفتجة التي تعتبر المنظومة التشريعية التي تتجلى من خلالها قواعد قانون الصرف ، وكذا السند الأكثر استعمالا من طرف البنوك فيما بينها ، وبدأت الجزائر تقييس وسائل الدفع الالكتروني بضبط معاييرها وهذا استجابة للمعايير العالمية المطبقة في هذا المجال استجابة لخاصية الدولية التي يتمتع بها الدفع الالكتروني ، ومع تقييس البنوك لخدماتها تحولت السفتجة الى سفتجة الكترونية خاصة في الأساس بالتحويلات التجارية بين المهنيين والمؤسسات[5]، ولم تسلم السفتجة كوسيلة دفع مطورة من هذا التغيير (التقييس) وهو ما دفع بالعديد من مشرعي الدول إلى تعديل القوانين التي تنظم التعامل بوسائل الدفع الالكتروني وتم الاعتراف بحجية الكتابة الالكترونية والتوقيع الالكتروني لتسهيل التعامل بهذه الوسائل وهذا تلبية لرغبة الزبائن والبنوك نظرا لما توفره هذه الوسائل من جهد ووقت ومال ، وكما نعلم أن المشرع الجزائري استمد جل أحكام السفتجة الواردة بالقانون التجاري الجزائري من اتفاقيات جنيف ، لكننا نتساءل ما المقصود بالسفتجة الإلكترونية ؟ وماذا يميزها عن السفتجة التقليدية لتلقى الإقبال من البنوك ؟

أولا/ تعريف السفتجة الإلكترونية

لم يعط المشرع الجزائري تعريف للسفتجة وإنما حدد طبيعتها واعتبرها عمل تجاري حسب الشكل طبقا لنص المادة 389 من القانون التجاري ويمكننا تعريفها بالقول أنها" صك محرر وفقا لشكل معين أوجبه القانون بموجبه يقوم شخص يسمى الساحب بإعطاء أمر إلى أحد مدينيه " مسحوب عليه" بدفع قيمة نقدية في تاريخ معين أو قابل للتعيين إلى شخص ثالث يسمى المستفيد[6]. في حين اعتبر النظام المتعلق بمقاصة الصكوك وأدوات الدفع الخاصة بالجمهور العريض الأخرى[7] السندات التجارية بأنها السفاتج والسندات لأمر التي يحدد القانون التجاري مواصفاتها بينما يحدد شكلها في الوجيز **المعلوماتي لوسائل الدفع الذي سنته لجنة التقييس** ، مما يعني ضرورة تقييس السفتجة الالكترونية في الجزائر لأنه في ظل التطور التكنولوجي وادخال نظم المعلوماتية في معظم الشركات التجارية يستطيع الساحب منذ البداية انشاء سندات ممغنطة تحوي كافة البيانات التي تستلزمها السفتجة الورقية في صورتها العادية وبمجرد اصدارها يقوم الساحب بإرسال هذه المعطيات الى مصرفه الذي يتولى تقديمها للوفاء الى مصرف المسحوب عليه عبر الحاسب الالي للمقاصة[8].

وبالمقابل لا يختلف تعريف السفتجة الالكترونية عن التقليدية كثيرا إذ يمكننا أن نعرف السفتجة الالكترونية بأنها محرر **شكلي ثلاثي الأطراف معالج الكترونيا بصورة كلية أو جزئية** يتضمن الأمر الصادر من شخص يسمى السحب إلى شخص آخر يسمى المسحوب عليه بأن يدفع مبلغا من النقود لثالث يسمى المستفيد لدى الإطلاع أو في تاريخ معين[9].

وبالمطابقة بين التعريفين نلاحظ فقط إضافة جملة معالج إلكترونيا بصورة كلية أو جزئية لتعريف السفتجة التقليدية ، **وبالتالي يمكننا تعريف السفتجة الالكترونية ببساطة بأنها سفتجة تقليدية بنفس البيانات الواردة في القانون التجاري الجزائري ونفس الخصائص أدخلت عليها معالجة الكترونية أو اتخذت شكلا الكترونيا لتسهيل التعامل في المجال المعلوماتي ، وتقييسها استجابة للمعايير العالمية** ، ومنه نستنتج أن تعريف الأوراق التجارية الالكترونية لا يختلف عن مثيلاتها التقليدية ، سوى أنه يتم معالجتها الكترونيا[10].

ثانيا / أنواع السفاتج الالكترونية

تنقسم السفتجة الالكترونية إلى نوعين: سفتجة الكترونية على دعامة ورقية وسفتجة الكترونية ممغنطة وهذه الأخيرة أكثر انتشارا في المجال المصرفي وملاءمة لسرعة الأعمال المصرفية وتطوير الخدمات البنكية التي يعول عليها للمنافسة بين البنوك.

1_**السفتجة الإلكترونية الورقية la lettre de change relevé papier**: السندات التجارية الالكترونية هي التي تصدر منذ البداية بصورة تقليدية على محرر ورقي يتم معالجته الكترونيا وإدخال مضمونها على دعامة الكترونية ، أو هي عبارة عن تخزين معلوماتي للمعلومات المشكلة للسفتجة [11]فالسفتجة الالكترونية هي عبارة عن سفتجة ورقية

تتضمن نفس البيانات الشكلية التي تخضع لها السفتجة عادة بالإضافة إلى معلومات بنكية خاصة بالمسحوب عليه مأخوذة من كشف حسابه البنكي ويجب أن تشمل اسم البنك المسحوب عليه ، ورقم حسابه ، اسم الفرع الذي يوجد به الحساب ورقمه [12]، وهذا هو المقصود حينما نضيف عبارة **معالج الكترونيا بصورة جزئية** ، فالسفتجة الالكترونية مرافق للامادية [13].

تعتبر السفتجة الالكترونية الورقية مجرد سفتجة تقليدية عولجت بصورة جزئية الكترونيا ، سواء عند تقديمها للبنك ، أو عند تظهيرها لباقي الأطراف. ويتم ذلك عن طريق قيام المصرف بنقل البيانات على شريط ممغنط عن طريق الماسح الضوئي ويتم تداول هذا الشريط الذي يتضمن بيانات الحوالة من مصرف المستفيد الى الحاسب الالي للمقاصة ثم الى مصرف المحرر الملتزم بالوفاء[14]. ووسيلة الدفع هذه لا تمثل سوى حوالي 1% من اجمالي وسائل الدفع السنوية في فرنسا [15].

2_السفتجة الالكترونية الممغنطة la lettre de change relevé bande magnétique : يختلف هذا النوع من السفاتج عن السفاتج الالكترونية على دعامة ورقية إذ يختفي في هذا النوع الورق منذ بداية إنشاء السفتجة حيث يتم تسجيل بيانات السفتجة مباشرة على شريط ممغنط وبالتالي فهي شكل جد متطور بالمقارنة مع السفتجة الالكترونية الورقية وذلك لأنها تتسم بالبساطة الشديدة من الناحية المادية اذ تتجنب ضرورة التحرير المبدئي على الورق بينما يقوم الساحب في حالة السفتجة الالكترونية الورقية بتسليم مصرفه سفتجة حقيقية ورقية هذا الازدواج في العمليات لا يحدث في صدور السفتجة الالكترونية الممغنطة [16]، والسفتجة الالكترونية الممغنطة تشمل نفس الخصائص القانونية للسفتجة الورقية ولكنها لامادية واللامادية هذه تسمح بالتألية ، وبتخفيض التكاليف ، وبالتقديم والتسيير للدفع [17] ويعتبر هذا النوع الأكثر انتشارا في المجال المصرفي لأنه يمتاز بالبساطة لعدم تحريره على الورق ويصبح عمل البنك أسهل وأسرع من النوع الأول ، وبالتالي لا يمكن اعتبارها ورقة تجارية حسب جانب من الفقه لاندثار واختفاء الورق إذ تعالج كليا عن طريق الحاسب الالي أي أنها سفتجة غير مجسدة[18] .

ونظام السفتجة الالكترونية على دعامة ممغنطة هو الذي يحقق التوافق الحقيقي مع النظام الكامل للمعلومات informatique وان كان يواجه مقابل ذلك ضعفا قانونيا وذلك لان استخدام السفتجة الالكترونية حتى الان يثير كثر من المشاكل القانونية ولم يصبح حتى وقتنا هذا محل تحليل قانوني كافي [19].

وبالتالي فهذه السفتجة ليست سفتجة بأتم معنى الكلمة لأننا أمام اختفاء لخاصية مهمة من خصائص الاوراق التجارية الا وهي ضرورة وجود محرر شكلي مكتوب ، ولا وجود للورقة منذ إنشاء هذا النوع من السفاتج لأننا بصدد انشاء للسفتجة على دعامة الكترونية منذ تحريرها. بل ان السفتجة الالكترونية الممغنطة لا تخضع منذ بداية انشائها لقواعد قانون الصرف فالساحب عندما ينشئ السفتجة يقوم بوضع بياناتها على ديسك ممغنط ويرسله إلى كمبيوتر المقاصة الذي يرسله إلى بنك المسحوب عليه ومن ثم إلى المسحوب عليه.

او أن يقوم الساحب بتحرير السفتجة الالكترونية الممغنطة على شريحة ممغنطة مباشرة يقوم بعد ذلك بتسليمها لبنك المستفيد الذي يتولى إخطار بنك المسحوب عليه أو المسحوب عليه نفسه الذي قد يقبل الوفاء أو يرفض وعليه عندئذ إرسال الإخطار موقع عليه بالرفض أو القبول إلى بنكه الذي يتولى إخطار بنك المستفيد بنفس الطريقة[20].

تلجأ إلى هذا النوع من السفاتج الشركات والمقاولات الكبرى في فرنسا والمتوفرة على أجهزة معلوماتية كافية والمعتمدة على الثقة الواسعة للبنوك ، حيث تقوم الشركة بتسجيلها على شريط ممغنط وتسليمها إلى البنك فكل الأشرطة الممغنطة تجمع على الصعيد الوطني وتقدم إلى حاسوب المقاصة لبنك فرنسا الذي يرتب كل المعلومات المدونة في الأشرطة التي ينقلها إلى البنوك التي تقوم بدورها بمعالجتها [21]. ومن أهم فوائد استخدام السفتجة الالكترونية الممغنطة كوسيلة للوفاء بالديون التجارية هي بساطة الإجراءات للحصول على الدين الثابت فيها لأنها من ناحية تجنب المتعاملين الإجراءات القانونية لتحصيل السفتجة التقليدية (اتخاذ إجراءات الرجوع ، إثبات الوفاء ، الامتناع ، التظهير ، ضامن احتياطي) وبالتالي تكلف الجهد والمال إلا أن السفتجة الممغنطة غالبا ما تتضمن شرط الرجوع بلا مصاريف وبالتالي لا يعد الحامل مهمل إذا لم يقم بهذه الإجراءات ، ومن ناحية أخرى فهي تجنبه مخاطر الضياع

والسرقة والتزوير في السفتجة التقليدية [22]. ويعيب هذا النظام أنه يقتصر تطبيقه على المشروعات الكبيرة التي تملك أجهزة الحاسب الالي وتصدر فواتيرها عن طريق هذه الاجهزة فبوسع هذه الاخيرة أن تصدر سفاتجها مباشرة على شرائح ممغنطة وتسلمها الى بنوكها مباشرة الأمر الذي لا يتوفر بالنسبة لغيرها من المشروعات الصغيرة[23].

ثالثا / الطبيعة القانونية للسفتجة الالكترونية

بالعودة لنص المادة 389 من القانون التجاري الجزائري نجد أن المشرع الجزائري فصل في تجارية السفتجة واعتبرها عمل تجاري بحسب الشكل مهما كان الأشخاص الموقعين عليها ، فالسفتجة التقليدية أمر فصل في طبيعته إلا أننا نتساءل حول طبيعة السفتجة الإلكترونية ، انقسم الفقه إلى قسمين حيث اعتبر جانب من الفقه السفتجة الإلكترونية أنها ليست عمل تجاري لأن قانون الصرف الناتج عن اتفاقيات جنيف يعتمد على الحتمية المطلقة لوجود أمر على دعامة ورقية وهو الشيء الذي يظهر في النوع الأول لكنه يغيب تماما في السفتجة الإلكترونية الممغنطة وبالتالي تكييفها على أنها سفتجة مستبعد وبالنتيجة لا يتم تطبيق قواعد القانون التجاري عليها [24].

وبالتالي اتجه الفقه إلى أن السفتجة الالكترونية الممغنطة لا تخضع لقانون الصرف في حين تخضع السفتجة الالكترونية الورقية لأحكام قانون الصرف [25]، ومنه نتساءل هل سيكون هذا دافع لإقبال التجار على استخدام السفتجة الالكترونية لأنه يعتبر من بين دوافع نفور التجار من استخدام السفتجة أن الصك يثبت التزاما تجاريا شديد الوطأة على المدين[26].

رابعا / بيانات السفتجة الإلكترونية

شددت اتفاقيات جنيف على شكلية الالتزام الصرفي بضرورة تحرير السفتجة وفقا لبيانات محددة قانونا وهو نفس النهج الذي انتهجه المشرع الجزائري من خلال نصه في المادة 390 من القانون التجاري الجزائري على البيانات الإلزامية التي يجب أن تشتمل عليها السفتجة ونص على البيانات القابلة للتعويض وحددها على سبيل الحصر [27]. وما عدا هذه الحالات لا يعتد بها كسفتجة ، كما لم يمانع المشرع من إضافة بيانات اختيارية ولكننا نتساءل بالنسبة للسفتجة الإلكترونية الممغنطة عن البيانات الإلزامية والاختيارية فيها.

بالنسبة للسفتجة الإلكترونية الممغنطة من البيانات المضافة شرط الرجوع بلا مصاريف حتى تؤدي وظيفتها ، إضافة إلى البيانات الواردة في السفتجة التقليدية تضاف للسفتجة بيانات شخصية مصرفية للمسحوب عليه تتعلق ببنك المسحوب عليه (البنك الذي يكون مسحوب عليه فيه حساب)، اسم الفرع التابع للبنك الذي يوجد لديه حساب المسحوب عليه ورقمه ، وتكمن الفائدة من وراء إضافة هذه البيانات إلى خلق نوع من الربط والمعرفة بين الساحب وبنكه وبين المسحوب عليه وبنكه من ناحية أخرى [28]. وهذه البيانات ضرورية لتحصيل السفتجة في ميعاد استحقاقها دون تأخير ، كما انه يمكن للبنك المطالبة بالتسديد في حالة رفض الدفع.

خامسا /الفرق بين السفتجة الإلكترونية والورقية

تتشابه السفتجة الإلكترونية مع السفتجة التقليدية لا تختلف عنها إلا من حيث البيئة التي يتم الوفاء بها ولكن تتميز كل منهما ببعض الخصوصية ولتوضيح الصورة أكثر لابد لنا من تمييز السفتجة الالكترونية عن السفتجة التقليدية:

- من حيث بيانات السفتجة: تتضمن السفتجة الالكترونية اضافة الى البيانات المتطلبة لإنشاء السفتجة التقليدية وبالتحديد البيانات المنصوص عليها في المادة 390من القانون التجاري الجزائري بيانات اضافية يطلق عليها بيانات شخصية مصرفية خاصة بالمسحوب عليه وهي اسم بنك المسحوب عليه ، رقم حساب المسحوب عليه في هذا البنك ، اسم الفرع الذي يوجد لديه حساب المسحوب عليه.
- من حيث اختيارها كوسيلة للتعامل: يبق التعامل بالأوراق التجارية الإلكترونية أمر اختياري ، حيث يتطلب التعامل بها ضرورة الاتفاق المسبق بين الأطراف المتدخلة في السفتجة ، وبالتالي تستلزم السفتجة الالكترونية لاستخدامها ضرورة الاتفاق المبدئي بين سائر الأطراف المتدخلة في هذه السفتجة[29] (مصدر السفتجة ، البنك محرك السفتجة ، المسحوب عليه ، البنك الذي يقوم بالوفاء ، البنك المركزي وكذا اختيار الملتزمين صرفيا التعامل بها (دائن ومدين)
- شرط وجود الحاسب الآلي: لا يوجد في القانون ما يمنع التعامل بالسفتجة الإلكترونية بين الأفراد والشركات مع بعضها البعض من خلال الانترنيت ومن الأهمية بمكان ذكر

أن السفتجة الالكترونية الورقية أو الممغنطة يمتازان بضرورة توفر هذا الشرط[30].

• ضرورة صدور السفتجة الالكترونية على نموذج [31] على ان يكون النموذج معد وفق طريقة تسمح بمعاملة السفتجة الالكترونية بالمعالجة الالية للبيانات للتمكن من الاطلاع عليها بالحاسب الالي ومختلف وسائل الاتصال التكنولوجيا الحديثة.

• من حيث مدى تطبيق أحكام قانون الصرف: تنطبق على السفتجة التقليدية أحكام متعارف عليها في قانون الصرف لكن تبق الإشكالية بالنسبة لتصور مدى انطباق هذه الأحكام على السفتجة الالكترونية.

المحور الثاني: مدى خضوع السفتجة الالكترونية لقواعد قانون الصرف

في التشريع الجزائري

أول ما يبرز في هذا الصدد أنه على الرغم من تعديل عديد القوانين المرتبطة بالتجارة الإلكترونية وإصدار قوانين تتعلق بالإثبات الإلكتروني ، التوقيع الإلكتروني ، إلا أن ما يلاحظ هو غياب تنظيم قانوني متكامل لفكرة السندات التجارية الالكترونية سواء على الصعيد الدولي أو الداخلي [32] ، وبناء على هذا الوضع القائم فإنه لا مناص من اللجوء للقانون المنظم للسندات التجارية التقليدية أو كما يسميه الفقه بقانون الصرف [33] لنرى مدى إمكانية تطبيق أحكامه على السفتجة الإلكترونية وللوقوف على أهم الإشكالات التي تواجهه بصدد تطبيقه لإيجاد الحلول وتعديل بعض المواد حتى تتلاءم مع فكرة السندات التجارية الإلكترونية ، وحتى نحافظ على قانون الصرف كمنظومة تحكم السندات التجارية سنركز على أهم مبدأ في قانون الصرف ألا وهو مبدأ الشكلية .

وتثور الصعوبة في قيام بعض العمليات الواردة على السفتجة الالكترونية مثل التظهير والقبول والضمان الاحتياطي والوفاء ولكن ليست بالاستحالة، لأن هذه الصعوبة لا تحول دون تطبيق أحكام قانون الصرف كلما وجدت امكانية القيام بمثل هذه العمليات[34].

أولا / مبدأ الشكلية في السفتجة الإلكترونية

قانون الصرف يقوم على فكرة جوهرية هي فكرة الشكلية أي وجود دعامة ورقية تحمل عدد من البيانات الإلزامية والهدف من الشكلية هو جعل الورقة التجارية كافية بذاتها للدلالة على الالتزام الصرفي المتضمن فيها ، حيث يشترط فيها بعض البيانات التي تحدد بدقة حقوق والتزامات أطرافها[35] وهو ما يغنينا عن البحث خارج السند لتحديد الالتزامات سواء كانت وقائع سابقة أو لاحقة للسند وحتى تخضع السفتجة التقليدية لقانون الصرف يجب أن تكون مكتوبة في **محرر** متضمنة لبيانات إلزامية وإلا تخرج عن المجال التجاري لتتحول إلى سند عادي يخضع للقواعد العامة في حوالة الدين ، وبتعريفنا السندات التجارية بأنها محررات مكتوبة نتساءل هل الكتابة تكون فقط على الورق . الجدير بالتأكيد أنه ليس هناك في القانون ما يلزم في الاعتقاد أن الكتابة لا تكون إلا على الورق وتأكد هذا المعنى في مرجع "Lamy" لقانون المعلوماتية، حيث أشار إلى أن المشرع الفرنسي لم يحدد الدعامة التي تتم عليها الكتابة[36].

نستنتج أن الكتابة لا ترتبط بالورق أو الدعامة التي تكتب عليها إنما الهدف فقط من الكتابة هو تحديد مضمون التصرف وبالتالي فإن فكرة الشكلية الكافية بذاتها تتوفر في السفتجة الإلكترونية، وإنما لا ينظر إليها من حيث ارتباطها بالدعامة الورقية بل من حيث وظيفتها في إعداد الدليل الذي يمكن الرجوع إليه في حالة نشوب نزاع بين الأطراف.

ونلاحظ أنه بالنسبة للسفتجة الإلكترونية الورقية لا تثور أي إشكالية وبالتالي إمكانية خضوعها لقواعد قانون الصرف دون إشكالات ، أما بالنسبة للسفتجة الإلكترونية الممغنطة والتي يختفي فيها كل أثر للورق فالمعلومات التي تحتويها تكون غير مرئية ولا يمكننا قراءتها والتحقق منها إلا بتخزينها على الحاسب الآلي دون أن يكون لها أصل ورقي مكتوب سواء لدى البنوك أو البنك المركزي أو الزبائن ولأن المشرع لم يتطلب شكل معين للكتابة فيمكن قبول هذا النوع من الكتابات لأنه يكفي أن تتوفر إمكانية القراءة والتأكد من سلامة المحتوى وموافقته من المقصود منه وبالعودة إلى نصوص القانون المدني الجزائري المادة 323 مكرر من القانون 10/05 [37]، نلاحظ ان المشرع الجزائري ساوى بين الكتابة الالكترونية والكتابة الورقية، وبعد إصدار القانون الخاص بالتوقيع والتصديق الإلكترونيين خاصة وأن كلمة محرر الواردة بنص المادة 390 من القانون التجاري تشمل الكتابي والالكتروني على حد سواء مما يحتم على رجال القانون تغيير نظرتهم إلى المحرر الذي لا يمكن حصره في المحرر المكتوب وحده.

ثانيا/التظهير في السفتجة الالكترونية

التظهير هو طريقة من طرق تداول السفتجة وهذا حسب نص المادة 396 من القانون التجاري الجزائري "كل سفنجة وان لم يشترط فيها صراحة كلمة " لأمر " تكون قابلة للتداول بطريق التظهير ..." ويتميز الى ثلاث أنواع التظهير الناقل للملكية [38]، التظهير التوكيلي[39] والتظهير التأميني، ولكن هل تقبل السفتجة الالكترونية بنوعيها التظهير.

بالنسبة للسفتجة الالكترونية الورقية لا يوجد من حيث الأصل ما يمنع من خضوع السفتجة الالكترونية الورقية لنفس قواعد التظهير المطبقة على السفتجة الورقية التقليدية [40]، ومنه لا مانع من تظهير السفتجة الالكترونية الورقية ولكن من الناحية العملية ان هذه السفتجة وجدت لتوفير الوقت والجهد البشري والنفقات الباهظة للتعامل اليدوي وبالتالي فان تظهيرها يتعارض مع الفلسفة القائمة عليها، الا أن تظهير السفتجة الالكترونية الورقية ليس مستبعد اذ يستطيع المستفيد أن يستخدم التظهير مع بعض مراسليه ويمكنه أن يظهرها للمصرف أو الى حامل اخر فان ظهرها للبنك فان البنك يصبح الحامل الشرعي للسفتجة الالكترونية فيعمل على خصمها من حساب المسحوب عليه عن طريق البنك[41] ، والسفتجة الالكترونية الممغنطة بسبب عدم وجود صك مادي ملموس لا تخضع للتظهير الناقل للملكية[42] ، ومن التطبيقات التي ترد على تظهير السفتجة الالكترونية حالة الشركة التي تسلم السفاتج لبنوكها بقصد خصمها وتحصيلها[43].

بالنسبة للسفتجة الالكترونية نتساءل عن التظهير الالكتروني الذي هو نفسه التوقيع الالكتروني، ولكن يتطلب امتلاك الأشخاص نظام اتصال الكتروني بحيث يقوم الساحب بتحرير السفتجة الالكترونية بيده ثم يقوم المستفيد بمعالجتها الكترونيا وارسالها الى حامل اخر وهكذا حتى تأتي الى البنك ولكن هذا مع امكانه الا أنه يحتاج الى امكانيات ضخمة وكبيرة[44].

تتميز السفتجة الالكترونية بخضوعها لنظام خاص بالتداول، وهذا النظام قصرا بين البنوك وليس بين الأفراد العاديين فتداول هذه السفتجة لا يتم الا في النطاق المحدد لها بين البنوك، ولا يمكن أن تقترح أو تقبل بالتبادل المباشر دون المرور على الحاسب الالي للمقاصة[45]. فلا يجوز تداولها سواء كانت على دعامة ورقية أو على دعامة ممغنطة بنفس الطريقة التي يتم بها تداول السفتجة العادية.

ثالثا/ القبول في السفتجة الالكترونية

القبول هو التصرف القانوني الذي يجعل المسحوب علية المدين الأصلي بالسفتجة والملتزم بالوفاء بقيمتها في تاريخ الاستحقاق بغض النظر عما اذا كان تلقى مقابل الوفاء أم لا، ورغم أن المشرع الجزائري لم يعرف القبول الا أنه اشترط من خلال نص المادة 405 من القانون التجاري أن يحرر القبول على السفتجة والزمت المادة 407 من نفس القانون المسحوب عليه القابل بأن يدفع مبلغ السفتجة عند تاريخ الاستحقاق.

تقديم السفتجة الالكترونية الورقية للقبول أمر ممكن، ونموذج السفتجة المطبوع يشير الى امكان ذلك[46]، على أن ترسل الى القبول بنفس شروط السفاتج العادية[47]، الا أنه حتى اذا كان القبول ممكن بالنسبة الى هذا النوع من السفاتج الا أنه لا يتفق مع روح العمل بنظام السفتجة الالكترونية الورقية لأن التظهير يتطلب تداول الاوراق الأمر الذي يسعى هذا النوع من السفاتج لتجنبه، ونشير الى أنه يمكن تبني الية معينة أو اشارة دالة على القبول بالنسبة للسفتجة الالكترونية الورقية تفاديا للإشكالية التوقيع بالقبول.

أما السفتجة الممغنطة ان عملية القبول عليها تحتاج الى وجود نظام تأوي اليه أحكام مثل هذه العمليات[48] ومنه نستنتج أنه لا محل للقبول أيضا في السفتجة الممغنطة وهذا كله يرجع الى عدم اكتسابها صفة السفتجة الحقيقية وبالتالي يترتب على ذلك عدم خضوعها للقواعد الصرفية من جهة قواعد الرجوع الصرفي ومن جهة المهل ومنه نخلص في النهاية الى أن السفتجة الممغنطة ليست الا مجرد وكالة أو تحويل مصرفي لعدم وجود نظام خاص بها الى يومنا هذا.

رابعا / الضمان الاحتياطي في السفتجة الالكترونية

نصت المادة 409 من القانون التجاري " ان دفع مبلغ السفتجة يمكن أن يضمنه كليا أو جزئيا ضامن احتياطي ...ويعتبر الضمان الاحتياطي حاصلا بمجرد توقيع ضامن الوفاء على وجه السفتجة الا اذا كان صاحب التوقيع المسحوب عليه أو الساحب " ، ونموذج السفتجة المطبوع يتضمن مكانا محفوظا للضمان الاحتياطي عليها[49] ،فطبيعة السفتجة الالكترونية الورقية بشكل عام تتلاءم مع الضمان الاحتياطي ، الا أنه ينبغي أن نلاحظ أن مجال تطبيقه يصبح ضيقا بسبب عدم تظهير السفتجة الالكترونية الورقية تظهيرا ناقلا للملكية[50] ، لأن السفتجة تسلم من الساحب الى البنك

فلا محل لوجود ضامن احتياطي يضمن توقيع المظهر لأن المدينين المضمونين في هذه الحالة ليسوا سوى الساحب والمسحوب عليه .وبالتالي امكانية الضمان الاحتياطي في السفتجة الالكترونية الورقية يمكن تقريرها عند اصدار السفتجة وتتعلق بالساحب أو المسحوب عليه فقط حسب نص المادة 409 من القانون التجاري الجزائري.

خامسا/ الوفاء في السفتجة الالكترونية

يتم الوفاء بالسفتجة الالكترونية بصورتيها الورقية والممغنطة على عكس وفاء السفتجة الورقية التقليدية بطريقة الية ودون الحاجة الى تدخل شخصي من جانب الساحب أو المسحوب عليه[51]، لأن وفاء السفتجة الالكترونية سواء كانت ورقية أو ممغنطة يتم بين البنوك وعن طريق الحاسب الالي.

بالنسبة للسفتجة الالكترونية الورقية عندما يتلقى البنك السفتجة يقوم بمعالجتها الكترونيا ، ويمكنه في يوم الاستحقاق مطالبة بنك المسحوب عليه بالوفاء عبر الوسائل الالكترونية للاتصال بين البنوك وهذا ما تضمنته المادة 414 من القانون التجاري المعدلة بالقانون 02/05 "... يمكن أن يتم هذا التقديم بأية وسيلة تبادل الكترونية محددة في التشريع والتنظيم المعمول بهما " ، وفي حالة قبول المسحوب عليه بالوفاء يقوم البنك بخصم قيمة الورقة التجارية من حساب المسحوب عليه ويرسل اشارة الكترونية للبنك طالب الوفاء تفيد انتهاء عملية الوفاء ،وعلى اثر ذلك يقوم البنك بإضافة قيمة الورقة التجارية الى حساب الزبون الذي كلفه بالتحصيل ويتحقق اثبات الوفاء بالنسبة للمسحوب عليه بإشعار يرسله البنك اليه[52] .

خاتمة

نخلص في النهاية الى أنه على المشرع الجزائري إعادة تنظيم السفتجة الإلكترونية ضمن القانون التجاري أو بأنظمة بنك الجزائر لأنه أصبح لا يتماشى مع التغييرات الحاصلة على هذا السند من بيانات وعمليات جارية عليها في المجال الإلكتروني المصرفي.

لا يمكن أن تؤدي السفتجة الالكترونية الممغنطة دوراً كأداة ائتمان بل الدور الوحيد الذي يمكن أن تؤديه هو الوفاء (التحصيل) مما يغيب أحد الوظائف الاساسية للسفتجة ، وهذا نتيجة الصعوبات التي تواجهها لأنه وبالعودة الى أحكام قانون الصرف الحالي في القانون التجاري الجزائري نلاحظ عجزها عن أداء دور السفتجة التقليدية ، وحتى ولو قبلنا انشاء السفتجة الالكترونية الممغنطة بين البنوك الا أننا سنواجه صعوبة بالنسبة للأفراد الذين لا يجيدون استخدام الحاسب الالي ومنه نستنتج أن التعامل بها سينحصر لدى فئة قليلة من أفراد المجتمع . كما أن السفتجة الالكترونية الممغنطة عبارة عن مجرد تحويل الكتروني للأموال أو وكالة في التحصيل ، وبالتالي ما يتسم به قانون الصرف من قسوة في السفتجة العادية مستبعد التطبيق بالنسبة للسفتجة الالكترونية الممغنطة.

السفتجة الإلكترونية الورقية لها الدورين معا الوفاء والائتمان فهي يمكن أن تكون أداة للتحصيل (الوفاء)، ويمكن خصمها لدى البنوك وحينئذ تقوم بدور هام في دعم الائتمان ، كما أنها تقبل تطويع أحكام قانون الصرف الحالي في القانون الجزائري وتطبيقها عليه مع مراعاة خصوصيتها ، الا أننا لا زلنا نواجه اشكالية طبيعتها التجارية من عدمها وبالتالي مدى حجيتها ، وبالتالي على المشرع التدخل لحل هذه الاشكالات.

بالنسبة لمسألة التوقيع على السفتجة الالكترونية فان المادة 390 من القانون التجاري الجزائري لم تشترط صرحة المحرر الورقي ولكنها اشترطت التوقيع لصحة السفتجة وبإصدار المشرع الجزائري لقانون خاص بالتوقيع والتصديق الالكترونيين معناه الاعتراف ضمنيا بالتوقيع الالكتروني وبالتالي امكانية توقيع السفتجة الالكترونية توقيعا الكترونيا ، الا أننا نحتاج الى إمكانيات ضخمة لتطبيقه ، وتجسيد فعلي لهيات التصديق الالكتروني في الجزائر.

أخيرا نصل الى نتيجة مفادها عدم ملائمة قواعد قانون الصرف الحالية في التشريع الجزائري للتطبيق على السفتجة الالكترونية الأمر الذي يستدي وجوب اصدار نظام خاص عن بنك الجزائر أو وضع تنظيم قانوني حديث يتفق واستخدام الحاسب الالي في السفتجة ، وهذا لا يمكن تصوره الا إذا تم تعديل أحكام قانون الصرف في القانون التجاري الجزائري.

الهوامش

1. القانون رقم 15-04 المحدد للقواعد العامة المتعلقة بالتوقيع والتصديق الالكترونيين الصادر بتاريخ الاول من فيفري 2015 الموافق ل11 ربيع الثاني لسنة 1436 ، ج ر رقم 06 ، لسنة 2015.
2. القانون 05-02 المؤرخ في 06 فيفري 2005 المعدل والمتمم للأمر 59/75 المتضمن القانون التجاري ، ج ر عدد11 ، سنة 2005.
3. - محمد بهجت عبد الله قايد ، الاوراق التجارية الالكترونية ، الكمبيالة الالكترونية ، la lettre de change –relevé ، الجوانب القانونية للتجارة الالكترونية ، لجنة القانون مجموعة باحثين ، المجلس الاعلى للثقافة ،2003 ، الطبعة الاولى ، 2003 ، مصر ، ص 132.
4. - محمد محبوبي ، أساسيات في أدوات الدفع والائتمان ، دار أبي رقراق للطباعة والنشر ، المغرب ، الطبعة الأولى ، 2012 ، ص 137.
5. -MINI-guide, téléchargé depuis le site www.lesclesdelabanque.com-e-mail : cles@fbf.fr , Fédération bancaire française.
6. - محمد طاهر بلعيساوي ، الوجيز في شرح الأوراق التجارية ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2008 ، ص 19.
7. _ أنظر الملحق المرفق بالنظام رقم 05_06ن المتعلق بمقاصة الصكوك وأدوات الدفع الخاصة بالجمهور العريض الاخرى ، المؤرخ في 2005/12/15 الموافق ل 13 ذي القعدة 1426 ، ج ر العدد 26 ، لسنة 2006.
8. _ مدحت صالح غايب ،« الحوالة التجارية الالكترونية » ، مجلة تكريت للعلوم الادارية والاقتصادية ، جامعة تكريت كلية الادارة والاقتصاد ، المجلد السادس ، العدد18 ، (2010)، ص 80.
9. - مصطفى كمال طه ووائل بندق ، الأوراق التجارية ووسائل الدفع الالكترونية الحديثة ، دار الفكر الجامعي ، الاسكندرية ، 2005 ، ص 345.
10. - محمد محبوبي ، المرجع السابق ، ص 137.
11. Dispositions destinées à la clientèle, effets de commerce (LCR-BOR),CFONB comité français d'organisation et normalisation bancaires, septembre 2002, p 08
12. - سامي عبد الباقي أبو صالح ، الوفاء الالكتروني بالديون الناشئة عن المعاملات التجارية ، دار النهضة العربية ، مصر ، ص 39.
13. Dispositions destinées à la clientèle، effets de commerce (LCR-BOR),CFONB comité français d'organisation et normalisation bancaires, septembre 2002, p 08.
14. _ مدحت صالح غايب ، المرجع السابق ، ص 79، 80.
15. -Davide Barkatz, les moyens de paiement scripuraux en France et leur mise en œuvre au sein du système d'information, le point sur..., 15janvier 2014, Arrow Financial Consulting, www.arrow-group.eu ,pdf, p16.
16. _محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ، ص 139.
17. MINI-guide, téléchargé depuis le site www.lesclesdelabanque.com-e-mail : cles@fbf.fr, Fédération bancaire française.
18. - نقلا عن محمد محبوبي ، المرجع السابق ، ص 142.
19. _ محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ، ص 140.
20. - سامي عبد الباقي أبو صالح ، المرجع السابق ، ص 40.
21. - محمد محبوبي ، المرجع السابق ، ص 142.
22. - سامي عبد الباقي أبو صالح ، المرجع سابق ، ص 41.
23. _ محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ، ص 140.
24. - واقد يوسف ، النظام القانوني للدفع الإلكتروني ، مذكرة لنيل درجة الماجستير في القانون العام ، تخصص قانون دولي ، كلية الحقوق ، جامعة مولود معمري تيزي وزو ، ص 55، 56.
25. - مصطفى كمال طه ووائل بندق المرجع السابق ، ص 346.
26. - خمري اعمر ، السندات التجارية في منظور المشرع والتاجر الجزائريين ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم ، كلية الحقوق ، جامعة مولود معمري تيزي وزو ،20 جوان 2013 ، ص 358.
27. - أنظر المادة 390 من القانون التجاري الجزائري المعدل والمتمم.
28. - سامي عبد الباقي أبو صالح ، المرجع سابق ، ص46.
29. _ محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ، ص 137.
30. - ناهد فتحي الحموري ، المرجع السابق ، ص 125.
31. _ محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ، ص 137.
32. - مصطفى كمال طه وائل بندق ، المرجع السابق ، ص 346.
33. - ناهد فتحي الحموري ، الأوراق التجارية الإلكترونية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، 2010 ، الاردن ، ص 125.
34. -مصطفى كمال طه ، المرجع السابق ، ص349.
35. - بلعيساوي محمد الطاهر ، المرجع السابق ، ص 12.
36. - باطلي غنية ، الكتابة الالكترونية كدليل إثبات ، مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية ، العدد 2 ، 2011.
37. - أنظر المادة 323 من القانون المدني المعدل والمتمم بالقانون 10/05 المؤرخ في 20 يونيو 2005.
38. - التظهير الناقل للملكية هو الذي يهدف من خلاله المظهر الى نقل الحق الثابت في السفتجة الى المظهر اليه.

39. - تنص المادة 401 من القانون التجاري الجزائري " إذا كان التظهير محتويا على عبارة " القيمة للتحصيل " أو " للقبض" أو "بالوكالة " أو غير ذلك من العبارات التي تفيد مجرد التوكيل فيمكن للحامل أن يمارس جميع الحقوق الناتجة عن السفتجة ولكنه لا يمكنه أن يظهرها الا على سبيل الوكالة ...إذا كان التظهير يحتوي على عبارة "القيمة موضوعة ضمانا "أو "القيمة موضوعة رهنا " أو غير ذلك من العبارات التي تفيد الرهن الحيازي ..."

40. - سامي عبد الباقي أبو صالح ، المرجع سابق ، ص42.

41. - محمد بن قينان بن عبد الرحمان النتيفات ، الكمبيالة الإلكترونية دراسة مقارنة ، ملخص بحث مقدم لنيل درجة الماجيستير ، قسم السياسة الشرعية ، المعهد العالي للقضاء ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، المملكة العربية السعودية ، 1424 ، ص13.

42. - محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ، ص163.

43. - ناهد فتحي الحموري ، المرجع السابق ، ص 138.

44. - محمد بن قينان بن عبد الرحمان النتيفات ، المرجع السابق ، ص13.

45. - محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ، ص143.

46. - محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ص145.

47. - ناهد فتحي الحموري ، المرجع السابق ، ص 131.

48. - محمد بن قينان بن عبد الرحمان النتيفات ، المرجع السابق ، ص18.

49. __ محمد بهجت عبد الله قايد ، المرجع السابق ، ص150.

50. - ناهد فتحي الحموري ، المرجع السابق ، ص 131.

51. - سامي عبد الباقي أبو صالح ، المرجع سابق ، ص42.

52. - محمد بن قينان بن عبد الرحمان النتيفات ، المرجع السابق ، ص13.

التطوع الإلكتروني والمؤسسات الجمعوية... التفعيل والآليات

وليدة حدادي*

الملخص

أدى تطور الانترنت وظهور تقنيات الويب 2. "web.2" إلى إحداث تأثيرات معتبرة على أداء العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية، خاصة تقنيات الإعلام الاجتماعي مثل الفايسبوك واليوتيوب والتويتر وغيرها، مما أدى إلى ظهور ما يسمى بالتطوع الإلكتروني الذي يتمتع بنجاعته على تحقيق الانسجام بين أفراد المجتمع والدولة، وقدرته على تحفيز النقاشات والحوارات البناءة، وتبادل الخبرات والتعاون المتبادل في مواقع المعرفة الإلكترونية، إضافة إلى التحفيز على التفكير الإبداعي وبأنماط وطرق مختلفة.

الكلمات المفاتيح: العمل الجمعوي، العلاقات العامة، الويب 2.، مواقع التواصل الاجتماعي، التطوع الإلكتروني.

Résumé

Le développement de l'Internet et les techniques "web.2" a causé des effets considérables sur les fonctions de relation public en institutions associatives, surtout les réseaux sociaux tel que Facebook, YouTube et Twitter, Ce qui a conduit à l'émergence de la soi-disant "Bénévolat électronique", qui a l'efficacité dans la réalisation de l'harmonie entre les individus et l'état, et de sa capacité à stimuler des discussions et des dialogues constructifs, l'échange d'expériences et la coopération mutuelle dans les sites de connaissances électroniques, en plus de stimuler la pensée créative avec des différentes façons.

Mots-clés : Bénévolat électronique, Association, Les sites des réseaux sociaux.

Summary

The development of the Internet and techniques "web.2" led to a considerable effects on the performance of relation public in associative institutions, such as Facebook, YouTube and Twitter, Which led to the emergence of the so-called "electronic volunteerism", Which has the efficiency in achieving harmony between individuals and the Country , and its ability to stimulate debate and constructive dialogues exchange of escperiance and mutual cooperation in the electronic knowledge sites in addition to stimulating creative thinking and cultural norms.

Keywords: Electronic Volunteerism, Association, Social Networking Sites.

* أستاذ محاضر أ، قسم علوم الإعلام والاتصال جامعة محمد لمين دباغين سطيف-2

مقدمـــة

تعتبر الانترنت من الوسائل الهامة التى دعمت الأنشطة الإدارية والاتصالية للعلاقات العامة بالمؤسسات الجمعوية ، خاصة فى ظل ظهور تقنيات الويب .2 "web.2" ، حيث منحتها خدمات كبيرة ، وجعلت القائمين عليها يعيدون التفكير فى استراتيجياتهم الاتصالية ، كما أضافت لهم مسؤوليات جديدة ليكونوا أكثر مهارة وقدرة على تفعيل دور المؤسسة الجمعوية فى المجتمع وتحقيق أهدافها وتحسين صورتها.

وبما أن جوهر العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية هو البناء السليم لجملة من العلاقات الاجتماعية والإنسانية على مستوى الجمهور المستهدف ، فإن الفعالية الاتصالية تعد من أهم مقوماتها من أجل تخطيط وتنفيذ حملات وبرامج اتصالية والتنبؤ بنتائجها وتقييمها ، بالاعتماد على التعاون والعمل الجماعي وإشراك المواطن فيها ، وترتبط هذه الفعالية في ظل الثورة المعرفية والاتصالية التي شهدتها شبكة الانترنت بمدى وكيفية توظيف الخدمات والتقنيات الإعلامية والاتصالية الهامة التي أتاحتها للقائمين على العلاقات العامة في الجمعيات من أجل تحقيق التواصل والتفاعل بين المؤسسة الجمعوية ومحيطها الداخلي والخارجي.

وتعتبر مواقع التواصل الاجتماعي مثل الفايسبوك والتويتر واليوتيوب وغيرها من التطبيقات الاتصالية الأساسية حاليا للتواصل ونقل المعلومات والحقائق والأفكار والآراء التي تتبناها العلاقات العامة بالمؤسسات الجمعوية ، وتسعى إلى تحقيقها للمواطنين كي تحظى بدعم وتأييد الرأي العام ، وذلك من خلال إحاطة المواطنين علما بكل ما يتعلق بالشئون الأساسية للجمعية من حيث نشاطها والمشاريع الأساسية التي تسعى لتحقيقها وانعكاسات هذه المشاريع على الفئات المستفيدة من خدماتها ، وطرق وأساليب تفعيل دورها وتطويره إلى المستوى المطلوب ، وما إلى هنالك من أمور أساسية ، خاصة في ظل الارتفاع المتزايد لعدد مستخدمي هذه المواقع من مختلف الفئات الاجتماعية ، مما يجعل منها ضرورة أساسية لتفعيل العمل الجمعوي التطوعي في كل المجتمعات. ومن هذا المنطلق يهدف هذا البحث للتعرف على أهمية تقنيات الويب.2 في العمل الجمعوي التطوعي وآليات تفعيلها.

أولا-الإشكالية

استطاعت التطورات الحاصلة في تكنولوجيا الإعلام والاتصال وخاصة الانترنت أن تغير في أساليب الاتصال وفنونه وتقنياته في المؤسسات الجمعوية ، وتساهم في تحسينه وتفعيله أكثر على المستويين الداخلي والخارجي ، مما مكن الجمعيات من تطوير أدائها في بيئات تعاني من مشكلات عديدة ، خاصة وأن الاهتمام بممارسة العمل الجمعوي والتطوعي المنظم في جميع المجالات البيئية والصحية والثقافية والأمنية في العصر الحالي ، أصبح يعرف تزايدا كبيرا ، إذ أنه لم يعد ذلك النشاط المقتصر على الأعمال الخيرية وجمع التبرعات ، بل أصبح يشكل عاملا أساسيا في تحقيق التنمية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في كل المجتمعات.

حيث استطاعت العلاقات العامة باعتبارها وسيطا هاما بين إدارة الجمعية وجمهورها ، في ظل البيئة الرقمية وما أتاحته من خدمات اتصالية وإعلامية هامة ، خاصة مع تطور الانترنت وظهور الويب 0.2، أن تصل إلى عدد كبير من الجمهور المستهدف ، وتأثر في اتجاهاته وقيمه في سبيل تقديم الدعم المعنوي والمادي للعمل الجمعوي والمشاركة فيه ، ونشر مبادئه بطرق سهلة عبر الفضاء الافتراضي ، وفي هذا الإطار "توصلت دراسة نزال وحبش إلى أن شيوع استخدام وسائل التواصل الاجتماعي الإلكترونية عبر الانترنت أثر كثيرا في انتشار التطوع الإلكتروني ، الذي شكل وسيلة سهلة وسريعة في مجال ممارسة النشاطات التطوعية المتنوعة ، كما أنه نقل النشاط التطوعي من إطاره المحلي المحدود إلى نطاق النشاط العالمي الواسع"[1].

ذلك أن استخدام مواقع التواصل الاجتماعي مثل الفايسبوك والتويتر واليوتيوب وغيرها ، يمكنه أن يلعب دورا هاما في مساندة العلاقات العامة بالمؤسسات الجمعوية ، ومساعدتها في تحقيق أهدافها ، وأنه مهما بلغت قدراتها وكفاءتها ، واتسع مجال نشاطها فإنها تحتاج للإعلام الاجتماعي بكل أشكاله أو وسائله لبلوغ غايتها وبث رسالتها إلى المجتمع بأسره ، ذلك أن العديد من الدراسات والبحوث العلمية تؤكد قوة تأثير هذا الشكل الجديد من الإعلام في اتخاذ القرار وفى تغيير السلوك العام ، حيث يرى بيسكر "Peisker" "أن شبكات التواصل الاجتماعي يمكن عن طريق تفاعليتها وخاصيتها التشاركية أن تفتح ما يسمى بالمساحات من أجل

التغيير التي تعمل على توازن المعرفة مع القوة، وأن قدرة شبكات التواصل الاجتماعي على إحداث التغيير بشكل ناجح تتوقف على معرفة وفهم قدرة هذه المجتمعات" [2].

وبقراءة سريعة لمؤشرات وأرقام مستخدمي هذه المواقع الاجتماعية، نجد أن هناك ارتفاعا لنسبة استخدامها خاصة لدى الشباب، حيث ذكر تقرير عالمي حديث أن المنطقة العربية سجلت مع نهاية الشهور الأحد عشر الأولى من عام 2012 قرابة 44 مليون مستخدم نشط للشبكة الاجتماعية على الإنترنت (شبكة الفيسبوك) الاجتماعية. وجاء في التقرير أن توزيع أعداد مستخدمي الفيسبوك في هذه الدول بحسب الجنس انقسم بين 65 % للذكور، و35 % للإناث، وبحسب الفئة العمرية استحوذت الفئة العمرية (من 18 سنة إلى 24 سنة) على النسبة الأكبر بحوالي 36 % من إجمالي المستخدمين، وجاءت في المرتبة الثانية الفئة العمرية (من 25 سنة إلى 34 سنة) بنسبة 32 %، ثم الفئة العمرية (من 35 سنة إلى 44 سنة) بنسبة 11%. وقد جاءت الجزائر في المرتبة الرابعة في قائمة بلدان المنطقة العربية بحوالي 4 ملايين مستخدما من حيث تعداد مستخدمي الفيسبوك.[3] كما يشير تقرير حديث إلى أن فئة الشباب تمثل الغالبية العظمى من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي، ففي يونيو2013 وصلت النسبة المئوية لإجمالي المستخدمين الذين تتراوح أعمارهم من 16 إلى 34 عاما إلى 77%، كما وصلت النسبة المئوية لإجمالي مستخدمي فيسبوك الذين تتراوح أعمارهم من 15 إلى 29 عاما في ماي2014 إلى67.4%.

هذه الإحصائيات تؤكد على توفر قاعدة كبيرة من المستخدمين الذين يمكن إشراكهم في القضايا الثقافية والاجتماعية من أجل تشكيل الوعي المدني لديهم من طرف الجمعيات والتنظيمات التطوعية، وهذا ما يجعل من استخدام القائمين على العلاقات العامة فيها للشبكات الاجتماعية ضرورة حتمية لا مناص منها لأداء مهامهم وأنشطتهم الجمعوية بسهولة وفعالية كبيرة، من خلال صفحات خاصة تساهم بشكل فعال في زيادة فرصة تواصلهم مع المواطنين، فيكونون على اطلاع دائم على حاجياتهم واتجاهاتهم، وما يبدونه من آراء وانطباعات حول القضايا المجتمعية المختلفة، كما تسهل تفاعلهم مع منظمات المجتمع المدني الأخرى المحلية والدولية، وتبادل الخبرات واكتساب المهارات المختلفة للقيام بدورهم بفعالية، وتوفر لهم المعارف والمعلومات المتنوعة التي تمكنهم من رسم الاستراتيجيات الاتصالية، ووضع وتنفيذ البرامج والحملات الإعلامية والتوعوية والتحسيسية، من أجل حماية ووقاية المواطنين خاصة الشباب منهم من الوقوع في الآفات الاجتماعية المختلفة، والمساهمة في إنتاج عناصر بشرية فاعلة وإيجابية وقادرة على خدمة المجتمع وتنميته.

وفي هذا الإطار تأكد الدراسات العلمية للباحثين مثل: Luttrel (1992) وSolis (2007) و Wernet (2010) و Grunig (2011) "أن وسائل الإعلام الاجتماعي هي نموذج للاتصال في اتجاهين"[5]، مما جعل مواقع التواصل الاجتماعي تكتسي أهمية بالغة في الوقت الحالي في ترسيخ الثقافة المدنية وقيم العمل التطوعي من أجل خدمة المصلحة العامة للمجتمع، ومساندة الفاعلين الجمعويين في أنشطتهم الاتصالية والتفاعلية"، ولذا ينبغي كما أوضح" لوتريل" امتلاك ممارسي العلاقات العامة بمختلف المؤسسات الجمعوية للعديد من المهارات والخبرات في أشكال الاتصال المتعددة خصوصا الإعلام الجديد لكي يكونوا قادرين على تحقيق النجاح في الجمعيات التي يمثلونها"[6].

وعلى هذا الأساس يسعى هذا البحث لتسليط الضوء على آليات استخدام تقنيات الويب.2 في تفعيل العمل الجمعوي التطوعي، من خلال الإجابة على التساؤلات الآتية:

- ما هي مواقع التواصل الاجتماعي، وما علاقتها بالعمل التطوعي الإلكتروني؟
- ما هي أشكال استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في دعم هذا الأسلوب التطوعي الحديث؟
- ما هي السبل والآليات المعتمد عليها في مواقع التواصل الاجتماعي لتفعيل العمل الجمعوي التطوعي؟

ثانيا-تحديد المفاهيم الأساسية

1-مفهوم الجمعية

يعرف إزاجاني سيرانو " Isagani R. Serrano" الجمعيات بأنها "القاعدة النظرية لأي جماعة تريد أن تنظم نفسها ذاتيا ولها هدف اجتماعي خاص بها سواء كان هذا الهدف يؤدي للتحول أم لا".[7]

ولهذه المنظمات التطوعية التي تهدف إلى عدم تحقيق عائد مادي أو ربح أشكال مختلفة، هي:[8]

– منظمات اجتماعية: تهدف إلى خدمة البيئة المحلية ، ورفع المستوى الاجتماعي لأعضائها.

– منظمات مهنية: هدف أعضائها هو تعزيز حياتهم المهنية ، وأعضائها من مهنة واحدة مثل النقابات.

– منظمات تعليمية: هدفها نشر التعليم وتدار بهيئة خاصة بعيدة عن الحكومة مثل الجامعات الخاصة.

– منظمات دينية: تمثل وتدعم دين معين ، وفي نفس الوقت تقوم بخدمات أخرى بجانب الخدمات الدينية.

– منظمات سياسية: تحاول التأثير على السياسة العامة ، هدفها كسب شعبية كبيرة والتأثير على الناس حتى تستطيع السيطرة على الحكومة.

– منظمات ثقافية: خصصت لتدعيم بعض النواحي الثقافية والإنسانية.

– منظمات توعية: وتنقسم هذه المنظمات التطوعية إلى أربعة أنواع:

- المنظمات التطوعية التي تهدف في الأساس إلى مساعدة فئة محرومة كالمسنين والمعاقين.
- منظمات تطوعية المستفيدين منها أعضائها أنفسهم ، هدفها ترقية خدماتها كجمعيات المكفوفين وجمعيات الصم.
- منظمات غير حكومية ذات أهداف عامة تركز على تنوير الرأي العام كجمعيات حماية البيئة وحقوق الإنسان.
- منظمات تطوعية تستفيد منها منظمات أخرى كروابط مجالس المنظمات التطوعية على المستوى المحلي والوطني والدولي.

ونظرا لكون تعريف المنظمات التطوعية يواجه صعوبات كثيرة بسبب اختلاف الرؤى والمنظورات ، وكذلك بسبب تعدد الوظائف التي تقوم بها فعلا المنظمات التطوعية في المجتمعات المحلية المختلفة ، لجأت بعض البحوث الدولية المقارنة إلى الاعتماد على عدة معايير لتعريف المنظمات التطوعية وهي:[9]

– أن تكون المنظمة مؤسسة لتقديم الخدمات وليس بغرض الفائدة.

– لا ينبغي أن تدخل في الدعاية السياسية لتؤثر على الانتخابات من بين القطاع العام.

– أن تكرس المنظمة كل سنداتها بشكل دائم لرسالتها الأساسية ولا ينبغي عند تفككها أن توكل إلى أي فرد أو مؤسسة أخرى.

– أن هذه المنظمات غير حكومية أي أنها غير مرتبطة هيكلياً بالحكومة ولكنها يمكن أن تحصل على دعم منها.

– أن هذه المنظمات غير هادفة للربح ومستقلة عن القطاع العام.

– أن تحكم وتدار ذاتياً وليس من قبل قوة خارجية.

– يجب أن تحصل على قدر من المساهمة التطوعية -أن تؤدي هذه المنظمات التطوعية خدمة عامة لكل من يستحقها وليس لأعضائها فقط.

– أنها قادرة على الوصول إلى المناطق النائية والفقيرة في الريف ، والعمل بتكاليف منخفضة.

2-مفهوم مواقع التواصل الاجتماعي

هي مجموعة من المواقع على شبكة الانترنت ، ظهرت مع الجيل الثاني للويب "web 2" ، تتيح التواصل بين الأفراد في بنية مجتمع افتراضي ، يجمع بين أفرادها اهتمام مشترك أو شبه انتماء (بلد ، مدرسة ، جامعة ، شركة) ، يتم التواصل بينهم من خلال الرسائل ، أو الاطلاع على الملفات الشخصية ، ومعرفة أخبارهم ومعلوماتهم التي يتيحونها للعرض ، وهي وسيلة فعالة للتواصل الاجتماعي بين الشباب ، سواء كانوا أصدقاء من الواقع الاجتماعي ، أو أصدقاء تم التعرف إليهم من خلال السياقات الافتراضية.[10]

إذن فمفهوم مواقع التواصل الاجتماعي يشير إلى مساحات افتراضية في شبكة الانترنت تسمح للمستخدمين بإنشاء صفحات شخصية للتعريف بأنفسهم ، وممارسة مختلف هواياتهم واهتماماتهم ، واستخدام الأدوات الاتصالية المتنوعة للتفاعل والتواصل وطرح الموضوعات والأفكار ومناقشتها مع الآخرين من ذوي الاهتمامات المشتركة ، سواء كانوا من الأصدقاء الذين يعرفونهم في الواقع ، أو الذين يشاركونهم الاهتمام نفسه في الواقع الافتراضي ، من أجل ممارسة العمل التطوعي الإلكتروني.

3-مفهوم العمل التطوعي

"هو جهد إرادي يبذله الفرد دون توقع عائد مادي بهدف المشاركة في تحمل مسؤولياته تجاه المجتمع ومؤسساته من أجل الإسهام في حل المشكلات ، وكذلك تحقيق الخطط والطموحات التي يسعى إليها المجتمع ومؤسساته".[11]

ويمكن التمييز بين شكلين من أشكال العمل التطوعي:[12]

- **العمل التطوعي الفردي**: هو سلوك أو فعل اجتماعي يمارسه الفرد من تلقاء نفسه وبرغبة وإرادة منه ، دون ابتغاء أي مردود مادي ، ويقوم على اعتبارات أخلاقية أو اجتماعية أو إنسانية أو دينية.
- **العمل التطوعي المؤسسي**: وهو أكثر تقدما من العمل التطوعي الفردي وأكثر تنظيما وأوسع تأثيرا في المجتمع ، وتمثل صورة حية من التفاعل الاجتماعي لتوفير الحاجات الأساسية لمختلف شرائح المجتمع ، وقد أخذت المؤسسات والجمعيات والمنظمات التطوعية تنتشر في المجتمع الحديث بشكل كبير ، وأصبحت عملا جماعيا منظما ، من أجل المحافظة على استمراريتها ، وحمايتها من الانحراف والاستغلال.

وتتجلى صور العمل التطوعي في كونه التجسيد العملي والواقعي لتطبيق وممارسة مبدأ التكافل الاجتماعي ، ويشكل استثمارا إيجابيا وفاعلا لأوقات الفراغ لدى الشباب ، ويؤسس العمل التطوعي بشكل جاد لقاعدة تنموية صلبة ، خاصة وأن التطوع يعد أحد المؤشرات الدالة على مستوى نضج الشعور بالمواطنة والانتماء للوطن والأمة ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فإن التطوع يخرج الفرد من دائرة الانتماء القبلي الضيق والطائفي المتحيز والحزبي المحدود إلى دائرة الانتماء الواسع والشامل ، وهو الانتماء إلى المجتمع بكل أطيافه وتكويناته ، وهذا يدفع إلى تعبئة كل الطاقات البشرية واستثمارها لصالح كافة الشرائح الاجتماعية في المجتمع ، ولهذا يمكن القول أن التطوع ظاهرة هامة للدلالة على حيوية الجماهير ، وإيجابياتها ، ولذلك يؤخذ كمؤشر للحكم على تقدم الشعوب.[13]

4-مفهوم العمل التطوعي الإلكتروني

التطوع الإلكتروني "هو المهام التطوعية التي تتم بصورة كلية ، أو في جزء منها خلال شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) سواء في البيت أو العمل". ويطلق عليه "التطوع الافتراضي" أو "التطوع المصغر" أو "التطوع أون لاين".[14]

ثالثا-أهمية العمل الجمعوي التطوعي في ظل البيئة الرقمية

يعد العمل الاجتماعي والتنموي التطوعي في عصرنا الحالي إحدى الركائز الأساسية لتحقيق التقدم الاجتماعي ، والتنمية بمختلف جوانبها ، ومعيارا لقياس مستوى الرقي الاجتماعي للمجتمعات والأفراد ، خاصة في ظل زيادة تعقيدات الظروف الحياتية وازدياد احتياجات المجتمع ، مما جعل وجود المنظمات التطوعية ضروري لمساندة الجهات الحكومية ، وتحقيق التواصل بينها وبين مختلف شرائح المجتمع ، وتكملة دورها لتلبية الاحتياجات الاجتماعية ، حيث يتفق المهتمون بأمور التنمية على أن التعاون ما بين القطاع الحكومي والقطاع الخاص والمؤسسات الجمعوية مع بعضها البعض ، هو شرط ضروري لإحداث التنمية الحقيقية.

وقد زاد عدد الجمعيات والمؤسسات الخيرية في العالم في الآونة الأخيرة ، والتي تمارس دورا تنمويا لا يمكن إغفاله في العديد من القضايا التنموية ، الأمر الذي وصل إلى أن الأمم المتحدة أضحت في مؤتمراتها العالمية تنظم منتدى (forum) لهذه المؤسسات لكي تعبر عن آرائها ، ولتعظيم مشاركتها في التنمية إلى جانب المؤسسات الحكومية ، وذلك كرد فعل لنجاحات تلك المؤسسات وتشجيع استمراريتها في أداء دورها التنموي[15] ، ويتطلب ذلك المشاركة الشعبية في المنظمات التطوعية ، التي تعتبر هدفا ووسيلة في نفس الوقت ، هدفا يتضمن اشتراك المواطنين في تحمل مسئولياتهم تجاه العمل التنموي ، ووسيلة يمكن من خلالها تحقيق أهداف التنمية التي تعود نتائجها في النهاية إلى الجماهير.[16]

وفي ظل التطور الهام في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال ، ولاسيما شبكة الانترنت ، وتزايد عدد مستخدميها بشكل كبير جدا ، ظهر التطوع الإلكتروني كنمط جديد للعمل الجمعوي التطوعي منذ نهاية القرن الماضي ، نتيجة القفزة الهائلة والنوعية في مجال تقنيات الاتصال ، التي ساهمت في إبراز وتطوير ونشر ثقافة هذا النمط الجديد من الممارسة التطوعية ، بداية من مؤسسة الأثير الإلكترونية ، التي تمحورت فكرتها على خلق قاعدة بيانات للربط بين المتطوعين حول العالم ، وبين مؤسسات العمل التطوعي المختلفة ، وانطلاقا من مبادرات هذه المؤسسة ، التي ركزت على الاستفادة من إمكانيات الانترنت في الاتصال ، كان التأسيس للعمل التطوعي الإلكتروني ، الذي يعتبر معززا للعمل الجمعوي ومكملا له ، ودافعا لسرعة تخطيطه وتنظيمه وتنفيذه ، فهو يمكن المتطوع عبر وسائل الاتصال الإلكترونية من تحقيق ما قد يعجز عنه المتطوع عبر الوسائل التقليدية ، كطرح الأفكار الجديدة ، وحشد أكبر عدد من المتطوعين الجدد ، لممارسة أنشطة تطوعية تتناسب مع قدراتهم وإمكانياتهم ، إضافة إلى

أن التطوع الإلكتروني يشكل وسيلة سريعة ودقيقة في التواصل مع المؤسسات الجمعوية المختلفة، مما يشكل دعما لديمومة التواصل بين هذه المؤسسات ضمن دائرة أوسع، سواء في نشر الأفكار وتبادلها، أو حشد الدعم والتأييد لأهداف العلاقات العامة بالجمعيات.[17]

وقد استطاع العمل الجمعوي التطوعي بفضل استخدامه للتطبيقات الاتصالية والإعلامية المختلفة على شبكة الانترنت أن يستغل طاقات المتطوعين واستثمارها بشكل إيجابي، وتصنيف مهاراتهم وتوظيفها في الاتجاه التطوعي المراد تحقيقه، ودفعهم لشغل أوقات فراغهم في إنتاج طاقات نافعة للمجتمع، خاصة أن وسائل التطوع الإلكتروني تذلل أمامهم كل العقبات المتصلة بالحدود الزمانية والمكانية، ما يوفر فرصة كبيرة لذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن والنساء وغيرهم من شرائح المجتمع، التي يصعب عليها الحركة أو التنقل من مكان إلى آخر، من إطلاق قدراتهم ومواهبهم وخبراتهم في سبيل خدمة مجتمعهم في المجالات الحياتية المختلفة.[18]

رابعا-استخدامات الانترنت في العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية

أعطت ثورة المعلومات التي برزت في السنوات الماضية للعلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية أدوات جديدة لتوصيل رسائلهم بأكبر قدر من السرعة والدقة، من خلال تدعيم أنشطتها ومنحها قيمة أكبر، كما أعطت المرونة والثقة والجاذبية والراحة للناشطين والمتطوعين، ويتجلى ذلك فيما تتيحه الانترنت من كم هائل من المعلومات والبيانات، وسهولة في الاتصال بسرعة وبأقل التكاليف. "حيث أصبح لزاما على العلاقات العامة في المؤسسات عموما ومنها الجمعيات في ظل تكنولوجيا الانترنت إعادة التفكير في استراتيجياتها الاتصالية والإدارية، وتأتي أهمية الانترنت من خلال تلك التطورات السريعة التي تشهدها سواء في خصائصها الفنية أو في عدد مستخدميها.[19]

ولأن العلاقات العامة في الجمعيات على وجه الخصوص لها دور أساسي كهمزة وصل بين الجمهور المستهدف وبين أهداف المؤسسة ودعمها ماديا ومعنويا ونشر اتجاهاتها ومبادئها وقيمها وقياس اتجاهات الجمهور التي تهم المؤسسة وتطوير المواقف المسموعة في سياسات المؤسسة وتواصل وجهات النظر والأفكار مع صناع القرار، وصياغة السياسات والبرامج المصممة لتشجيع الجمهور المستهدف على التبرع لصالح المؤسسة وإدارات العلاقات الصحافية والإشراف على الحملات الإعلامية، فإن استخدامها لوسائل الاتصال الحديثة خاصة الانترنت للتواصل مع الجمهور المستهدف سواء كان من المتبرعين أو المستفيدين يعتبر أمرا أساسيا في ظل البيئة الرقمية.[20]

حيث تستعين العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية بالانترنت لتحقيق الأهداف الآتية:[21]

-دعم الصلة مع أجهزة الإعلام.

-العمل على كسب تأييد الرأي العام وثقته بإمداده بالمعلومات الصحيحة والحقائق عن مشروعات الجمعيات وخدماتها.

-تكوين صورة طيبة ومكانة مهمة للجمعيات لدى الجمهور الخارجي.

-الإعلام عن أهداف الجمعية وأوجه نشاطها.

- نشر الوعي بأهمية الخدمات التي تقدمها الجمعيات.

-نشر الوعي بما يتعلق بنشاط الجمعية على المستوى الوطني.

-كسب ثقة المتبرعين وتعاونهم.

-ربط العاملين بعلاقات وطيدة وإيجاد روح التفاهم بينهم.

-دعم العلاقة بين الجمعيات والأجهزة الأخرى.

-دعم العلاقات الإنسانية بين مجموع العاملين بالجمعيات.

-دعم التعاون المثمر بين العاملين والإدارة.

-إيجاد درجة عالية من الترابط بين إدارات الجمعية.

-تنمية المستوى الثقافي والاجتماعي للعاملين بالجمعيات.

-رفع الروح المعنوية للعاملين وتلبية مطالبهم.

ويعتمد القائمون على العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية على مجموعة من التقنيات والخدمات الإلكترونية في شبكة الانترنت، مثل المواقع الإلكترونية، والبريد الالكتروني " E-mail"، والمحادثات المباشرة " Chat" والمنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي كالفايسبوك، اليوتيوب، التويتر وغيرها من الخدمات العنكبوتية المختلفة، التي تتمتع بالوسائط المتعددة (النصوص والصور المتحركة والثابتة والصوت)، مما جعل منها أحد الأسس المهمة التي تبنى عليها استراتيجيات الاتصال في العلاقات العامة، حيث

وفرت هذه الوسائل لممارسي العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية طرقا متعددة للتواصل، وتقديم مؤسساتهم لجمهورها المستهدف، كما مكنتهم من إقامة علاقات إستراتيجية معه، من خلال تحقيق التواصل والحوار معه، إلا أن فاعلية هذه الوسائل في تحقيق أهداف المؤسسات الجمعوية تتوقف على مدى استخدام وفهم ممارسي العلاقات العامة لهذه الوسائل، ومدى وجود اتجاهات إيجابية لديهم نحوها، سواء من ناحية فائدتها، أو أخلاقياتها أو تأثيرها أو مصداقيتها، ومدى توافر بيئة مواتية لهذا الاستخدام.[22]

ومن مظاهر استفادة العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية من شبكة الانترنت، ما يأتي:

– إنشاء موقع للجمعيات على الشبكات الاجتماعية والمدونات والمنتديات؛ الأمر الذي مكنها من التسويق لما تريد، وأن تتواصل مع الجمهور الذي يتعامل مع البيئة الإلكترونية، وتضع الأنشطة والخدمات التي تقدمها على موقع الجمعية، وأن تصل إلى المستفيدين من خلال محركات البحث " Search Engine" المتعددة، التي تسمح بوصول أي شخص يستخدم ذلك المحرك، مثل "جوجل" و"ياهو" ومحركات " Infoseek" و" altavista" و" Amazon" و" MSN" و" lycos" وغيرها، بالإضافة إلى الأدلة الموضوعية المتخصصة في العمل التطوعي، وأن تضع النماذج والأعمال الإدارية الخاصة بالاشتراكات ولوائح الجمعية، والهيكل الإداري، والتبرعات، والمشروعات التي تقوم بتنفيذها على أرض الواقع، وتخبر المتبرعين بثمار تبرعاتهم عن طريق شريط الأخبار[23]، حيث أكدت دراسة هيل ووايت "Hill&White" أن 75% من ممارسي العلاقات العامة يؤكدون أهمية موقع المؤسسة في تدعيم العلاقة مع وسائل الإعلام، وفي الوصول إلى الجماهير، وبناء علاقات إستراتيجية معهم بنسبة 83% من ممارسي العلاقات العامة.[24]

– التواصل الإلكتروني عن طريق البريد الإلكتروني، والمحادثات الفورية، ومجموعات النقاش، فتستطيع الجمعيات أن تكون على تواصل مع العالم على باستمرار يوميا، في أي وقت من الأوقات؛ مما يجعلها قادرة على إعداد قاعدة اتصالات عريضة بين كافة المستفيدين على مستوى العالم،[25] "حيث تمكن خدمة البريد الالكتروني من توزيع الرسائل الإعلامية والإدارية سواء لأعضاء الجمعية أو للمواطنين أو للمؤسسات التطوعية المماثلة أو الناشطة في مجالات مختلفة على المستوى المحلي والعالمي، إضافة إلى إرسال البيانات الصحفية إلى الصحف ووسائل الإعلام"[26].

– استخدام قواعد البيانات التي تتوفر عليها شبكة الانترنت في الحصول على المعلومات والأخبار ومعرفة كل جديد في شتى المجالات والاستفادة منها في إعداد وتنفيذ البرامج الاتصالية والحملات الإعلامية.[27]

– تصفح المواقع المختلفة لمؤسسات المجتمع المدني سواء الناشطة في نفس المجال أو في مجالات أخرى، ومراكز الأبحاث والمعاهد والجامعات والتعرف على أنشطة هذه المؤسسات والاستفادة منها و تبادل الخبرات معها.[28]

– استخدام تقنيات الويب 2.0 ، وهي عبارة عن الجيل الثاني من مواقع وخدمات الإنترنت، والتي عملت على تحويل الإنترنت إلى منصة تشغيل للعمل بدلا من كونها مواقع فقط، وتعتمد في تكوينها على الشبكات الاجتماعية " Social Network"، مثل "الفيسبوك" و"اليوتيوب "(Youtube)، والويكيز " Wikis"، والمدونات " Blogs" و"أجاكس" (Ajax)، وهي الصفحات التي يستطيع زائر الموقع التعديل عليها، أو المواقع التي تسمح لك بوضع مفضلتك على الإنترنت " Favorites"، بحيث يسمح للآخرين الاطلاع عليها، والبحث فيها، مثل موقع " del.icio.us"، أي تسمح للمستخدمين التفاعل فيما بينهم من خلالها؛ الأمر الذي يخدم الجمعيات بشكل كبير في التطوع الإلكتروني، واستقطاب المتطوعين، وجلب التبرعات، ومشاركة كافة الزائرين للموقع بصورة أكثر تفاعلية..[29]

خامسا-استخدامات مواقع التواصل الاجتماعي في العمل الجمعوي التطوعي

لا شك أن الاتصال المباشر بالمستخدمين مسألة هامة جدا في العمل الجمعوي والتطوعي، لأن ردود الفعل التي تستقبلها المنظمات التطوعية عبر الإعلام الاجتماعي والتي تعبر عن اتجاهاتهم وآرائهم تجعل هذه المنظمات أكثر انسجاما مع المواطنين والهيئات الأخرى.

وتعتبر متابعة ورصد مشاركات المستخدمين عبر وسائل الإعلام الاجتماعي من طرف الناشطين بالجمعيات والتفاعل معهم من الشروط الأساسية في العمل التطوعي حاليا. حيث يعد الفيسبوك مثلا أداة حيوية في هذا المجال، فمع ارتفاع دخول الفايسبوك في الجزائر بنسبة 8.20 %مقارنة بعدد السكان، وبنسبة 60.32% بالنظر إلى

مستخدمي الانترنت، حيث بلغ عدد مستخدمي الفيس بوك مليونين و835 ألفا،[30] يمكن للمتطوعين أن يرسلوا رسائلهم بشكل أكثر وضوحا وأن يصلوا إلى أكبر عدد ممكن من المستخدمين، " فشبكات التواصل الاجتماعي أدوات للحوار، ولذا يرى الرئيس التنفيذي لفيسبوك "مارك زوكربيرج "، أن" نشر رسالتك وتوجيهها إلى الناس ليست كافية بعد، يجب أن تدخل في محادثات وتقيم ارتباطا معهم".[31]

حيث تقدم مواقع التواصل الاجتماعي مجموعة من الخدمات للمستخدمين مثل المحادثة الفورية والرسائل الخاصة والبريد الإلكتروني والفيديو والتدوين ومشاركة الملفات وغيرها من الخدمات، التي أحدثت تغيرا كبيرا في كيفية الاتصال والمشاركة بين الأشخاص والمجتمعات وتبادل المعلومات، وخاصة في مجال الأعمال الجمعوية التطوعية، وتتمثل أبرز هذه الخدمات فيما يأتي:[32]

– الصداقات والمجموعات، حيث تتيح كثير من مواقع الشبكات الاجتماعية خاصية إنشاء مجموعة اهتمام، حيث يمكنك إنشاء مجموعة بمسمى معين وأهداف محددة، ويوفر موقع الشبكة الاجتماعية لمالك المجموعة والمنضمين إليها مساحة أشبه ما تكون بمنتدى حوار مصغر وألبوم صور مصغر كما تتيح خاصية تنسيق الاجتماعات عن طريق ما يعرف بـ Events أو الأحداث ودعوة أعضاء تلك المجموعة له ومعرفة عدد الحاضرين من عدد غير الحاضرين. وبناء على ذلك فإن مواقع الشبكات الاجتماعية تساعد متصفحيها على إنشاء صداقات جديدة وتكوين علاقات في مجالات عديدة بتبادل الأخبار والمعلومات وتطور الأحداث. وتتوقف إيجابية أو سلبية استخدام هذه الخدمة على حيوية وفاعلية مستخدميها والهدف من استخدامها.

– الصفحات، حيث ابتدع هذه الفكرة موقع الفيس بوك، واستخدمها تجاريا بطريقة فعالة حيث تعمل حاليا على إنشاء حملات إعلانية موجهة تتيح لأصحاب المنتجات التجارية أو الفعاليات توجيه صفحاتهم وإظهارها لفئة يحددونها من المستخدمين، وتقوم الفيس بوك باستقطاع مبلغ عن كل نقرة يتم الوصول لها من قبل أي مستخدم قام بالنقر على الإعلان، تقوم فكرة الصفحات على إنشاء صفحة يتم فيها وضع معلومات عن المنتج أو الشخصية أو الحدث ويقوم المستخدمون بعد ذلك بتصفح تلك الصفحات عن طريق تقسيمات محددة ثم إن وجدوا اهتماما بتلك الصفحة يقومون بإضافتها إلى ملفهم الشخصي.

– الملفات الشخصية أو صفحات الويب، وهي ملفات تمكن من خلالها الفرد من كتابة بياناته الأساسية مثل الاسم والسن وتاريخ الميلاد والبلد والاهتمامات والصور الشخصية، ويعد الملف الشخصي هو بوابة الوصول إل عالم الشخص.

– إرسال الرسائل، وتسمح هذه الخدمة بإرسال الرسائل سواء إلى الأصدقاء الذين في قائمة الشخص، أو غير الموجودين في القائمة.

– البومات الصور، وتتيح هذه الخدمة للمستخدمين إنشاء عدد لا نهائي من الألبومات ورفع مئات الصور، وإتاحة المشاركات لهذه الصور للاطلاع عليها وتحويلها أيضا.

– إنشاء قناة خاصة بالجمعية، حيث يساعد موقع اليوتيوب ""youtube المؤسسات في إنشاء قناة خاصة لها لعرض كافة الأنشطة والخدمات والأعمال التي تقوم بها بشكل دوري.

وتتضح أهمية استخدامات التطبيقات الإعلامية والاتصالية لمواقع التواصل الاجتماعي في العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية، فيما يأتي:

1-موقع الفايسبوك " Facebook"

إن الهدف الرئيسي من استخدام موقع الفيسبوك هو التواصل مع المستخدمين الآخرين والتفاعل معهم، حتى وإن تضمن ذلك مجرد تبادل رسائل ليست بها معلومة حقيقية، مثل "أتمنى أن تكون بصحة جيدة"، كما أن مناقشة الموضوعات النابعة من الاهتمامات المشتركة بين المستخدمين هي من أهداف استخدامات الموقع، وقد يتم ذلك في حائط المستخدمين wallفي صفحاتهم الشخصية، بحيث يترك الأصدقاء رسائلهم في العلن، وهي رسائل قد تعبر عن مشاعر أو تعكس أنشطة فردية أو مشتركة بين المستخدمين وأصدقائهم، أو بالانضمام إلى مجموعات النقاش Groups التي تعتمد على الاهتمامات المشتركة بين المستخدمين، وهي مصممة بهدف السماح لأغلبية المستخدمين بطرح ومناقشة الموضوعات المختلفة، لأنها المكان الأمثل للمشاركة بالموضوعات الاجتماعية والسياسية والأفكار والمشاعر مع المستخدمين الآخرين، وقد يبحث المستخدمون عن مجموعات نقاش حول موضوعات بعينها للانضمام إليها، أو قد ينشئوا بأنفسهم مجموعات نقاش.[33]

وفي السنوات الأخيرة شهدت مجموعات النقاش "Groups" في موقع فيس بوك ازديادا كبيرا لأعداد المستخدمين فيها لأنها أتاحت لهم مساحة مشتركة لكي يلتقوا بآخرين متشابهين معهم، كما يتمتع الموقع أيضا بوجود ما يسمى بتغذية الأخبار News Feed، وهي خاصية في الموقع تتيح للمستخدمين التعرف على أخبار أصدقائهم من المستخدمين عند حدوث أي تغيير في صفحاتهم الشخصية أو شبكة علاقاتهم الاجتماعية، والأحداث الجديدة في مجموعات النقاش المشتركين فيها.[34]

ومنه فموقع التواصل الاجتماعي " فيسبوك" يحظى بتطبيقات هامة في الأنشطة الجمعوية التطوعية لارتكازه على فكرة التشبيك الاجتماعي سواء تشبيك الأشخاص أو المواقع، فخاصية Facebook Connect تسمح للمستخدم بكتابة أي تعليق على أي موقع دون الحاجة للتسجيل فيه، حيث تنتقل المعلومات الخاصة بالمستخدم تلقائيا إلى ذلك الموقع.[35]

2-موقع يوتيوب "You Tube"

يعتبر موقع "يوتيوب" من أهم مواقع التواصل الاجتماعي في مختلف المجالات، خاصة العمل الجمعوي التطوعي، لدوره في نشر الفيديوهات وتبادلها مع المستخدمين الآخرين، واستقبال التعليقات عليها ونشرها بشكل واسع، وكذا إنشاء قنوات تحتوي على بياناتهم الشخصية ومقاطع الفيديو التي يضعونها، وقد تأسس هذا الموقع في فبراير 2005 في مدينة سان برونو بولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية، بواسطة ثلاثة موظفين هم الأمريكي "تشاد هيرلي" والتايواني "تشين" والبنغالي "جاود كريم" الذين يعملون في شركة pay pal المتخصصة في التجارة الإلكترونية.[36]

وتقوم فكرة الموقع على إمكانية إرفاق أية ملفات تتكون من مقاطع الفيديو على شبكة الانترنت دون أي تكلفة مالية، فبمجرد أن يقوم المستخدم بالتسجيل في الموقع يتمكن من إرفاق أي عدد من هذه الملفات ليراها ملايين الأشخاص حول العالم، كما يتمكن المشاهدون من إدارة حوار جماعي حول مقطع الفيديو من خلال إعطائه قيمة نسبية مكونة من خمس درجات للتعبير عن مدى أهمية ملف الفيديو من وجهة نظر مستخدمي الموقع، حيث يعد موقع يوتيوب أول موقع متخصص فقط في تحميل ومشاركة الفيديو الشخصي، إذ يشارك أكثر من 3 مليارات فيديو على يوتيوب يوميا، ووصل عدد القراءات إلى 700 مليار في 2010، وكذلك تحميل وعرض فيديوهات وسائل الإعلام، ويأتي موقع يوتيوب في المركز الثالث ضمن قائمة المواقع الأكثر قبولا على شبكة الانترنت. ورغم أنه لا توجد رقابة على ما يبث أو يرفق على اليوتيوب من مقاطع قد لا تتفق والثقافات والقيم الخاصة بكل الشعوب، إلا أن الموقع لا يسمح بنشر الأفلام الإباحية، والأفلام التي تقوم بنشر مواد سياسية محظورة، أو تسيء لشخصيات معينة، والأفلام التي تحتوي على العنف، لما لها من تأثيرات سلبية على سلوكيات المستخدمين.[37]

كما استطاع موقع اليوتيوب أن يوجد شعبية له منذ انطلاقته بين مستخدمي الانترنت، حيث بات لديه أكثر من مليار مستخدم نشط كل شهر عام 2015.[38] ويتيح موقع يوتيوب مجموعة من الخدمات التي تسهل العمل الجمعوي التطوعي وفق ما يأتي:[39]

- تصنيف مقاطع الفيديو إلى أبواب مختلفة من الكوميديا والفن والرسوم المتحركة، والعلوم والتكنولوجيا.
- يحتوي الموقع على المقاطع للأحداث الحاصلة على أعلى تقييم، والتي تحظى بأكبر قدر من النقاش والأكثر تفضيلا والأكثر اتصالا بمواقع أخرى.
- يتم دمج مقاطع الفيديو الخاصة بموقع اليوتيوب مع مواقع الشبكة التي تستخدم تقنيات حديثة وأيضا جعل مقاطع الفيديو عامة أو خاصة.
- العثور على جماعات فيديو والالتحاق بها وتسهيل الاتصال مع من لديهم الاهتمامات نفسها، والاشتراك في خدمة تبادل مقاطع الفيديو المقصورة على الأعضاء، وحفظ المقاطع المفضلة ووضع قوائم تشغيل المقاطع.

3-موقع تويتر "Twitter"

ظهر موقع التواصل الاجتماعي تويتر "Twitter" في أوائل عام 2006 كمشروع بحثي أجرته شركة Obvious الأمريكية في مدينة سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا، وبعد ذلك أطلقته الشركة رسميا للمستخدمين بشكل عام في أكتوبر 2006، وبعد ذلك بدأ الموقع في الانتشار كخدمة جديدة على الساحة في عام 2007 من حيث تقديم التدوينات المصغرة، وفي أفريل 2008 قامت شركة Obvious بفصل الخدمة عن الشركة، وتكوين شركة جديدة باسم Twitter، ومع ازدياد أعداد من يستخدمه لتدوين أحداثهم اليومية، فقد قرر محرك

جوجل للبحث أن يظهر ضمن نتائجه تدوينات التويتر كمصدر للبحث اعتبارا من 2009. [40]

ويعتبر البعض موقع تويتر حالة وسط بين برامج البريد الإلكتروني "الإيميل" والمدونات، فهو أحد المواقع الإلكترونية التي تقدم خدمات مجانية للتواصل الاجتماعي والتدوين المصغر، الذي يسمح للمستخدمين بإرسال أهم اللحظات في حياتهم في شكل تدوينات نصية لا تزيد على 140 حرفا. وقد أوجد موقع تويتر الاجتماعي بيئة افتراضية متميزة، يشارك فيها الملايين، ليتحدثوا ويتابعوا أخبار بعضهم البعض، حيث تشير الإحصائيات التي نشرها موقع تويتر في ذكرى تأسيسه الخامسة إلى أن عدد المشتركين في الشبكة يزيد على 100 مليون مستخدم، وقد حظي موقع التويتر حاليا بجماهيرية عالية والتي تميل الشخصيات المهمة إلى استخدامها حتى تكون أقرب إلى الجماهير، وتتعرف على مدى اهتمام الجماهير بنشاطاتهم، وذلك من خلال كسب أكبر عدد من المتابعين، حيث أصبح لكثير من الشخصيات حساب خاص بها على موقع التويتر، تستعمله كمنصة جديدة لأغراض الاتصال والدعاية، ونشر القرارات والأحداث المهمة، ومعلومات عن تنقلاتهم ولقاءاتهم في الصحافة والإعلام ومهامهم الرسمية، وأحيانا أخبار وطرائف متنوعة.[41]

وهذا ما يسهل على القائمين على العلاقات العامة في المؤسسات الجمعوية في كسب دعم الجمهور المستهدف بتكلفة أقل وجهد بسيط، وتحسين صورة هذه المؤسسات وسمعتها، من خلال تسويق أفكارها وأعمالها ومشاريعها.

سادسا-المؤسسات الجمعوية وآليات تفعيل العمل التطوعي الإلكتروني

استطاع العمل التطوعي الإلكتروني أن يحقق انتشارا واسعا في مختلف مجالات العمل الجمعوي، كوسيلة فعالة لتعزيزه، وجعله أكثر انسجاما مع مختلف شرائح المجتمع، خاصة مع تزايد الإقبال على استخدام شبكة الانترنت، وارتفاع معدلات استخدام مواقع التواصل الاجتماعي بشكل كبير جدا، ولاسيما في أوساط الشباب، التي تعد من الأدوات الرئيسية لهذا النوع من التطوع.

حيث قامت العديد من المؤسسات الجمعوية بالاستعانة بتقنيات الإعلام الاجتماعي التفاعلية مثل الفايسبوك والتويتر واليوتيوب في العمل التطوعي في عصرنا الحالي، وتوظيفها كإحدى الركائز الأساسية لتحقيق التقدم الاجتماعي والتنمية بمختلف جوانبها، لاتسامها بـ:

- توفير آليات وسبل عديدة وسهلة، تمكن المؤسسات العاملة في مجال العمل التطوعي من تنسيق أعمالها ونشاطاتها بآليات تشبيك وتنسيق سريعة وسهلة، توفر الوقت والجهد والتكلفة التي يقتضيها مثل هذه النشاطات التطوعية.
- إعطاء فرصة كبيرة لكبار السن والنساء والمعوقين وذوي الاحتياجات الخاصة وغيرهم من شرائح المجتمع التي يصعب عليها الحركة أو التنقل من مكان إلى آخر، التي لا تستطيع بذل الجهود الكبيرة في مجال العمل التطوعي الميداني، للمساهمة في النشاطات التطوعية، وتمكينهم من استغلال قدراتهم ومواهبهم وخبراتهم في سبيل خدمة قضايا المجتمع وشؤونه.
- التعريف بالجمعية وبأهمية العمل التطوعي الذي تمارسه على نطاق واسع، يشمل كل المناطق بالعالم، واستقطاب المتطوعين من مختلف مناطق العالم، واستثمار طاقاتهم، والاستفادة من كل ما لديهم من خبرات ومؤهلات.
- تمكين الأفراد من تنظيم المجموعات التطوعية وقيادتها بطرق سهلة وسريعة.
- يساعد التطوع الإلكتروني على سرعة عمليات التنسيق وتسهيلها والتعاون بين المؤسسات الحكومية وبين مؤسسات العمل التطوعي ومنظمات المجتمع المدني الأخرى.
- قدرة التطوع الإلكتروني على توفير قواعد بيانات دقيقة ومنظمة من أعداد المتطوعين وخبراتهم، وأيضا قدرته على متابعة المتطوعين من حيث تبرعاتهم وعناوينهم، ومتابعة كل المراسلات المتعلقة بهم.
- يساعد العمل التطوعي الإلكتروني على إنشاء وتكوين قاعدة بيانات عالمية بشأن الموارد البشرية المتاحة من المتطوعين على الانترنت، وإن هذا العمل يلعب دورا محوريا في تشجيع تبادل المعلومات على الصعيد العالمي بشأن مساهمات المتطوعين في التنمية الاقتصادية والاجتماعية. [42]

ولأن التواصل مع أفراد المجتمع يعتبر من أهم مقومات نجاح العمل الجمعوي أو التطوعي عموما، فإن مواقع التواصل الاجتماعي بفضل خاصيتها التفاعلية والتواصلية، تمكن المؤسسات الجمعوية من متابعة آراء ومقترحات

المتواصلين معها، مما يساعد على تطوير أداء المؤسسات الجمعوية وتحسين برامجها الاتصالية، خاصة إذا تمت دراستها ضمن استراتيجيات واضحة وهادفة. وذلك من خلال جملة من الآليات والوسائل التي يتيحها إنشاء صفحات أو حسابات شخصية وغيرها من التطبيقات على مواقع التواصل الاجتماعي لهذه المؤسسات، أهمها:[43]

– المشاركة بخبر أو بصورة للفعاليات أو النشاطات أو الخدمات التي تقدمها الجمعيات لجذب اهتمام المستخدمين، وتعزيز نشاطات الجمعية.

– وضع الأخبار والإشارة إلى أي محتوى تتم كتابته تتعلق بنشاط الجمعية.

– الرد على جميع التعليقات والاستفسارات والتغريدات التي تتحدث عن نشاطات الجمعية.

– وضع الصورة مع الخبر، أو تضمين وسائط أخرى في المحتوى (فيديو، انفوجرافيك) فالوسائط تزيد من تفاعل المتابعين سواء بالرد أو الإعجاب أو إعادة المشاركة.

– اختيار الوقت المناسب للنشر مع مراعاة خصائص مواقع التواصل الاجتماعي (الإيجاز والتشويق والمحتوى الجذاب).

– استمرارية التواصل مع الداعمين للنشاط الجمعوي.

– القيام باستفتاءات واستطلاعات لمعرفة اتجاهات وآراء المستخدمين نحو أداء الجمعية ونشاطها، وإجراء بحوث تقويمية لصورة الجمعية لدى الجمهور وتحديد مدى الرضا عن أداء الجمعية في مختلف قطاعاتها، من أجل تحسين الخدمات المقدمة ومعرفة الأولويات في هذه الخدمات.

– الانضمام إلى المواضيع والمجموعات التي لها علاقة بالنشاط التطوعي للجمعية.

– إضافة رابط تغذية خلفي للمواقع الاجتماعية الأخرى التي تفيد بأحدث تغريدات الجمعية.

– الاهتمام بصورة واجهة حسابات تويتر وفيسبوك وجوجل بلس للترويج عن بعض الأحداث والفعاليات التي تنظمها أو تشارك بها الجمعية أو حتى لوضع رسالة شكر للمتابعين أو المعجبين.

– ضرورة وجود إستراتيجية متكاملة وخطة عامة لمحتوى الإعلام الاجتماعي للجمعية، ووجوب مرونتها لتستجيب للتغيرات التي ممكن أن تطرأ على الجمهور والأهداف العامة للمؤسسة.

– العمل على تحسين الصورة الذهنية للمؤسسة الجمعوية: ويتطلب ذلك:

- متابعة كل ما يكتب ضد الجمعية والرد فورا-وهو ما يتطلب معاينة الجمعية لصفحتها أو حسابها باستمرار-مع إبراز الإنجازات التي تتحقق بصورة مستمرة ونشرها في وسائل الإعلام المختلفة، خاصة وسائل الإعلام الاجتماعي.
- إقامة الندوات والمؤتمرات الصحفية وعرضها على مواقع التواصل الاجتماعي.
- نشر الوعي فيما يخص خدمات الجمعية أو المشاركة في التوعية العامة للمجتمع.
- رصد الانطباعات عن خدمة جديدة تنوى الجمعية إدراجها أو خدمة مستمرة لقياس الرأي حولها، حتى لا تكون مواقع التواصل الاجتماعي أداة إرسال فقط وإنما أداة للتفاعل مع الجمهور.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآليات والوسائل التي تسهل عملية التطوع الإلكتروني تعتمد لنجاحه على العديد من المعايير، من أبرزها المصداقية وحداثة المعلومات والمعقولية والدعم المستمر.[44]

خاتمـــة

لقد منحت الانترنت فرصا كبيرة للمؤسسات الجمعوية والمنظمات التطوعية لتعزيز تواجدها وتدعيم مكانتها في البيئة الخارجية المحيطة بها للحصول على تأييد و ثقة الرأي العام، ذلك أن توظيف تقنيات الويب.2 ""web.2 خاصة مواقع التواصل الاجتماعي ساعد هذه المؤسسات بشكل كبير في تكوين صورة ذهنية جيدة عن المؤسسة في المجتمع وزاد من ارتباطها بمختلف شرائحه وفئاته، هذا ما جعل الاهتمام بهذه التقنيات الاتصالية يزداد ويتسع لتعرف بذلك تجسيدا حقيقيا في المؤسسات التطوعية على المستوى العالمي، وظهور ما يسمى بالتطوع الإلكتروني الذي حقق نجاحات كبيرة في التعريف بالمؤسسة الجمعوية ونشاطها وأهدافها، وأتاح لها أساليب ووسائل جديدة وهامة للتفاعل والتواصل مع الأفراد والجماعات والهيئات المختلفة، وهو ما جعل بعض المؤسسات التطوعية تهتم به على المستوى المحلي أيضا، حيث أصبحت تملك صفحات على الفايسبوك، وتعرض برامجها وأنشطتها عبر مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة

باستخدام الوسائط المتعددة (نص، صورة، فيديو)، لزيادة التأثير والإقناع بأفكارها.

ورغم وجود بعض المخاطر التي تهدد العمل التطوعي الإلكتروني، كإمكانية انتهاك الخصوصية وضعف الرقابة وضعف المصداقية أحيانا وانتشار الشائعات خلال هذه المساحات الافتراضية التي تتميز بحرية التعبير دون رقيب، وإمكانية استغلالها لجمع التبرعات المالية، التي تستخدم لأغراض لا تخدم المصلحة العامة للمجتمع، مما يؤثر سلبا على ثقة المستخدمين به، إلا أن ذلك لا يقلل بتاتا من فاعلية استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العمل التطوعي، كوسيلة مكملة وداعمة للوسائل الأخرى التي تستخدمها المؤسسات الجمعوية، من أجل إيصال رسائلها وتحقيق أهدافها وتحسين صورتها، ودمج أكبر عدد ممكن من الطاقات التي ترغب في ممارسة العمل التطوعي ضمن نشاطاتها، خاصة وأن هذه المواقع تشهد تزايدا كبيرا في عدد مستخدميها، لا سيما فئة الشباب.

وهو ما يتطلب بالنسبة للناشطين بالمؤسسات الجمعوية المختلفة إدراك الاستخدام الأمثل والواعي لمواقع التواصل الاجتماعي، للاستفادة من إيجابياتها المتعددة، والتخطيط الجيد لاستثمارها من أجل خلق الثقة والتعاون لدى مستخدميها، لأن عدم الوعي الكافي بكيفية استخدام مواقع التواصل الاجتماعي عموما قد ينعكس سلبا على مستوى التفاعل بين الجمعية والمواطنين، وعلى مستوى الخدمات المراد تقديمها لهم.

ومن أجل تحقيق ذلك، تم اقتراح التوصيات الآتية:

– الاعتماد على الوسائط المتعددة كالصورة والفيديوهات من خلال تركيبة من لغة مكتوبة ومنطوقة، وعناصر مرئية ثابتة ومتحركة، وتأثيرات وخلفيات متنوعة سمعية وبصرية، من أجل التأثير في المستخدمين، وخلق الإحساس لديهم بمشكلاتهم وقضايا مجتمعهم، وتشجيعهم وترغيبهم في المشاركة التطوعية، من خلال إثارة استجاباتهم للمساهمة في حل هذه المشكلات.

– التركيز على البرامج والدورات التدريبية للمتطوعين في مجال استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال، خاصة الانترنت وطرق توظيفها في العمل التطوعي، سواء على مستوى الجمعيات أو من خلال تقنيات الاتصال التفاعلي عن بعد، لتكوينهم وتأهيلهم لممارسة العمل التطوعي بشكل فاعل.

– التنسيق مع مؤسسات التنشئة الاجتماعية المختلفة كالمؤسسات التعليمية والإعلامية ومؤسسات المجتمع المدني الأخرى، من أجل ترسيخ الثقافة المدنية وقيم العمل التطوعي، وجذب أكبر عدد ممكن من المتطوعين.

– الاستفادة من تجارب الجمعيات الرائدة في الدول المتقدمة، وتبني أساليب علمية حديثة من أجل دمج أكبر عدد ممكن من الشباب في برامجها وأنشطتها الطوعية، للاستفادة من طاقاتهم وإبداعاتهم.

– العمل على استقطاب وجذب الكفاءات الإعلاميين وأخصائيي العلاقات العامة للاستفادة من خبراتهم في التخطيط لأنشطة الجمعيات عبر تقنيات الاتصال التفاعلية، من أجل الارتقاء بأداء المؤسسات الجمعوية.

– الاستفادة من المواقع الإلكترونية للمؤسسات الجمعوية وغيرها من الخدمات التي تتيحها شبكة الانترنت، إضافة إلى مواقع التواصل الاجتماعي في التعريف بكل السبل والطرق والوسائل المتاحة في ظل الثورة الرقمية التي يشهدها العالم للقيام بالأعمال التطوعية، بشكل مرن يتناسب مع ظروف وإمكانيات كل فرد.

– التفاعل مع منظمات المجتمع المدني الأخرى المحلية والدولية، لتبادل الآراء والأفكار والمقترحات والخبرات واكتساب المهارات المختلفة لقيام المنظمات التطوعية بدورها بفعالية.

– ضرورة استغلال خاصية التفاعلية على شبكة الانترنت على قدر الإمكان من أجل تقوية الصلات بين المؤسسات الجمعوية ومؤسسات الدولة والمجتمع بمختلف شرائحه وأماكن تواجده، مما يجعل المنظمات التطوعية أكثر انسجاما مع المواطنين ومؤسسات المجتمع الأخرى، وهو ما يتطلب متابعة مستمرة ورصد دائم لمشاركات وآراء ومقترحات المستخدمين عبر وسائل الإعلام الاجتماعي من طرف الناشطين بالجمعيات.

الهوامش

1. عماد نزال وجمال حبش ، التطوع الإلكترونى وسيلة معززة للعمل التطوعي ، مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث ، مجلد 1 ، العدد 1 ، (د.س.ن) ، ص: 92 ، في: www.aauj.edu / pdf ، بتاريخ: 12-9-2017.
2. حسين محمود هتيمي ، العلاقات العامة وشبكات التواصل الاجتماعي ، دار أسامة ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2015 ، ص ص: 101-102.
3. المستقبل العربي ، الجزائر الرابعة عالميا فى استخدام شبكات التواصل الاجتماعي.. تقرير عالمي يكشف ، 18 ديسمبر 2012 ، في: http://www.djazairess.com/elmustakbal/6694 ، بتاريخ 6 جوان 2016.
4. قمة رواد التواصل الاجتماعى العرب ، تقرير وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي ، التقرير الأول 2015 ، في: arabsmis.ae/reports/ASMISArabicReport.pdf ، بتاريخ: 2016/6/5.
5. حسن نيازي الصيفي ، تبنى ممارسي العلاقات العامة للإعلام الاجتماعي في المنظمات الحكومية السعودية "دراسة ميدانية في إطار النظرية الموحدة لقبول واستخدام التكنولوجيا" (UTAUT) ، في: *https://units.imamu.edu.sa/Conferences/smumc/Documents/pdf* ، بتاريخ: 11-10-2016.
6. المرجع نفسه.
7. محمد أحمد علي العدوي ، مؤسسات المجتمع المدني وسياسات التنمية الشاملة (دراسة حالة للمؤسسات والجمعيات الخيرية) ، مؤتمر العمل الخيري الخليجي الثالث ، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي ، 22/20 جانفي 2008 ، ص: 8 ، في: iefpedia.com/ pdf ، بتاريخ: 14-10-2017.
8. أحمد على مصطفى حجازي وأمل محمد يوسف ، المرأة والعمل التطوعي بالمنظمات الأهلية (دراسة ميدانية على بعض المنظمات النسائية) ، مؤتمر العمل الخيري الخليجي الرابع (العمل الخيري للجميع) ، جمعية التربية الإسلامية بالبحرين ، المركز الدولي للأبحاث والدراسات (مداد) ، ص: 8 ، في: www.medadcenter.com/conferences/409/ pdf ، بتاريخ: 14-10-2017.
9. المرجع نفسه ، ص: 6.
10. محمد جاد المولى حافظ عويس ، تأثير الإعلام البديل على تداول المعلومات في مصر (دراسة تحليلية ميدانية) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الإعلام ، جامعة القاهرة ، 2012 ، ص:163.
11. سلطان بن نواف عبد الله العتيبي ، رؤية إستراتيجية إعلامية لتعزيز ثقافة العمل التطوعي في المجتمع السعودي ، رسالة ماجستير غير منشورة في العلوم الإستراتيجية ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض ، 2010 ، ص: 46.
12. معلوي بن عبد الله الشهراني ، العمل التطوعي وعلاقته بأمن المجتمع (دراسة مطبقة على العاملين في مجال العمل التطوعي في المؤسسات الخيرية بمدينة الرياض) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض ، 2006 ، ص ص: 34-35 ، في: www.nauss.edu.sa/ar/digitallibrary/.../master_1427-1428_ss_m_ss_3_2007.pdf ، بتاريخ: 8-11-2017.
13. عماد نزال وجمال حبش: المرجع السابق ، ص: 99.
14. المرجع نفسه ، ص: 100.
15. محمد أحمد علوي العدوي: المرجع السابق ، ص: 8.
16. أحمد على مصطفى حجازي وأمل محمد يوسف: المرجع السابق ، ص: 11.
17. عماد نزال وجمال حبش: المرجع السابق ، ص ص: 100 ، 103.
18. المرجع نفسه ، ص: 104.
19. عبد المالك ردمان الدناني ، الوظيفة الإعلامية لشبكة الانترنت ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2003 ، ص: 130.
20. فالح فواز سليمان المطيرى ، دور العلاقات العامة فى الجمعيات الخيرية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأهلية ، مملكة البحرين ، 2009 ، في: catalog.library.kuniv.edu.kw/ipac20/ipac.jsp ، بتاريخ: 22-10-2017.
21. المرجع نفسه.
22. عبد الراضي البلبوشي وعبد الرحمن العجل وآخرون: الدليل العلمى للعلاقات العامة في المنظمات غير الربحية (البناء الاحترافي لإدارة العلاقات العامة) ، مكانة للتطوير الإعلامي ، ص: 98 ، في: tslibrary.org/597/ pdf ، بتاريخ: 8-11-2017.
23. عصام عبيد ، على المؤسسات الخيرية الاستفادة من الإنترنت في الترويج لنشاطاتها ، المركز الدولي للأبحاث والدراسات (مداد) ، 2014 ، في: www.academia.edu ، بتاريخ: 23-10-2017.
24. عبد الراضي البلبوشي وعبد الرحمن العجل وآخرون: المرجع السابق ، ص: 103.
25. عصام عبيد: المرجع السابق.
26. عبد الباري إبراهيم الدرة ونبيل خليف المجالي ، العلاقات العامة ، دار وائل للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 2010 ، ص: 322.
27. المرجع نفسه ، ص: 322.
28. سعادة راغب الخطيب ، مدخل للعلاقات العامة ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 2000 ، ص ص: 179-180.
29. عصام عبيد: المرجع السابق.

30. إحصائيات استخدام الفايسبوك في الجزائر 19 جانفي 2012 ، في: socialbacker.com ، بتاريخ: 29-10-2016.
31. حسن نيازي الصيفي: المرجع السابق.
32. دور شبكات التواصل الاجتماعي في تنمية الموارد البشرية (دراسة استكشافية للمكتبات العامة) ، ص ص: 3-8 ، في: *www.academia.edu* ، بتاريخ: 2016/10/12.

33. . Mike Thelwall, Social Networks,Gender, and friending, Ananalysis of Myspace of member profiles, Journal of the American Society for information sience and technology, Vol.59, No.8, June 2008, p:1321.

34. Lourie Charnigo, Paula Barnett-Ellis, Checking out Facebook.com, the impact of a digital trend on academic libraries, Information Technology and Libraries, Vol.26, No.1, March 2007, p:24.

35. محمد جاد المولى حافظ عويس: المرجع السابق ، ص:166.
36. عبد الرزاق محمد الدليمي ، الإعلام الجديد والصحافة الإلكترونية ، دار وائل للنشر ، الأردن ، ط1 ، 2011 ، ص:194.
37. محمد جاد المولى حافظ عويس: المرجع السابق ، ص ص: 169-170.
38. . يوتيوب.. عشر سنوات وأكثر من مليار مستخدم شهريا ، 2015/2/14 ، في:http://www.aljazeera.net/news/scienceandtechnology ، بتاريخ: 2015/6/4.
39. عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد المفاهيم والوسائل والتطبيقات ، دار الشروق ، عمان ، 2008 ، ص:216.
40. خالد غسان ويوسف المقدادي ، ثورة الشبكات الاجتماعية (ماهية مواقع التواصل الاجتماعي وأبعادها) ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط1 ، 2014 ، ص: 38.
41. محمد جاد المولى حافظ عويس: المرجع السابق ، ص ص:167-168.
42. عماد نزال وجمال حبش: المرجع السابق ، ص: 104 ، 105.
43. إدارة خدمة المجتمع ، الجمعيات الخيرية واستثمار وسائل الإعلام الاجتماعي ، الغرفة التجارية الصناعية بالرياض ، 2014 ، ص ص : 10-19 ، في: *www.riyadhchamber.org.sa/mainpage/Documents/Charities.pdf* ، بتاريخ: 2016/10/12.
44. عماد نزال وجمال حبش: المرجع السابق ، ص: 105.

النّظرية الأخلاقية عند طه عبد الرحمن

حيدر العايب*

الملخص

من أبرز المفاهيم النّاوية في المتن الطاهائي مفهوم ، الأخلاقيّة ، فقد تناوله العديد من الباحثين بالدراسة والتحليل ، واهتمّ بعضهم بنقد المشروع الفلسفي للفيلسوف المغربي المعاصر (طه عبد الرحمن) بمختلف أبعاده ؛ الإبداع الفلسفي والمفهومي ، سؤال الأخلاق والحداثة ، المعرفة والأخلاق ، التكامل المعرفي... وفي هذا السياق ، يأتي بحثنا هذا آملا أن يكون لبنة مضافة للصرح المعرفي حول الكتابة الطاهائية. هذا مع العلم أن المشروع الطاهائي يعد من أبرز المشاريع الفكرية ذات الثراء المفهومي واللغوي ، ما يعني أنه مشروع يحتاج لأكثر من جهد لتناول بعض المفاهيم التي -نحسبها ذات استحقاق أكاديمي -تستحق أن نتوقف عندها ، لإجلاء مكاسبها وحدودها. وقد وقع اختيارنا على أحد المصطلحات التي تشكل ليس فقط مفهوما ضمن المجال التداولي الطاهائي ، بل ونظرية ادعى مفكرنا عدم أسبقية أحد إليها ، إنها **نظريته الأخلاقية** ووظيفتها المزدوجة: أولا ، نقد التراث الإسلامي وبالضبط علم المقاصد ، إذ من خلالها أعاد (طه عبد الرحمن) تقسيم الكليات الخمس الموروثة عن علماء الأصول المسلمين. ثم ثانيا ، نقد التصور الحداثي الغربي للإنسان الذي يستند في مشروعيته إلى العقلانية المجردة من الأخلاقية. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، ما حد الأخلاقية؟ وما هي طبيعة العلاقة بينها وبين المفاهيم الأخلاقية الأخرى كالأخلاق والقيم؟ ثم ما الرّهان الذي يفرضه هكذا مفهوم أو هكذا نظرية على الفكر المعاصر؟

الكلمات المفاتيح: طه عبد الرحمن ، الأخلاقية ، علم المقاصد ، الحضارة الغربية ، أركان ومبادئ.

Résumé

Cette étude met l'accent sur l'un des concepts importants qui enrichissent les textes philosophiques de Taha Abdelrahmane, qui est l'éthique (akhlaqia /moralité), où il s'agit plutôt d'une théorie que d'un concept simple, car elle a ses propres axiomes, principes et mises à jour.

L'éthique vient dans le double cadre de la critique, la science du but ou des objectifs (makassid) d'un côté, et la civilisation occidentale moderne de l'autre, il travaille d'abord sur le renouvellement de la disposition cinq du but de la loi (makassida'chariaa). Il fonctionne sur le second en évaluant l'imagination rationnelle humaine, qui caractérise l'intellect europien.

Alors qu'est-ce que l'éthique ? Et quels sont ses axiomes et principes ?

Mots-cles : TahaAbdelrahmane, La théorie éthique) moralité (, la science du but ou des objectifs (makassid), la civilisation occidentale, axiomes et principes.

Summary

This study comes to focus on one of the important concepts that enriches Taha Abdelrahmane's philosophical texts, which is ethics (akhlaqia/morality), where it is more like a theory than a simple concept, because it has it's own axioms, principles and updates.

Ethics come in double criticism framework, science of purpose or objectives (makassid) from one side, and modern western civilization from the other; it works on the first side on renewing the five folddevision of the purpose of law (makassida'chariaa) .it works on the second on assessing the human rational imagination, which characterizes the Europian intellects.

So what is ethics? And what are it's axioms and principles?

Keywords: Taha Abdelrahmane, ethical theory (morality), science of purpose or objectives (makassid), western civilization, axioms and principles

*طالب دكتوراه، قسم الفلسفة جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

تمهيد استشكالي

لا يختلف اثنان – ممّن لهم دراية بالفلسفة وتاريخها – على الأهمية التي يحتلها مبحث الأخلاق ضمن جملة القضايا الفلسفية محلّ النقاش والجدل. وهو مبحث قديم قدم هذا التفكير، فقبل أن تصاغ المسألة الأخلاقية نظريا، وتناقش ويؤسس لها فلسفيا مع القضايا الأخرى؛ كالأنطولوجيا والمعرفة، كانت ممارسات عملية مباشرة، لذلك يعتبر علم الأخلاق العملي أسبق في الظهور من النظري.

وحين بدأت قضايا المعرفة والعلوم وكذا الوجود، تأخذ مسارا استقلاليا عن الموطن الأم، الفلسفة، خاصة خلال القرن 19، بقيت الأخلاق والقيم عموما (الأخلاق، الفن، المنطق) وفية إلى موطنها ذاك ؛ رغم بعض المحاولات الجادة التي حاولت أن تقلص ليس من أهميتها فقط، وإنما من موضوعها وإلحاقها بمركب العلم والمنطق، مثلما حاول أنصار الوضعية المنطقية الذين نصوا على أن يكتفي علم الأخلاق بتحليل لغته وعباراته لا أكثر، متخذين بذلك معيار التحقق الواقعي مبدءا رئيسا للكشف عن صدق اللغة الأخلاقية من عدمه، فظهر ما يعرف بعد ذلك بـ (الميتا أخلاق). إلاّ أنّنا نقول إن هذه بعض المحاولات، وإن كنا لا نستهين بمدى أثرها.

كما أننا نؤكّد، أن لمبحث القيم والأخلاق مكانته االراهنة بين أظهرنا اليوم ،كما كان في السابق، فهو الغائب الحاضر بقوة، وما هذا، إلا لأن مبحث الأخلاق بطابعه العملي والممارساتي يتعلق بالإنسان خصوصا، فهذا الأخير وما يعيشه من أزمات من فترة لأخرى، تجعله يستحضر المسألة الأخلاقية بشدة. وما يلفتنا إلى هذا أكثر، هي مباحث الفلسفة عينها ؛ ففي الفترة الأولى من تاريخ الفكر الفلسفي كان سؤال الوجود، المهيمن، وهذا ما تجسده نظرية أو مبحث الوجود، أما خلال القرن الثامن عشر وإلى غاية القرن العشرين، فقد أخذ مبحث الإبستمولوجيا أو المعرفة الاهتمام الأوفر، وكذا الأمر خلال وبعد القرن العشرين، حيث لم يكن لسؤال الأخلاق والقيم منازع.

ونحن هنا لا ننفي تداخل هذه المباحث فيما بينها في فترة معينة، فمثلا في العصر اليوناني نجد سؤال الوجود، كما نجد مؤلّفات جد مهمة في المعرفة وكذلك الأخلاق، وهذا الأمر عينه نجده في الفترة الحديثة ؛ إذ نجد "كانط" مثلا، له مؤلفين عظيمين أحدهما في المعرفة (نقد العقل النظري)، والآخر (نقد العقل العملي)، وهو في الأخلاق، وهذا على غرار (نقد ملكة الحكم) في قيم الجمال والفن... لكن ما نؤكد عليه دائما، هو السؤال المثار بشدة وبقلق وارتياب في كل لحظة من هذه اللحظات.

وبطبيعة الحال، فإنّ الفكر العربي ليس بمنأى عن هكذا حضور، وليس أدل على ذلك من السيولة التي تشهدها المكتبة العربية والساحة الفكرية العربية من عودة مكثفة لسؤال القيم، فتجدنا نتحدث عن محمد عزيز الحبابي، ومحمد أركون، ومحمد عابد الجابري، وأبو يعرب المرزوقي، وسيف الدّين عبد الفتاح، وطه عبد الرحمن، كل أولئك كانوا يدا في إعادة إحياء السّؤال الأخلاقي ضمن السياق العربي الراهن.

وإن كان مدار الرحى في هاته الورقة ينصرف إلى المفكر المغربي (طه عبد الرحمن)، وإلى نظريته الأخلاقية التي أرادها أن تكون مختلفة عما هو سائد من مفاهيم ونظريات في مجال الإيتيقا المعاصرة، فالسؤال الذي يطرح نفسه هاهنا ؛ ما حدُّ الأخلاقية؟ وفيما تختلف عن غيرها من مفاهيم من قبيل القيم والأخلاق والأدب؟ وأيّ تلك المفاهيم قد يكون الأقرب إلى المجال التداولي العربي والإسلامي؟ وبما أنّ الأخلاقية تتجاوز المفهوم والمصطلح لتغدو بذلك نظرية وأنموذجا تفسيريا-على نحو ما سنرى-فما هي أركانها وكذا مسلماتها؟ وعلى العموم، ما هي الإضافات التي تسهم بها هكذا نظرية إلى جانب النظريات الأخرى التي يزعم مفكرنا أنّ نظريته الأخلاقية جاءت لتقويمها وتسديدها؟

أولا: القيم، الأدب، الأخلاق والأخلاقية جدلية مفاهيمية

لئن كان البحث الفلسفي أحد طريقين ؛ ضبط تصور أو تبرير تصديق، فإنّ بحثنا هذا والذي يتناول تحليلا ووصفا لأحد أبرز مصطلحات الفيلسوف المغربي (طه عبد الرحمن) ونقصد به مفهوم **"الأخلاقيّة"**، سيكون ضمن الطريق الأوّل ؛ أي ضبط تصور، ما يُلزمنا الوقوف عند بعض المصطلحات والتي نحسبها تشكلّ عائلة مفاهيميّة واحدة من قبيل ؛ القيم، والأخلاق، ثم الأخلاقيّة.

1/_ القيم VALEURS: جمع قيمة، وقيمة الشّيء لغة قدره، وقيمة المتاع ثمنه. إلا أنّ الثمن قد يكون مساويا للقيمة أو ناقصا عنها أو زائدا عليها، لذلك كان الفرق بينهما ؛ أنّ الثمن هو ما كان عوضا لقيمة الشّيء، أما القيمة فتطلق

على كلّ ما هو جدير باهتمام المرء وغايته ، وذلك لاعتبارات سيكولوجية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقيّة أو جمالية أو غير ذلك.

وقيمة الشّيء من الناحية الذّاتية: هي الصفة التي تجعل ذلك الشّيء مطلوبا ومرغوبا فيه عند شخص واحد أو طائفة من الأشخاص ، فالنسب مثلا قيمة عالية عند الأشراف. **وقيمة الشّيء من الناحية الموضوعيّة:** ما يتميز به الشّيء من صفات تجعله مستحقا للتقدير كثيرا أو قليلا ؛ فإذا كان مستحقا للتقدير **بذاته** كالحق والخير والجمال كانت **قيمته مطلقة**. وإن كان مستحقا للتقدير **من أجل غرض معين** كالوثائق التاريخية أو بعض الوسائل مثلا كانت **قيمته اعتبارية.**[1]

أما مصطلح القيمة في علم الأخلاق ، فيطلق على ما يدل عليه لفظ **الخير** ، بحيث تكون قيمة الفعل تابعة لما يتضمنه من خيرية ، فكلّما كانت المطابقة بين الفعل والصورة الغائية للخير أكمل كانت قيمة الفعل أكبر ، هاته الصور الغائيّة المرتسمة في الذهن تسمى **القيم المثاليّة** VALEURS IDEALES وهي **الأصل الذي تبنى عليه أحكام القيم**، أي الأحكام الإنشائية التي تأمر بالفعل أو بالترك.[2]

فالقيمة هي بذلك صفات قد ترتبط بالأقوال (أي المعرفة عبر قيمتي الصواب والخطأ)، والأفعال (الأخلاق عبر قيمتي الخير والشّر)، وكذا الأشياء (الفنون عبر قيمتي الجميل والقبيح)، وإن كان هذا تقسيما قد درجت عليه مختلف الدّراسات الفلسفيّة التاريخية ، فإنه قد يعطي انطباعا سلبيا ، أبرزه اقتطاع هاته المجالات أو الأبعاد أي المعرفية والأخلاقيّة والجمالية عن بعضها البعض ، في حين أنه يمكن الحكم على ما هو قولي/ معرفي بقيمتي الخير والشّر ، بل وقد يكون ما هو صوابا في المعرفة شرا من الناحية الأخلاقيّة ، واسحب الأمر ذاته على الفنون ، فما هو فني لا يمنع الحكم عليه بقيمتي الخير والشّر ، وقد يكون ما هو جميل فنيا شرا من النّاحية الأخلاقيّة. لذلك ، نجد من الفلاسفة خاصّة في الفكر العربي المعاصر من لم يأخذ بهذا التقسيم الثلاثي للقيم.

كما نجد في مجال الممارسة الإسلاميّة المعاصرة ، من يعمل على مساءلة مفهوم القيمة قرآنيا على غرار المفكر الأردني (فتحي حسن ملكاوي)، وبسط القول في ذلك ، **معتبرا أنّ استخدام مصطلح "القيم" أولى من استخدامنا لمصطلح "الأخلاق".** فالقيم جمع قيمة ، وجذرها قَوَمَ وردت مشتقاتها في القرآن الكريم حوالي 659 مرة ؛ مثل: قام ، وأقام ، وقيوم ، استقام ، مستقيم ، قيامة ، قوم..." **وهذا يدلّ على أنّ الكون كلّه قائم على نظام تتقوّم به أشياؤه وظواهره، وأنّ حياة الإنسان في الكون تتقوم بمنظومة من القيم تحدد تصوراته وعلاقاته وأعماله الظاهرة والباطنة"**[3]، وأنّ مفهوم القيمة في القرآن الكريم يرتكز على أربعة مجالات من الدّلالة ، تتظافر في إعطاء القيمة الكلّيّة لدلالة القيمة في الاصطلاح القرآني:

- **الوزن والفائدة والثمن والخيرية:** فالأمر الذي لا قيمة له لا وزن له ولا فائدة فيه ، أما الأمر الذي فيه قيمة فهو الأفضل والأكثر خيرا ، يقول الله عز وجل: **"أولئك الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا" [الكهف: 105].**
- **الثبات والاستقرار والتماسك:** لقوله تعالى: **"أنّ المتقين في مقام أمين" [الدّخان: 51].**
- **المسؤولية والرعاية:** فالقائم على الأمر مسؤول عن رعايته وإدارة شؤونه لقوله عز وجل: **"الرجال قوّامون على النساء" [النساء: 34].** وقوله تعالى: **"الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم" [البقرة: 52].**
- **الاستقامة والصلاح:** يقول تعالى: **"وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا" [الجن:16].**

والملاحظ في التّراث الإسلامي أنّ مصطلح **"قيم"** كان مغيبا لصالح مصطلحات أخرى منها: الفضائل ، والآداب ، الأخلاق ، الشمائل... ، ويُرجع (فتحي حسن ملكاوي) ذلك إلى جعل الفلسفة الإسلاميّة التراثَ الفلسفيَّ اليوناني مرجعا لها ، في حين أنّ لفظ "قيم" أصيل في القرآن الكريم. كما يوضّح علاقة المصطلحين **الأخلاق والقيم** ببعضهما بقوله: **"إذا كانت الأخلاق وصفا لسلوك الإنسان، فإنّ القيم معايير لتقويم هذا السلوك، فالإنسان سلك سلوكا أخلاقيا معينا، لأنه يتبنى قيما محددة"**[4]. فالقيم بذلك تختلف عن الأخلاق ، في أنّ الأولى تكون بمثابة قواعد ومعايير ، أما الثّانية فهي صفة تطلق على الأفعال والسلوكات ، وبذلك كانت الأولى ميزانا للثانية.

2/-الأخلاق: لئن كانت القيم معاييرَ للسلوك ، ومحكمات لها -وإن كنّا نتحدث عن قيم الخير وقيم الشّر في الأخلاق ، وقيم الصحيح وقيم الخطأ في المعرفة ، وقيم

الجمال وقيم القبح في الفنون-فإنّ الأخلاق هي صفة للأفعال والسلوكات الإنسانيّة، فنقول عنها أفعالا محمودة لتخرجيها على مقتضى قيم الخير، أو نقول عنها أفعالا مذمومة لمجانبتها قيم الخير وتطرفها إلى قيم الشّر، فكان لفظ الأخلاق عامّا، فيه ما هو خير فيعلو بفاعله درجة، وفيه ما هو على خلاف ذلك فيدنو به درجة. عدا لفظ الأدب فهو مصطلح جامع ودال حصرا على الحسن والإيجابي والحميد من الأفعال. فقد جاء في **"درر السلوك"** لصاحبه (الماوردي) ما نصه: **"اعلم أنّ الإنسان مطبوع على أخلاق قَلَ ما حُمِدَ جميعها، أو ذُم سائرها، وإنّما الغالب أنّ بعضها محمود وبعضها مذموم. قال الشاعر:**

وما هذه الأخلاق إلا طبائع ... فمنهن محمود ومنهن مذمم"[5]

كما جعل الماوردي في ذات الكتاب عنوانا فرعيا وسمه بـ **"إصلاح الأخلاق المذمومة بالتأديب"**، ما يعني أنّ هنالك من الأخلاق ما يحتاج إلى صقل وتهذيب بالتأديب، يقول **"وليس يمكن إصلاح مذمومها بالتسليم إلى الطبيعة والتفويض إلى النحيرة، إلا أن يرتاض لها رياضة تأديب وتدريج، فيستقيم له الجميع، بعضها خلق مطبوع، وبعضها تخلق مسموع، لأنّ الخلق طبع وتكلّف. قال الشاعر؛**

يا أيـها المتـــحلي غير شـــيمـــته.... ومن سجـــيـــته الإكثار والمَلَقُ

عليك بالقصد فيما أنت فاعله.... إنّ التخلق يأتي دونه الخلق"[6]

ما نستخلصه من النّصّين السابقين للماوردي ؛ أنّ الخلق والجمع أخلاق، منها ما هو في حالة الطبيعة دون تهذيب، ومنها ما هو في حالة الثقافة على خلاف الأوّل. لذلك فهي لفظ جامع لخير الأفعال وشرها، عدا الأدب/ التأديب الذي يعد صناعة تنقل الأفعال من حالة الطبيعة إلى حالة الثقافة، فكان لفظا مخصوصا على الأفعال الحميدة. كما أنّ هنالك من الأخلاق ما هو **طبيعي أو فطري في الإنسان**، ومنه ما هو **مكتسب** بترييض النّفس وتأديبها، أو كما اصطلح عليه الماوردي **بعضها خلق مطبوع، وبعضها تخلق مسموع.**

أما (ابن مسكويه) فقد عَرَّفَ الخُلق بأنه: **"حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية"**[7] وأنّ هذه الحال ؛ منها ما يكون **طبيعيا** (أي خلقا أصيلا)، ومنها ما يكون **مستفادا بالعادة والتدرب** (أي مكتسب). وإن كان ابن مسكويه يميل إلى القول برأي ثالث جامع بين كلا الموقفين السّابقين، **أي فطرية الاستعدادات لاكتساب الأخلاق**، بدل القول بالطبيعة أو الفطرة، لأنه لو فُطر المرء على شر فلا يمكن بذلك تغييره، وإلاّ فما فائدة كلّ السياسات؟ _أي سياسة الذّات أو التربية_ وهو في ذلك يرد على الرواقيين الذين قالوا بالطبع والسجية، يقول: **"وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره لأنا نشاهده عيانا، ولأنّ الرأي الأوّل يؤدّي إلى إبطال قوة التمييز والعقل وإلى رفض السياسات كلّها، وترك النّاس همجا مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جدا..."**[8]ويتوسل ابن مسكويه بالقياس التالي:

كلّ خلق يمكن تغييره

لا شيء مما يمكن تغييره هو بالطّبع

فلا خلق ولا واحد منه بالطبع[9]

أما (ابن سينا) في تساعيته الموسومة بـ **"تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات"** فقد عرّف الخُلُقَ على أنه **"هيئة تحدث للنفس الناطقة من جهة انقيادها للبدن وغير انقيادها له، فإنّ العلاقة بين النّفس والبدن توجب بينهما فعلا وانفعالا،... فتارة تحمل النّفس على البدن فتقهره، وتارة تسلم للبدن فيمضي البدن في فعله، فإذا تكرر تسليمه له أحدث ذلك في النّفس هيئة إذعانية للبدن حتى أنه يعسر عليه بعد ذلك ما كان لا يعسر قبل من مُمانعته وكفّه عن حركته، وإذا تكرر منعه له حدث في النّفس هيئة غالبة يسهل بذلك عليه من معاوقة البدن فيما يميل إليه ما كان لا يسهل قبل"**[10]. فالخلق بالمنظور السينائي هو **"هيئة"** للإنسان، وقد يعلو بصاحبه إلى درجات الملائكية، أو يدنو به إلى دركات البهيمية، بحسب غلبة النّفس الناطقة للبدن، أو العكس ؛ أي استسلامها له، فإن هو أدرك سياسة نفسه بتغلب النّفس الناطقة كانت أخلاقه محمودة وخيرة، ومتى حدث تغلب البدن على النّفس، كانت أخلاقه ذميمة وشريرة.

وفي الرسالة الثامنة الموسومة بـ **"العهد"** –نسبة إلى معاهدته لله بتزكية نفسه وإخراجها من القوة إلى الفعل-ذكر ابن سينا **"أنّ كلّ إنسان مفطور على قوة بها يفعل الأفعال الجميلة وتلك القوة بعينها تفعل الأفعال القبيحة، والأخلاق كلّها، الجميل منها والقبيح، هي مكتسبة. ويمكن للإنسان متى لم يكن له خلق حاصل، أن يحصله لنفسه ومتى صادفها أيضا على خلق حاصل أن ينتقل بإرادة عن**

ذلك الخلق والذي يحصل به الإنسان لنفسه الخلق ويكسبه متى لم يكن له... فإنّ الخلق الجميل إنّما يحصل عن العادة وكذلك الخلق القبيح... ولذلك، إذا اعتدنا من أول أمرنا أفعال أصحاب الأخلاق الجميلة حصل لنا باعتيادها الخلق الجميل وإذا اعتدنا من أول أمرنا أفعال أصحاب الأخلاق القبيحة حصل لنا باعتيادها الخلق القبيح..."[11].

وفي مقابلة بين لفظتي "الأدب" و"الأخلاق"، نجد من يعتقد أنه حدث انقلاب مفهومي بين كلا المصطلحين. فلفظة الأدب أخذت الحظ الوافر في التّراث العربي، من ذلك كتاب "**الأدب الكبير**" و"**الأدب الصغير**" لابن المقفع (ت 146ه/ 759م) وكتاب «**السعادة والإسعاد**" لأبي حسن العامري (381ه/ 296م)، بخلاف لفظة "الأخلاق" التي لم يكن لها في هذا التّراث المعنى المتداول اليوم، فقد كانت تدل على "**مجموعة من السجايا أو الشيم أو الملكات النّفسية بحكم العادة أو الدربة، وتنقسم إلى الفضائل وإلى الرذائل**". ما جعل تخريج الكتب الأخلاقيّة تدور حول هذه الفضائل وأضدادها[12]. أما المعنى الحالي للأخلاق فهو "**الأعمال التي تحقق السلوك الحسن لدى الجميع وتعمل على تصور القوانين الموجّهة لهذا السلوك**". في حين أنّ الأدب إنّما يدلّ على "**الحكم القصار والجمل التي تحث وتعبر عن المعاني الخلقيّة**"[13]. لكن يمكن الحديث عن انقلاب مفهومي أكثر جذرية وخطورة تعرض له مصطلح "الأدب"، إذ "**أنّ كلّمة (أدب) التي تفيد أصلا السلوك الحسن، ... قد تخصصت اليوم في الدّلالة على ذلك النوع من الإنتاج الفكري الذي يضم الشعر والرواية والقصة...إلخ، ولا تدل على "السلوك الحسن" إلا في الاستعمال اليومي الدارج**"[14].

ومّما تم عرضه من مفاهيم عن لفظة "الأخلاق" في المجال العربي الإسلامي يمكن استخلاص التالي:

– أنّ مصطلح "الأخلاق" تم تصوره كصفات متقابلة في الإنسان، منها ما هو خير حميد، ومنها ما هو شرير قبيح. على خلاف لفظة "الأدب" التي لا تعكس سوى "ما هو حميد من الصفات".

– تصور الفلسفة العربيّة والإسلاميّة للأخلاق لم يخرج عن سياقه الفلسفي اليوناني ؛ أي منها ما هو واقع تحت حكم **العادة أو الفطرة**، ومنها ما هو واقع تحت حكم **التعود أو الدربة**، كما لا حظنا مع ابن سينا، أو موفق بينهما كما هو الحال عند ابن مسكويه والماوردي.

وفي المجال التّداولي الغربي تتقاسم كلمة "الأخلاق" كلمتين إحداهما تضرب بجورها في اللّغة اليونانية وهي éthique (الأخلاقيّة)، والأخرى رومانية الأصل وهي morale (الأخلاق). ويجعل (دومينيك لوكور) من كلمة "**مورل**" **أخلاقا تحيل إلى السلوك الفردي**، بينما كلمة "**إتيك**" تحيل إلى **القيم التي تخص المجتمع**، وبعبارة أخرى "**تنظم الأخلاق (مورل) فضاء الفضيلة الفردية، بينما تنظم الأخلاقيات (إتيك) فضاء القيم الاجتماعية**"[15]. ولئن كانت الأخلاقéthique ذات الأصل اليوناني "**إيتوس**"، ومورلmorale ذات الأصل الروماني "**مورس**"، وهما يعكسان معنى واحدا: **العادات الأخلاقيّة**، إلا أنّه وفي التّصنّف الثّاني من القرن العشرين كانت كلمة "مورل morale " هي السائدة في الكتابات الفلسفيّة والأخلاقيّة، لكن في العقود الأخيرة تراجع استعمالها لصالح "إتيك" éthique[16]، ولعل السّبب الرّئيس هي القضايا الأخلاقيّة التي بات يعيشها الغرب حاليا والتي تتطلب منه التفكير في **قيم مشتركة تدير فضاء الفضيلة العامّة** نظرا لوحدة المصير، من هاته القضايا، أخلاق البيولوجيا والطب bioéthique، كأحد فروع الأخلاق التطبيقية éthique appliqué.

من جانبها قدمت (مونيك كانتو- سبيربير) مقاربة مماثلة للسابقة، بين الأخلاق morale والأخلاقيّة éthique تقول: "**يميل معنيا المفردتين الأخلاق والأخلاقيّة إلى التطابق بالنسبة إلى هذا التعريف العام، والصحيح أنّ الاستعمال الذي تقوم به في أيامنا قد ترك اختلافا في اللهجة بين التعبيرين: فتعبير الأخلاق morale يشير غالبا إلى الإرث المشترك للقيم الكلّيّة الكونية التي تطبق على أفعال البشر... بالمقابل، فإنّ المفردة "الأخلاقيّة éthique" غالبا ما تستعمل من أجل أن تدل على ميدان أضيق هو ميدان الأعمال المتصلة بالحياة الإنسانيّة. بهذا المعنى فإنها بمنأى أن يعاب عليها أنها امتثالية أو "وعظية" كما يُعاب على كلمة أخلاق morale**"[17].

3/-اعتراضات طه عبد الرحمن على المفاهيم السائدة عن الأخلاق:

"لعله ليس في أبواب الفلسفة المعاصرة باب حملت مفاهيمه وأحكامه من مظاهر الاشتباه والاختلاط ما حمله باب الأخلاقيات"[18]

نجعل من هاته المقولة مسلمة أولية تكشف لنا مدى تهافت التّصوّرات، والمفاهيم المجتزأة التي ألحقت بمفهوم الأخلاق من طرف فلاسفة العرب والغرب؛ إذ لا ينكر (طه) أخذ فلاسفة العرب والمسلمين بالتعريف اليوناني الذي جاء به "جالينوس"، أي الخلق بما هو **"حال للنفس داعية للإنسان أن يفعل أفعال النّفس بلا روية ولا اختيار"**. فكانت بذلك الفلسفة الإسلاميّة النّاقلة عن اليونان، ترى في الخلق **"عبارة عن أحوال راسخة في النّفس رسوخ طبع أو رسوخ تعوّد، تصدر عنها أفعال توصف بالخير أو بالشّر"** وبذلك أخذ مؤسس علم الأخلاق الإسلامي ابن مسكويه، ومجدد الفكر الأخلاقي الإسلامي أبو حامد الغزالي[19].

إلا أنّ وجه التخبط الأكثر شراسة الذي أَلَمَّ بالمفاهيم الأخلاقيّة، كان من لدن المعاصرين من الفلاسفة الذين ذهبوا مذاهب متباينة إلى حد التعارض، فلم يقع عندهم تصور سليم ولا جامع عن الأخلاق؛ فمنهم من يرى الخلق **واقعا موضوعيا قائما في الفعل ومستقلا عن الأحكام الذّاتية**، ويعرف هذا الاتجاه بـ **الواقعية الأخلاقيّة**. وعلى خلاف ذلك نجد **موقف اللاّأدرية** الذي يرى في الخلق **"مجرّد حكم عن الفعل مبني على مواقف ومعتقدات ذاتية"**. ومنهم من يرى فيه **"مسألة تعبير عن رغبة ذاتية أو عاطفة شخصية"** وهو **الاتجاه الوجداني**. وهنالك من يرى فيه **"صفة موضوعية تدركها الذّات إدراكا مباشرا بفضل شعورها الأخلاقي أي تحدسها"** وهو **الاتجاه الحدسي**، وآخرون يرون في الخلق **"مجرّد حكم معرفي -خبري-يحتمل أن يكون صادقا أو كاذبا، وأن يبرهن عليه كما يبرهن على الحكم غير الخلقي"** وهذا ما نلمسه من **الاتجاه الطبيعاني**. وآخرون يرون في الخلق ممارسة **"تضبطه معايير كلّيّة ومطلقة يجري صدقها على النّاس جميعا من غير استثناء ولا تخصيص"** وهو **اتجاه الإطلاقية**. وعلى خلافه، نجد **الاتجاه النسبيّ** الذي يعتبر الخلق **"مسألة عوامل ثقافية واجتماعية تاريخية بحيث ما يكون خلقيا بالنسبة لمجتمع معين قد لا يكون كذلك بالنسبة لمجتمع آخر يختلف عنه ثقافة وتاريخا"[20]**.

أما عن السّبب الرّئيس وراء هذا الاختلاف والتعارض أحيانا كثيرة، فمرده ليس إلى كون مجال الأخلاقيّات يندرج ضمن الدّراسات الإنسانيّة، فهي على خلاف الدّراسات الطبيعية، لا زالت تلتمس طريقها في وضع مفاهيم محددة ومناهج منضبطة، وإن كان هذا التفسير يحتمل ضربا من الصواب، لكنه يبقى غير كاف، إذ إنّ هنالك من المفاهيم في مجال الإنسانيّات ما هو أبلغ وأقوم؛ حال المفاهيم النّفسانية الخالصة.

ولا هو راجع إلى أنّ الأخلاقيات تنتسب إلى مجال المعنويات، وهي على خلاف الماديات؛ معارف مجرّدة لا يمكن ضبطها بالملاحظة أو التجربة أو الحساب، وإن كان هذا التفسير هو الآخر يحتمل ضربا من الصواب، إلاّ أنه غير كاف أيضا، إذ إنّ هنالك من المفاهيم ما يعد أبلغ دلالة في مجال المعنويات، حال المفاهيم الميتافيزيقية الخالصة.

بل يبقى السّبب الرّئيس والذي ارتضاه (طه) لنفسه، هو إنزال الفلاسفة الأخلاقيات في غير مجالها الأصيل بها، وهو مجال **"الدّينيّات"**، فهذا المجال يجمع إلى عنصري "الإنسانيّات" و"المعنويّات" عنصرا ثالثا وهو "الغيبيّات"، **"وهكذا تكون أسباب الأخلاق موصولة بأسباب الدّين، حتى أنه لا حدود بيّنة مرسومة بينهما"[21]**

4/-التأصيل الطاهائي لمصطلح الأخلاقيّة: يبدي (طه عبد الرحمن) اعتراضه على المفهوم المتداول للأخلاق في كلا التّراثين اليوناني والإسلامي العربي، هذا المفهوم على نحو ما أسلفنا القول يرى في **"الأخلاق مجرّد أفعال محدودة من أفعال الإنسان، فهي بذلك لا تدخل في ماهية الإنسان أو هويته، بقدر ما تدخل في تحديد جانب من سلوكه"**، يصفه طه **بالباطل كلّيا[22]**. ذلك أنّ مفكرنا يجعل من الأخلاق الفصل النوعي للإنسان فـ **"ما من فعل من أفعال الإنسان إلا ويقترن إما بقيمة خلقيّة عليا ترفع هذا الفعل درجة، فتزداد إنسانيّة صاحبه، وإما بقيمة خلقيّة دنيا تخفض هذا الفعل درجة، فتنقص إنسانيّة صاحبه، وهذا يصح حتى ولو كان الفعل مجرّد فعل ذهني، لا فعلا عينيا، فقد يريد الإنسان بهذا الفعل جلب خير أو دفع شر، فيرتقي به إلى أعلى، أو يريد به جلب شر أو دفع خير، فينحط به إلى أسفل، بحيث يكون الحد الفاصل بين الإنسان والبهيمية ليس هو، كما رسخ في الأذهان، قوة العقل، وإنّما هو قوة الخلق، فلا إنسان بغير خلق، وقد يكون العقل ولا خلق معه، لا حسنا**

ولا قبيحا، وهو حال البهيمة، ولو قل نصيبهما مع العقل مع نصيب الإنسان منه"[23] ما يعني أنّ الصفة الجوهرية اللصيقة بالإنسان ليست كما هو متوهم، صفة "العقلانيّة"، وإنّما هي "الأخلاقيّة"، فهي بذلك تقترن بالإنسان كلّه وليس بعضه، أي بكلّ ملكاته وجنباته، الجوانية والبرانية، النّظرية والعمليّة، بما فيها العقلانيّة كفعل نظري فهي الأخرى تعد صفة أخلاقيّة، وما يجعل العقل في المجال التّداولي الإسلامي والعربي ذو دلالة أخلاقيّة هو:

– **الاشتقاق اللغوي لكلمة "العقل":** فقد جاء في لسان العرب لـ " ابن منظور" أن: العقل ؛ الحِجْرُ والنهي، وهو ضد الحمق. والجمع عقول وعقل، فهو عاقل، وعَقول من قوم عقلاء، يقول ابن الأنباري: الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عَقَلْتُ البعيرَ إذا جمعت قوائمه. وقيل العاقل الذي يحبس نفسه، ويردها على هواها، أُخِذَ من قولهم ؛ قد اعتقل لسانه، إذا حبس ومنع الكلام. وسُمّيَ العقل عقلا، لأنه يعقل صاحبه من التورط في المهالك، أي: يحبسه[24]. ما نلاحظه في هذا التخريج اللغوي أنّ العقل في اللّغة يأخذ معنىً أخلاقيا بالأساس لا معرفيا.

– **إنّ العقل ليس جوهرا وإنّما فعل من الأفعال محله القلب:** فالتّصوّر الأرسطي للعقل والذي انتقل إلى شعب المعرفة الإسلاميّة، أي العقل **"عبارة عن جوهر قائم بالإنسان يفارق به الحيوان ويستعد به لقبول المعرفة"**، إنّما على الحقيقة يخل بمعيار **"تكامل الملكات الإنسانيّة"**، فهو تعريف يقسم الإنسان إلى أقسام مستقلة ومتباينة، **"ذلك أنّ تخصيص العقل بصفة الذّات يجعله منفصلا عن صفات أخرى للعاقل تشارك في تحديد ماهية الإنسان كالعمل والتجربة، فلو جاز التسليم بجوهرية العقل على طريقة اليونان، لجاز التسليم بجوهرية العقل وجوهرية العمل وجوهرية التجربة... ولا يخفى ما في القول بتعدد الذوات القائمة في الإنسان من مجانبة صريحة للصواب، ذلك أنه يتجاهل حقيقة وحدة الإنسان في تكامل أوصافه وتداخل أفعاله"**[25]، وما يدل على أنّ العقل فعل وليس جوهرا، ملابسته لجميع الأفعال الإنسانيّة، فالمبصر يبصر وهو يعقل في بصره، والسامع يسمع وهو يعقل في سمعه، والعامل يعمل وهو يعقل في عمله. أيضا، إنّ العقل يُحسن ويقبح كما تحسن وتقبح الأفعال، فيحسن إن سلك به صاحبه مسلك المعرفة الحقيقية، ويقبح إذا انحرف به عن جادة المعرفة واوقعه في الشبهات. إنّ العقل قابل للتحوّل والتغيّر حال الأفعال.[26]

هذا الموقف الذي أسّس له مفكرنا، يعد موقفا أصيلا وجريئا، أحدث به قطيعة مع كلّ التّصوّرات السابقة عن الإنسان كحيوان عاقل، وعن الأخلاق كمجرّد أوصاف وسلوكات، وعن العقل كجوهر مفارق للبدن ولباقي الملكات. هاته التّصوّرات – حسبنا-ليست إلا انعكاسا لرؤية بائسة عن الإنسان سببها افتقار القيمة. وهو ما عكف (طه) على مجابهته في مشروعه الأخلاقي بطرح بديل جديد؛ أي **نظريته في الأخلاقيّة** يقول: **"والحال أنّ الأخلاق ليست كمالات، بمعنى زيادات لا ضرر لهوية الإنسان في تركها، وإنّما هي ضرورات لا تقوم هذه الهوية بدونها، بحيث إذا فقدت هذه الضرورات فقدت الهوية، وإذا وجدت الأولى وجدت الثّانية،... بحيث يتعين علينا أن نعتبرها بمثابة مقتضيات تدخل في تعريف هوية الإنسان نفسها، ولن يتأتى لنا هذا إلا إذا جعلنا وجود الإنسان، لا متقدما على وجود الأخلاق، وإنّما مصاحبا لوجودها، وهو أمر ليس في علمنا أنّ أحدا من الأخلاقيين تفطن إليه وتكلّم فيه، والحاجة تدعو إلى إنشاء نظريّة أخلاقيّة يكون من أصولها الجمع بين شرط "الأخلاقيّة" وشرط "الإنسانيّة""**[27]. فالأخلاقيّة التي ارتضى (طه) تأسيسها، **هي نظريّة أخلاقيّة في الإنسان**، أو قل ؛ هي **نموذج ورؤية قيمية جامعة للإنسان، وليست مجرّد أخلاق كأوصاف للسلوك الظاهر.**

إلا أنّ هذا التّصوّر القيمي للإنسان، ورغم دعوى مفكرنا أحقيته به وعدم أسبقية أحد عليه، تبقى ادّعاء لا ينفي عنه التماسه ولو ضمنيا من فلاسفة التّراث الإسلامي، وهو الضليع في هذا التّراث، فنجد ابن مسكويه في كتابه "تهذيب الأخلاق" قد أشار إلى ذات التّصوّر الطاهائي، شاهد ذلك قول ابن مسكويه **"كلّ موجود من حيوان ونبات وجماد وكذلك بسائطها، أعني النار والهواء والأرض والماء وكذلك الأجرام العلوية، له قوى وملكات وأفعال بها يصير ذلك الموجود هو ما هو، وبها يتميز عن كلّ ما سواه، وله أيضا قوى وملكات وأفعال بها يشارك ما سواه. ولما كان الإنسان من بين الموجودات كلّها هو الذي يُلتمس له الخُلقُ المحمود والأفعال المرضية، وجب ألا ننظر في هذا الوقت في قواه وملكاته وأفعاله التي بها يشارك سائر الموجودات، إذ كان ذلك من حق صناعة أخرى وعلم آخر يسمى العلم**

الطبيعي"[28]. وزاد على ذلك أن جعل من علم الأخلاق أشرف الصناعات، لأنها ترتبط لا بما هو عرضي في الإنسان كالبدن الذي تعنى به صناعة الطب والعلم الطبيعي، وإنّما بما هو أصيل وجوهري فيه، أي الأخلاق، يقول: **"لما كان للجوهر الإنساني فعل خاص لا يشاركه فيه شيء من موجودات العالم كما بيّنها فيما تقدم وكان الإنسان أشرف موجودات عالمنا... وجب أن تكون الصّناعة التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان حتى تصدر عنه أفعاله كلّها تامة وكاملة بحسب جوهره ورفعه عن رتبة الأخس التي يستحق بها المقت من الله والقرار في العذاب الأليم أشرف الصناعات كلّها وأكرمها. وأما سائر الصناعات فمراتبها من الشّرف بحسب جوهر الشّيء الذي تستصلحه..."[29]**.

ولما كانت الأخلاقيّة هي صورة الإنسان **الملابسة** له، فهي بذلك فطرية فيه فطرية خَلقِه، أي قياس الخُلقِ على الخَلقِ. هي أحد أصول النّظرية الأخلاقيّة الطاهائية، مثل هكذا تخريج هو ما عرف في تراثنا بـ **المواخاة[30]**. يقول طه **"ولنكتف هنا بأن نذكر في إلماعة، على سبيل التمثيل، بعض العناصر التي تدخل في بناء هاته النّظرية الأخلاقيّة؛ أحدها أنّ الإنسان أصلا خَلِيقَة، وحدّ الخَلِيقةِ أن تكون في أنّ واحد خَلقًا وخُلُقًا، وكما أنّ الخَلقَ يمر بأطوار، فكذلك الخُلُق ينقلب في أحوال، وكما أنّ الخَلقَ يبدأ في غيب الأرحام قبل الخروج إلى عالم السلوك، فكذلك الخُلُق يبدأ في غيب هذه الأرحام قبل الدخول في عالم السلوك، يبقى الفعل الخَلقِي غير منفك عن الفعل الخُلُقي، لأنّ الإنسان يكون فيه مسؤولا بوجه من الوجوه، إن في الإتيان به أو في تركه أو في اختيار كيفية من كيفيات الإتيان به أو تركه، أو في السعي إلى الإتيان به أو في تركه، إن في القصد من وراء الإتيان به أو تركه، أو في استخدام نتيجة الإتيان به أو تركه...إلخ. يتلخص لنا من هذه الحقائق وأمثالها أنّ ضرورة الخُلُقِ للإنسان كضرورة خَلقِهِ، سواء بسواء، فلاإنسانيّة بغير أخلاقيّة..."[31]**. ولا يعني هذا طبعا، أنّ فطرية الخُلُق تنفي إمكانية تعديله وتجويده نحو الكمال دائما، بل إمكانية تخلّقه تبقى مستمرة استمرارية خَلقه وتقلبه في الخلق طورا بعد طور[32].

هذا التّصوّر الطاهائي النابع من معين الرّؤية الإسلاميّة عن الإنسان، يأتي على نقيض التّصوّرات العلمانية، وكذا الدّهرانية عن الإنسان في النسق الغربي الحديث. **فالعَلمانية** لما كانت **"فصلا للسّياسة عن الدّين"** فقد ظلمت بفصلها هذا، **الوجود الإنساني**، وذلك بأن ضيّقت من آفاقه وجعلته أفقا واحدا، وعوالمه الكثيرة عالما واحدا (أي حصر الوجود في مجرّد الحياة المدنيّة الدنيوية)، وإنّ **الدّهرانية** بما هي **فصل الأخلاق عن الدّين**، فقد **"ظلمت ماهية الإنسان"**، باعتبار **الأخلاقيّة تجعل من الهوية الإنسانيّة هوية أخلاقيّة**. ويرى (طه) أنّ التّصوّرات التي تنازع الأخلاقيّة في تحديدها هذا، هي كلّ من **السّياسة والعقل**، فإمّا أنّ **"الإنسان حيوان مدني أو سياسي"** وإمّا أنّ **"الإنسان حيوان عاقل أو ناطق"[33]**، **بوصفهما** تحديدين فلسفيين يونانيين. وأفضلية التحديد الأخلاقيّ على السياسيّ تتجلى في أنّ السّياسة: **"عبارة عن التدبير الخارجي للشأن الإنساني"**، في حين أنّ الأخلاق **"تنهض بالتدبير الخارجي والتدبير الداخلي للشؤون كلّها، عامها وخاصها، على طريقة غير الطريقة التي تتبعها السّياسة"**. ثمّ إنّ السّياسة تطلب التَسيُّد على الآخرين، في حين تطلب الأخلاق رفع الهمة...

أما أفضلية التحديد الأخلاقي على العقلي، فيكمن في أنّ علاقة العقل بالأخلاق ليست علاقة التابع بالمتبوع، فمن الممكن أن تضبط الأخلاق عقليا بآليات العقل المجرّد، وهي صبغة إجرائية يستحيل فيها الإنسان إلى آلة. أما الأخلاق فمن شأنها أن تضبط العقل لأنّها توجهه نحو الأحسن دائما باعتبار الأخلاق قيما ومقاصد عليا. لذا فالعقل إذا ضبط الأخلاق فإنه ينزع عنها الصبغة الإنسانيّة، أما الأخلاق إذا ضبطت العقل فإنها تضفي عليه الصبغة الإنسانيّة. لذلك **"كان وجود الأخلاق بغير "أجرأة" خير من وجود "أجرأة" بلا أخلاق"[34]**.

ثانيا: الأخلاقية، مسلماتها وأركانها، وتطبيقاتها النقدية والتوجيهية بين التراثين الإسلامي والعربي:

لعله قبل الحديث عن مسلمات النظرية الأخلاقية وأركانها، ينبغي الوقوف أولا على السّبب الكامن وراء تأسيس هذه النظرية بديلا عن النظريات الأخلاقية الأخرى التي عرفها التراث الإنساني، وبالتالي كونها رهانا أكثر فاعلية من أخرياتها النظريات التي تُخرج الإنسانية من العمى الأخلاقي الذي تعيشه في عصرنا الراهن. وعن هاته الأسباب نذكر؛ "الضّرر الخلقي لحضارة اللوغوس"، "التحول الأخلاقي المنتظَر"، "الفراغ الأخلاقي الإسلامي" نوجزها على النحو الآتي:

– مواجهة حضارة اللوغوس وآفاتها الأربع؛ النقص والظلم والتأزم والتسلط، والتي تظلم الإنسان في صميم

وجوده، ولا سبيل حتى لإصلاحها. ذلك أن الإصلاحات المتكاثرة، لا تقاوم المد الشنيع للآفات الأخلاقية التي طبعت الحضارة الغربية، ولا أدل على ذلك من إصلاح وإصلاح الإصلاحات التي تطبع المنظومة الأخلاقية الغربية، فلا يوشكون على الانتهاء من إجراء هاته الإصلاحات حتى تطفو على السطح آفات ومضار ليس لهم سابق عهد بها. لذلك فلا بد من تغيير عميق، وهذا لا يكون إلا بـ "أخلاق العمق"، تأسيسا لحضارة إنسانية جديدة، لا تكون فيها السلطة للوغوس وإنما للإيتوس؛ أي الخُلُق.

– التحول الأخلاقي الذي يشهده العالم على مستوى الفرد والمجتمع. ما جعل العالم في حاجة **لنظام أخلاقي عالمي جديد**، وهذا بعد ما فرغ العالم من وضع أنظمة في مختلف المجالات التجارية والسياسية والعسكرية والثقافية...، والتأخر في وضع هذا النظام الأخلاقي مرده للتصور الذي يجعل من الأخلاق فرعا تابعا، لا أصلا تتبعه تلكم الأنظمة.

– الغياب الكلي لمساعي تجديد الخطاب الأخلاقي الإسلامي، بما يجعل هاته الأخلاق تضاهي الفلسفات الأخلاقية الغربية الحديثة والمعاصرة[35].

1/ مسلمات الأخلاقية:

- **مسلّمة الصفة الأخلاقيّة للإنسان "لا إنسان بغير أخلاق":** في سؤال له: **هل أصل الإنسان عقلي أم أخلاقي؟** يقيم طه اعتراضا على التحديد الأرسطي للإنسان، إذ لم يرَ أرسطو في الإنسان شيئًا يميزه عن النّفس الحيوانية والنّفس النباتية إلا القوة العاقلة أو الناطقة، ومنه فالعقل هو خاصّة إنسانيّة حصرية على بني البشر، إنه الجوهر، ولا شك في أنّ التعريف الجامع المانع للإنسان كمفهوم هو اعتباره "حيوانا عاقلا" لكن ما دلالة ذلك عند طه عبد الرحمن؟

يبدأ طه بعرض ما يسميه (جهلا) يتخبط فيه الإنسان الذي يزعم العقلانيّة، وهو جهل أخلاقي لا معرفي طبعا. إنه جهل تتجسد معالمه في **"تقديم قليل النفع على كثيره، وربما تقديم صريح الضرر على صريح النفع"**، هذه الصورة التي ينجم عنها ضرر الإنسان بمقصوده، تجعله ينزل بمستواه من رتبة الإنسانيّة إلى درك البهيمية، متحججا بأنه يدفع نفسه إزاء العقلانيّة. حتى إنّ الإنسان كلّما أبدى محاولات جادة في استحداث شيء ما، معتقدا في كماله، ما لبث أن يتأذى به بوجه من الوجوه، ثم يذهب إلى إصلاحه بنفس منطلقات العقلانيّة التي استحدثت بها ذلك الأمر في أولى بداياته غير مبالٍ بانقلاب المنفعة التي كان يرجوها منه إلى مضرة لم تكن في حسبانه، ثم لا يكاد يفرغ في هذا الإصلاح، حتى تظهر أسباب أخرى فيها أذى، ويبقى هكذا دواليك[36].

كما أنّ منهم من يحاول قلب الحقيقة وينسب للعقل ما ينسب للجهل، ويعتبر **أنّ ميزة العقل الإنساني أنه لا يملك اليقين بنفع لا ضرر فيه، ولا بصواب لا خطأ معه**؛ أي أنّ العقل لا يراعي مبدأ الصلاح والأنفع في الأخلاق والمعرفة، ولا الضار كذلك، فما يعتقده العقل يقينا لا يعني أن يصرفه عن الوقوع في الضرر أو الخطأ، وهذا بالضبط ما يعتبره طه عبد الرحمن **"قوة إدراكية تتمتع بها البهيمة؛ فالبهيمة لا تهتدي إلى أغراضها إلا بعد محاولات متتالية تخطئ فيها أكثر مما تصيب، وحتى إذا أصابت فلا تضمن لنفسها أنها لا تعود إلى الخطأ مرة ثانية"**[37].

ولما كانت العقلانيّة ليست حدا فاصلا بين الإنسان والحيوان، فما الذي يمتاز به الإنسان عن البهيمية؟ يرشدنا إليه طه عبد الرّحمن بقوله: **"وجب أن يوجد هذا الحد الفاصل في شيء لا ينقلب بالضرر على الإنسان من حيث أراد الصّلاح في الحال والفلاح في المآل، ولا يقع الشك في نفعه متى تقرّر الأخذ به ولا في حصول الضّرر متى تقرر تركه، وليس هذا الشّيء إلا مبدأ طلب الصّلاح نفسه، وهو الذي نسمّيه باسم الأخلاقيّة"**[38] لكن كيف هذا يا ترى؟ **"فالأخلاقيّة هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلا عن أفق البهيمة، فلا مراء في أنّ البهيمة لا تسعى في الصلاح إلى سلوكها كما تسعى إلى رزقها مستعملة في ذلك عقلها؛ فالأخلاقيّة هي الأصل الذي تتفرع عليه كلّ صفات الإنسان من حيث هو كذلك، والعقلانيّة التي تستحق أن تنسب إليه ينبغي أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي"**[39].

- **مسلّمة الصفة الدّينية للأخلاق "لا أخلاق بغير دين":** وهي الأخرى تأتي على نقيض أخلاق الحداثة الغربية، وتوجهاتها العلمانية والنّاسوتية (أي النزعة الإنسانيّة التي تحل الإنسان محل الإله كمصدر للقيم). فقد أقدم طه على تفنيد التّصوّرات الثلاث لعلاقة الأخلاق بالدّين التي أقامها العقل الغربي على طول تاريخه الفلسفي والأخلاقي، وهي "تبعية الأخلاق للدين"، "تبعية الدّين للأخلاق"، "فصل الأخلاق عن الدّين".

➢ **تبعية الأخلاق للدين:** نلتمس هذا التّصوّر عند القديسين (أوغسطين) و(توما الإكويني) اللذين تقرر عندهما أنه لا أخلاق بغير إيمان، وينبني هذا التّصوّر أساسا على عقيدتين: "الإيمان بالله" كسبب موصل للحياة الطيبة، وتوريث أخلاق المحبة والرجاء. و"إرادة الإله" التي يتم بموجبها تلقي الأوامر الإلهية، فتلزم المؤمن إتيانها أو الانتهاء عنها بموجب الأمر الإلهي، هذا الالتزام يضمن للمؤمن السعادتين؛ الدنيوية والأخروية. وعلى وجاهة هذا الموقف كما يعتقد طه إلا أنّ العقل الغربي لا يسعه تقبل هكذا اعتقاد.

فالإيمان بالله: يعتبرونه جنسا من الفكر الأسطوري الذي تجاوزه العقل الغربي بعد تجاوزه للفكر اليوناني.

أما الأمر الإلهي: فما لبث أن وقع في شبهات منها، "هل الخير خير لأنّ الإله أمر به، والشّر شر لأنّ الإله نهى عنه، أم العكس من ذلك، هل الله أمر بالخير لأنه خير ونهى عن الشّر لأنه شر؟"، فالتساؤل الأوّل يجعل من الله معيار ما هو خير وما هو شر، أما الثّاني، فيجعل من الخير والشّر صفتان موضوعيتان لا دخل للإرادة الإلهية في تحديدهما، مع العلم أنّ كلا التّصوّرين يوقعان المؤمن في تخبط يشككه في إرادة الإله.

➢ **تبعية الدّين للأخلاق:** يرجع هذا الاعتقاد لرائد الفكر التنويري الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانط 1724-1804)، الذي بنى معالم فلسفته الأخلاقيّة على رفض نظام الشعائر الدّينية، واعتبرها طقوسا لا عقلانيّة، والتزم من الدّين بَاطِنَه، زيادة على رفضه للإلزام الأخلاقي الصادر من خارج الذّات الإنسانيّة، بما في ذلك الأمر الإلهي، ذلك أنّ شعار الأنوار يقضي اتباع نداء العقل دون سواه، فالعقل هو المشرّع الوحيد لامتلاكه كلّ المؤهلات التي تخوّله تأسيس أخلاق مستقلة، حتى وإن تم قبول القيم الأخلاقيّة الدّينية، فذلك لموافقتها قيم العقل، وما يتنافى والقيم العقلية جاز نعته بالخرافات، ورميه في سلة الخزعبلات؛ ما يعني جعل العقل أصلا، والدّين تابع له تبعية الفرع للأصل. ويبقى وجه الاعتراض الطاهائي على التّصوّر الكانطي في أنّ هذا الأخير، بشعور منه أو بغير شعور، أخذ الأخلاق الدّينية وأعطاها لبوسا عقلانيا مُعلمنا، بطريقين، طريق المبادلة وطريق المقايسة.

➢ **انفصال الأخلاق عن الدّين:** يعود هذا الاعتقاد للفيلسوف الانجليزي (دفيد هيوم) صاحب المبدإ الأخلاقي الشهير **"لا وجوب من الوجود"**، فهيوم كما أخبر عن نفسه في كتابه "رسالة في الطبيعة البشريّة"، قد لاحظ أنّ الأخلاقيين في مناقشتهم لقضايا إخبارية تقريرية، سرعان ما ينتقلون إلى إعطاء أحكام معيارية، وأنّ هذا الانتقال لا مبرر له نهائيا، إذ لا يجوز الانتقال من قضايا خبرية قائمة على رابطتي؛ "يوجد" أو "ليس يوجد" إلى أحكام معيارية؛ "يجب" أو "ليس يجب". كقول القائل: "في العلم منفعة للإنسان، فطلب العلم واجب"، فالقول إنّ "في العلم منفعة" قضية خبرية استلزم عنها "وجوب طلب العلم" وهي قضية معيارية، وهو ما رفضه هيوم، ما يعني أنه أوّل من أسس لفصل الأخلاق.

ومن أوجه هذا الفصل، تمييز (هيوم) بين القضايا التي تخبر عن الإله، والقضايا التي تخبر عن الإنسان. وهو ما انبنى عليه: "إخراج الأحكام الدّينية عن الأحكام الأخلاقيّة"، لأنّ الأولى خبرية والثّانية معيارية، و"عدم صلاحيّة الأحكام الدّينية في تأسيس أحكام أخلاقيّة". لكن ما غاب عن (دفيد هيوم) ليس الغرض من الخبر الدّيني التبليغ عن معلوم معين، وإنّما الحث على الاعتبار بهذا المعلوم؛ الخبر الدّيني ليس خبرا علميا بل خبر عملي، أي ليس خبرا ليُعلِم النّاس وفقط، وإنّما إرشادهم.[40]

2/ أركان الأخلاقية

تنبني النّظرية الأخلاقيّة على ثلاثة أركان، يأتي كلّ ركن منها على مسلمة من مسلّمات النّظرية الأخلاقيّة غير الإسلاميّة فيُقوّمَها، وهي: الكونية، والعمقية، والحركية.

– **الكونية واجتماع العقل بالشّرع:** ويعبر طه عن هذا الركن برمزية "الميثاق الأوّل" وهو اتفاق، أو عهد، تمّ بموجبه **الوصل بين ذي العقل؛ أي الإنسان بذي الشّرع، وهو الله عزّ وجل.** ومضمون هذا الاتفاق؛ أنّ ما يدركه صاحب العقل هو عين ما يقره صاحب الشّرع، فيتعهد الإنسان بأن يكون عقله موافقا للشرع مخالفا للهوى. يعكس هذه الحقيقة النّصّ القرآني في قوله تعالى: **"وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى" [الأعراف: 172].** فهذا الميثاق نصَّ على الغاية من خلق الله للإنسان هي "العبادة"، وتخلّق الإنسان في هاته الحياة مرهون ببلوغه هاته الغاية دليل التزام ووفاء بالعهد.

ورمزية الميثاق تعكس حقائق ثلاث عن الأخلاق الإسلاميّة: أنها **أخلاق مُؤسَّسَة**، أي أنّ مؤسّسها هو الإله وليس العقل، فهذا الأخير فقير إليها. لذا، كان هو من يطلبها لكي يكمل ويستقيم، فيرجع التأسيس لما هو أعلى رتبة من

العقل، ولما هو مستغنٍ بنفسه لئلا يقع الانقلاب على هذا العهد. وهكذا "**يتبين أنّ الأخلاق** -والقول لطه-**لا يمكن أن تقوم على ميثاق يحصل بين البشر وحدهم ولا بالأحرى بين البشر وما دونهم، لأنّ هذا الميثاق لا ضمان فيه، لأنّ العقل البشري لا يفتأ يتقلب ويتلون... والضامن الصحيح لا يكون إلا مع الثّبات الدّائم، وهذا الثبات بالذّات هو الذي يميز الميثاق الذي يكون فيه الشّارع الإلهي طرفا متفضلا**". أما الحقيقة الثّانية، فهي أنّها **أخلاق متعدية إلى العالم كلّه:** فهي لا تخص صلاح فرد معين، ولا جماعة، أو أمة معينة، بل البشريّة جمعاء. وذلك بموجب الميثاق الذي يحمله كلّ واحد فينا حتى غير المؤمن، وإن أنكِر هذا الميثاق فإنه لا يمكن أن ينكَر حقيقة حمله له[41]. أما ثالث الحقائق، فهي أنها **أخلاق شاملة لكلّ أفعال الإنسان؛** بمعنى تغطيتها وملابستها لكلّ أفعاله الظاهرة والباطنة، النّظرية منها والعمليّة. "**ومجمل القول في الميثاق الأوّل أنه يورث الإنسان أخلاقا مؤسسة ومتعدية وشاملة، مما يجعلها أنسب أخلاق للعالم المنتظر، وبيان ذلك، أنها وبفضل أساسها الإلهي، تجلب الثقة في هذا العالم؛ وبفضل تعدّيها من بعض أفراده إلى الباقي فإنها تسوي بين حقوقهم وواجباتهم؛ وبفضل شمولها لجميع الأفعال، فإنها تحفظهم من ظلمهم لأنفسهم أو ظلم بعضهم لبعض؛ وبهذا، تكون أخلاق الميثاق هي الأخلاق الكونية بحق وليس سواها**"[42].

– **العمقية واجتماع العقل بالقلب:** يجعل طه من حادثة "**شق الصدر**" رمزية تعكس مدى عمق الأخلاق الإسلاميّة، بمعنى إصلاح جذري يطال القلب وليس مجرّد توجيه ظاهري للأفعال. والإنسان الذي تحقق له التخلق الجذري هو الرسول صلى الله عليه وسلم، لذلك استحق لقب "الخلق العظيم"، لذا يعد نموذجا لأي إصلاح قلبي، كما ليس على الإنسان أن يُصلح ذاته بمفرده خشية أن يتصور له الهوى على شكل تخلق، وإنّما يلزمه مُطهِّر أقدر على ذلك، مثلما لزم لتطهير النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام. وتعكس هاته العمقية بدورها حقائق ثلاث: إنها **أخلاق تطهير؛** أي **إخراج ما في القلب من الهوى إلى العقل**. ثمّ إنها **أخلاق تأهيل،** فمثلما أنّ عمليّة شق الصدر والتطهير الذي حبي به رسولنا الكريم، كانت إعدادا له لتلقي أمر جلل، وهو الوحي والرسالة، فكذلك الأخلاق الإسلاميّة تطهر قلب المُتَخلق وتزكيه، **فلا تجعله كما يعتقد في القلب محل عواطف وانفعالات وأهواء، بل يصير محلا للعقل**، ليعقل رسالته في الوجود. وأخيرا، إنها **أخلاق تجديد** فالذي تطهر قلبه، وأصلحه، وأزال العلقة التي تحول بين قلبه وتخلقه، يكون إنسانا مجددا لحياته، ولا تجديد إلا بتغيير جذري عميق، يطال ما به يصلح الأصل والفرع، الباطن والظاهر، أي القلب.[43]

– **الحركية واجتماع العقل بالحس:** يجعل طه من "تحويل القبلة" رمزية على حركية الأخلاق الإسلاميّة فكلّ من القبلة والكعبة رمزان حسيان، أي الجهة والمكان، زد على ذلك معانيهما الأخلاقيّة الجليلة، وهي معان معنوية عقلية، فالعقل الذي شهد زواجه بالشّرع يوم الميثاق الأوّل، وأكمل هذا الزواج يوم حادثة شق الصدر، جعل -أي العقل الشّرعي- له مكانا وجهة يختارها، وهذا يوم تحول القبلة من بيت المقدس إلى مكّة المكرّمة، وهو أسمى تكامل شهده العقل بالحس. ورمزية تحويل القبلة يعكس هو الآخر حقائق ثلاث عن الأخلاق الإسلاميّة: **إنّها أخلاق إشارية:** أي تنطوي على دلالات أبعد من الحس والعقل، هاته الحقيقة نلمسها على نحو أكثر في الصلاة؛ فإشارة التوجه صوب القبلة فيها أجلى معاني التنزيه الإلهي، فالله لم يتجل للجبل كما هو الحال في الطور الموسوي، ولا كان كلمة في الرحم في الطور العيسوي، كطورين حسيين، لذا فالطّور المحمّدي لا يجعل من القبلة أو الكعبة غاية، "**فما من شيء حسي يجوز أن نتعبد به، إلا ويجب أن نسلك فيه طريق الإشارة، أي أن نخرجه من ظاهره الحسي إلى باطنه المعنوي**". **ثمّ إنّها أخلاق انفتاحية:** فتسمية القبلة كان لخاصيتي "الاستقبال"؛ أي الجهة التي يستقبلها المصلي، و"المقابلة"؛ أي الجهة التي تواجه المصلي ويواجهها، وفي ذلك انفتاح لكلا الطرفين على بعضهما، بخروجه عن ذاته صوب المتوجه إليه، ويزاد انفتاح المتعبّد كلّما ازدادت واجباته، مع العلم أنّ المتوجه إليه حسا هو البيت، وعقلا هو الله عز وجل، فيزداد بتوجهه ذاك أدبا. كما **إنها أخلاق اجتماعية:** فالقبلة مركز اجتماع المسلمين، وهو بدوره اجتماع ذو دلالتين: أنها الوجهة التي يستقبلها أهل الميثاق بوجوههم. وأنها الوجهة التي تجمع أصحاب الاستطاعة من أهل الميثاق. والاجتماع الحسي يذكرهم بالدّلالة الغيبية، وهو اجتماعهم على الميثاق الأوّل في عالم الغيب[44].

أما عن تطبيقاتها النقدية والتوجيهية في المجال التداولي الإسلامي، فتأتي توجيها للتقسيم القيمي الذي ورثه العقل الإسلامي من علماء المقاصد، فلئن كان "**الصلاح**" من

المفاهيم الجوهرية للأخلاقية - مثلما تقدم- فإن علماء المقاصد قد التبس عليهم مفهوم المصالح، فحملوه على المعنى المادي؛ **أي المصلحة**، لا بمعناه المعنوي **"الصلاح"**، وعلى هذا الأساس جعلوا الأخلاق ضمن المقاصد التكميلية لا الضرورية، ما حمل (طه) على إعادة النظر في ذلك التقسيم، وذلك على النحو التالي: "عدم حصر الأجناس المصلحية في خمسة"، "نزول هذه الأجناس منزلة القيم الأخلاقيّة"، "دخول مكارم الأخلاق في جميع المصالح" وهي:

- **قيم النفع والضرر أو المصالح الحيويّة:** وهي المعاني الأخلاقيّة التي تتقوم بها كلّ المنافع والمضار التي تلحق عموم البنيات الحسية، والمادية والبدنية، ويكون الشعور الموافق لهذه المعاني هو **اللذة** عند حصول النفع، أو **الألم** عند حصول الضرر. وتندرج في هذه القيم المصالح المتعلقة بالنّفس والصحة والنسل والمال.
- **قيم الحسن والقبح أو المصالح العقليّة:** وهي المعاني الأخلاقيّة التي تتقوم بها المحاسن، والمقابح التي تعرض لعموم البنيات النّفسية والعقليّة. ويكون الشعور الموافق لهذه المعاني هو **الفرح** عند حصول الخير، و**الحزن** عند حصول الشّر. والمصالح المندرجة تحتها أكثر من أن تحصى، مثل؛ الأمن والحرية والعمل والسلام والثقافة والحوار...
- **قيم الصلاح والفساد أو المصالح الروحيّة:** وهي المعاني الأخلاقيّة التي تتقوم بها كلّ المصالح، والمفاسد التي تطرأ على عموم القدرات الروحيّة، والمعنوية. ويكون الشعور الموافق لهذه المعاني هو **السعادة** عند حصول المصلحة، و**الشقاء** عند حصول الفساد. ويدخل في هذا الصنف الجوانب الروحيّة للدين مثل: الإحسان والرحمة والمحبة والخشوع والتواضع[45].

نتائج ختامية

على نحو ما تقدم يبقى التأكيد على أنّ **"الأخلاقية"** ليست مجرد مصطلح، أو مفهوم، بل هي نظرية أخلاقية ومقولة تفسيرية سعى من خلالها صاحبها (طه عبد الرحمن) إلى تقديم تصور أنثروبولوجي للإنسان، ليس بما هو حيوان عاقل، ولا بما هو حيوان مدني أو اجتماعي، بل هذه المرة بوصفه كائنا أخلاقيا. وهو تصور متكامل يأتي على نقيض المنظومات المعرفية الاختزالية التي تشتغل وفق آلية "تفريق المجموع"، أو "فصل المتصل"؛ أي فصل الأخلاق عن الدّين. إن الأخلاقية لا ترى في الإنسان بعده العقلاني المحض (الفلسفات المثالية)، ولا المدني/السياسي (أرسطو)، أو المادي (ماركس وفرويد)، بل تقوم على تصور تكاملي ينعكس على ملكات الإنسان، كما ينعكس على منتجاته المعرفية والسلوكية؛ من ذلك تقويم العقلانية بصورتها الغربية الإغريقية القائمة على التصور الجوهراني للعقل، أو الحديثة ذات التصور المادي والسلبي له تحت ادعاء الموضوعية العلمية، إضافة إلى تقويمها للنموذج المعرفي الذي ورثه الإنسان المعاصر من التجربة الحداثية. حتى التجربة التراثية الإسلامية أعاد تقويمها وفق ما تقتضيه مسلمات وأركان الأخلاقية، ذلك أنّ للتراث الإغريقي القائم على التصور الجوهراني للعقل مداخل هو الآخر على المنظومة التراثية الإسلامية بشقيها المعرفية الفلسفية، وكذا الفقهية اللاّهوتية. كل ذلك محاولة من مفكرنا تدشين الإنسان الكوثر الموصول ببعده الميتافيزيقي الخلاّق، تجاوزا للإنسان الأبتر الذي نعدم فيه هكذا وصل.

وشأن الأخلاقية أن تعيد إحياء الأخلاق انطلاقا من مصدرها اللائق بها، أي المصدر الدّيني بديلا عن مصادر التشريع الأخلاقي الأخرى التي عرض لها (طه) بالنقد في كتابه "بؤس الدّهرانية". نقصد هاهنا، المصدر العقلي بصيغته النقدية الذي يمثله الألماني (إيمانويل كانط)، والطبيعي بتمثيل الفرنسي (روسو)، والاجتماعي الذي يمثله الفرنسي الآخر (دوركهايم)، والناسوتي الذي يمثله مواطنهما (لوك فيري).

الهوامش

1. جميل صليبا ، **المعجم الفلسفي** ، ج2 ، د ط ،(دار الكتاب اللبناني) ، بيروت ، 1982 ، ص ص: 212 ، 213.
2. المرجع نفسه ، ص 213.
3. فتحي حسن ملكاوي ، "التأصيل الإسلامي لمفهوم القيم" ، **مجلة اسلامية المعرفة** ، (المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية فرجينيا _ و.م.أ) ، العدد 54 ، السنة 4 ، خريف 2008 ، ص ص: 12 ، 13.
4. المرجع نفسه ، ص 11.
5. أبي الحسن علي بن حبيب الماوردي ، **درر السلوك في سياسة الملوك** ، ط1 ، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد ، (دار الوطن للنشر) ، الرياض ، 1997 ، ص 56.
6. المرجع نفسه ، ص ص: 56 ، 57.
7. أبو علي احمد بن محمد بن مسكويه ، **تهذيب الأخلاق: في التربية** ، ط1 ، (دار الكتب العلميّة) ، بيروت ، 1985 ، ص 26.
8. المرجع نفسه ، ص: 26.
9. المرجع نفسه ، ص 28.
10. أبو علي ابن سينا ، **تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات** ، ط2 ، (دار العرب للبستاني) ، القاهرة ، دت ، ص ص 109 ، 110.
11. المرجع نفسه ، ص 146.
12. يُصطلح عليه كذلك بـ **"الأخلاق المتقابلة"** مثل ما أورده الماوردي في كتابه **"درر السلوك في سياسة الملوك"** في عنوان فرعي:**الأخلاق المتقابلة في الملوك** عدها في أربعة إيجابية تقابلها أربعة سلبية ، مثنى مثنى ؛ الرقة والرحمة تقابلها القسوة والغلظة ، السماحة والعطاء تقابلها البخل والإمساك. ص ص 77-80.
13. رضوان زيادة وكيفن جي أوتول ، **صراع القيم بين الإسلام والغرب** ، د ط ، (دار الفكر) ، دمشق ، 2001 ، ص ص 100 ، 101.
14. محمد عابد الجابري ، **قضايا في الفكر المعاصر** ، ط1 ، (مركز دراسات الوحدة العربية) ، بيروت ، 1997 ، ص 64.
15. نقلا عن المرجع نفسه ، ص: 64.
16. نقلا عن المرجع نفسه ، ص: 64.
17. مونيك كانتو- سبيربير و دوفين آديجان ، **الفلسفة الأخلاقية**، تر: جورج زيناتي ، ط1 ، (دار الكتاب الجديد المتحدة) ، 2008 ، ص: 07.
18. عبد الرحمن طه ،**سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية**، ط1 ، (المركز الثقافي العربي) ، الدار البيضاء-المغرب ، 2000 ، ص 15.
19. عبد الرحمن طه ،**تجديد المنهج في تقويم التراث** ، ط2 ، (المركز الثقافي العربي) ، الدار البيضاء-بيروت ، ص 381.
20. **سؤال الأخلاق.** ص 16 ،15.
21. المصدر نفسه. ص ص 24 ، 25.
22. عبد الرحمن طه، **سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد**، ط1 ، (المؤسسة العربية للفكر والإبداع) ، بيروت ، 2015 ، ص 72.
23. المصدر نفسه، صفحة نفسها.
24. أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ،**لسان العرب** ، المجلد 11 ، ط1 ،(دار الصادر) ، بيروت ، ص ص 460 —462.
25. **سؤال الأخلاق** ، ص ص 62 ، 63.
26. المصدر نفسه ، ص 63.
27. المصدر نفسه ، ص 54.
28. ابن مسكويه ، **تهذيب الأخلاق** ، ص 10.
29. المرجع نفسه ، ص ص 30 ، 31.
30. تأمل قول أبو سعيد السيرافي فيما نقله عنه التوحيدي ، والذي لا يستبعد أنّ يكون مفكرنا قد استلهمه من ذات التراث ، يقول: **"الحِلمُ مشارك لمعنى الحُلُم، فصاحب الحِلمِ هو من يعرض عما يرى ويسمع كالحَالِمِ، واللفظ إذا واخى اللفظ كأنّ معناه قريبا من معناه، وهذا الخَلقُ والخُلُق، والعَدلُ والعِدلُ، وسست الرجل وسست المرأة".** نقلا عن جمال الغيطاني ، **خلاصة التوحيدي: مختارات من نثر أبو حيان التوحيدي** ، (المجلس الأعلى للثقافة) ، 1995 ، ص 55.
31. **سؤال الأخلاق**، ص ص 54 ، 55.
32. تأمل قول أبي حامد الغزالي: **"لقد ظن المائلين إلى البطالة أنّ الخُلُق كالخَلق فلا يقبل التغيير والتفت إلى قوله عليه السلام فرغ الله من الخَلقِ وظن أنّ المُطمِعَ في تغيير الخلق طمع في تغيير خَلق الله عز وجل وذهل عن قوله عليه السلام: "حسنوا أخلاقكم" وأنّ ذلك لو لم يكن ممكنا لما أمر به، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب..." ميزان العمل** ، ص 45. هذا القول هو الآخر يجعلنا نعتقد أنّ أبا حامد الغزالي أخذ بذات التوليد الاشتقاقي الذي مارسه مفكرنا طه عبد الرحمن مع مفهوم الأخلاقية.
33. عبد الرحمن طه ، **بؤس الدهرانية: النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين**، ط1 ، (الشبكة العربية للأبحاث والنشر)، بيروت ، 2014 ، ص 109.
34. المصدر نفسه ، ص 110.
35. **سؤال الأخلاق.** ص ص 145 ، 146.
36. المصدر نفسه ، ص 13.

37. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
38. المصدر نفسه ، ص 13.
39. المصدر نفسه ، ص 14.
40. المصدر نفسه ،ص ص 31-50.
41. ذلك أنه آية تكوينية ، وهو وإن كابر وأنكر الشرع كآية تكليفية ، فإنه من جهة خَلقه كآية تكوينية يبقيه في علاقة مع ربه ، لذا فله ما يربطه بالميثاق.
42. المصدر نفسه، ص 157-160.
43. المصدر نفسه، ص ص 160-164.
44. المصدر نفسه ، ص ص 164-167.
45. المصدر نفسه، ص ص 113 ، 114.

تحديد الفروع الكفؤة والمنتجات الدينامكية لأجل تنويع الاقتصاد ودور الدولة في دعمها

فريدة لرقط*

الملخص

لقد أدى انهيار أسعار النفط منذ منتصف سنة 2014، إلى تراجع كبير في إيرادات الدول المعتمدة عليه في تحقيق مداخيلها ومن بينها الجزائر. وإن البحث عن الفروع ذات الكفاءة الإنتاجية القادرة على تقديم منتجات موجّهة للتصدير ، أصبح أكثر من ضرورة لتقليل الارتباط بالمحروقات، وتنويع الاقتصاد، حيث أكدت الدراسة أن هناك منتجات عديدة ذات دينامكية تصديرية تنتمي بالأساس إلى الصناعات الغذائية، والكيميائية، والمعدنية، والكهربائية، وهي الأكثر كفاءة إنتاجية. ويتمثل دعم الدولة في استهداف الفروع، والمنتجات المهمة بتشجيع الاستثمارات نحوها، ودعمها تكنولوجيا، وبرأس المال البشري المؤهل، لتكتسب مزايا تنافسية في الأسواق الدولية.

الكلمات المفاتيح: الفروع ذات الكفاءة الإنتاجية ؛ المنتجات ذات الدينامكية التصديرية ؛ تنويع الاقتصاد ؛ دعم الدولة.

Résumé

La chute des prix du pétrole depuis mi-2014 a conduit à une baisse des revenus des pays dépendant du pétrole dont l'Algérie. La recherche de branches pertinentes capables de fournir des produits dynamiques à l'exportation est devenue plus qu'une nécessité, et ce pour réduire la dépendance vis-à-vis des hydrocarbures et pour diversifier l'économie. L'étude a confirmé qu'il existe des produits dynamiques appartenant principalement à des branches des industries alimentaire, chimique, métallurgique et électrique. Le soutien de l'Etat consiste à cibler ces branches par les investissements et par l'appui technologique et en capital humain qualifié, ce qui permettra d'acquérir des avantages concurrentiels sur les marchés internationaux

Mots clés : Les Branches productives, Les Produits dynamiques, La Diversification de l'économie, Le Soutien de l'Etat.

Summary

The fall in oil prices since mid-2014 has led to a significant decline in the revenues of oil-dependent countries, including Algeria. The search for relevant industries able to provide dynamic export products has become more than a necessity, to reduce dependence on hydrocarbons and diversify the economy. The study comes to confirm that there are many dynamic products mainly belonging to branches of food, chemistry, metallurgy, and electrical industries. State support consists of targeting these branches through investment and technological support and skilled human capital, which will enable them to acquire competitive advantages in international markets.

Keywords: Productive Branches, Dynamic products, Diversification of the economy, State support.

* أستاذ محاضر ب، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة فرحات عباس سطيف 1

مقدمة

لقد أدى تراجع أسعار النفط ، منتصف سنة 2014م، وخاصة مع نهاية 2016م، إلى تراجع إيرادات الصادرات النفطية ، وتسبّب ذلك فى عجز تجاريّ لأوّل مرّة منذ سنة 2000م ، قُدّر بحوالى 17 مليار دولار[1] ، انخفض على إثره معدّل تغطية الواردات إلى 68% بعد أن كان 107% سنة 2014م، و120% سنة 2013م، و240% سنة 2000م. لقد تسبب انخفاض الإيرادات من الصادرات فى عجز الميزانية بمقدار 15,4 % من الناتج المحلى الإجمالى ، تطلبت تغطيته اللجوء إلى صندوق ضبط الإيرادات الذي انخفضت مدخراته من 5563,5 مليار دينار نهاية 2013 إلى 2072,2 مليار دينار نهاية 2015 ، أي بانخفاض قدره 68,2% [2].

إشكالية البحث

إن استمرار تدهور أسعار النفط ، ومنه استمرار عجز ميزان المدفوعات ، سيدفع بالاقتصاد الجزائري إلى الاستـدانة فى آجال قريبة ، هذا ما يؤكد فى كل مرة أنه لا بديل عن تنويع الاقتصاد ، والمداخيل خارج قطاع المحروقات. إنّ تنويع الاقتصاد يستلزم تحديد الفروع والمنتجات التى يمكنها المساهمة فى تحسين المداخيل من الصادرات. وعليه ، فإن الإشكالية تتمحور حول معرفة تلك الفروع والمنتجات التى يجب دعمها وترقيتها. ومنه ، فإن سؤال الإشكالية يتمثل في:

ما هى الفروع الكفؤة والمنتجات الدينامكية التى يمكن أن تساهم في تنويع الاقتصاد، ومنه الصادرات خارج قطاع المحروقات؟

فرضية البحث

يتميّز الاقتصاد الجزائري بقلة التنوّع فى إنتاجه ، وبالتالى فى صادراته ، إلاّ أن ذلك لا يعنى عدم قدرته على تحقيق التنوّع. وعليه ينطلق البحث من الفرضية التالية:

رغم عدم تنوّع الاقتصاد الجزائري، فإنه توجد صناعات، وبالتالى منتجات يمكن الاعتماد عليها فى تنويع الإنتاج؛ أي إمكانية التصدير.

منهج البحث

للإجابة على الإشكالية ، والتأكد من صحة الفرضية من عدمها ، سنتبع المنهج التحليلى باستخدام مجموعة من المؤشرات. إن اختيار المنتجات يعني اختيار القطاعات أو فروعا منها. لهذا سنبحث فى الفروع الإنتاجية التى تكون منتجاتها أقدر على أن تكون صادرات محتملة. كما سنبحث فى الصادرات الفعلية لتحديد المنتجات الدينامكية. وعليه ، سنستخدم المؤشرات التى تخدم البحث ، وهى المؤشرات الإنتاجية ، وأهمها هيكل القيمة المضافة ، والمؤشرات التجارية وأهمها تطوّر قيمة الصادرات ، والميزة النسبية الكامنة ، ومعدّل نمو الصادرات ، ومعدّل نمو حصة الصادرات.

ستتم معالجة الإشكالية من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: دور الدولة في دعم الصناعات الوطنية.

المبحث الثاني: هيكل القيمة المضافة للقطاعات الإنتاجية.

المبحث الثالث: هيكل الصادرات خارج المحروقات.

المبحث الرابع: المنتجات الدينامكية في الأسواق الدولية ودور الدولة في دعمها.

المبحث الأول: دور الدولة في دعم الصناعات الوطنية

إن تقوية تواجد المنتجات الوطنية في الأسواق الدولية يكون بتحسين تنافسيتها ، وينطلق تحسين هذه الأخيرة من وجود سياسة صناعية محددة الأهداف والآليات ، تدعم الصناعات ومنتجاتها التي تواجه منافسيها في الأسواق الدولية.

والدعوة إلى تحرير التجارة الدولية ، تستند إلى منافع حرية التبادل التي أقرتها النظرية الكلاسيكية ، والنيوكلاسيكية للتجارة الدولية. وتتحقق المنافع الاقتصادية (الرفاه الاقتصادي للشعوب) لحرية التبادل ، إذا تحقق فرض تمتّع الأسواق بالمنافسة التامة التي ستجعل قوى السوق قادرة على التخصيص الأمثل للموارد. ويُؤكد الواقع ، أن الأسواق المحلية والدولية لا تتمتّع بالمنافسة التامة (وجود أشكال الاحتكارات الناتجة عن وجود اقتصاديات الحجم المتزايدة). ومنه ، تصبح تلك الأسواق غير كاملة (عدم كمال الأسواق) وغير قادرة على التخصيص الأمثل للموارد الاقتصادية ، ممّا يستلزم تدخل السلطات العمومية.[3] وتتدخل الدول للتأثير على التوازن لصالح مؤسساتها ، وقطاعاتها عن

طريق أدوات السياسة الصناعية، والتجارية لتحويل المكاسب من القطاعات المنافسة إلى القطاعات الوطنية.

لم تركّز تفسيرات التجارة الدولية على هيكل السوق أو المنافسة إلاّ في الثمانينيات، ومن أشهرها نموذج BRANDER ET SPENCER (1983) وقبلهما KRUGMAM (1979)، حيث ينص النموذج على أنه في إطار احتكار القلة، يمكن أن تكون هناك سياسة تجارية، أو صناعية استراتيجية للتغلّب على تشوّهات السوق واستغلال الفرص المتاحة لتحقيق مكاسب لتلك الصناعات، ومنافع للدول التي تضعها، وهو ما يبرر تدخل الدولة لدعم صناعاتها[4]

وتؤدي الصناعة دورا حاسما في تحقيق النمو الاقتصادي خاصة في الأجل الطويل، ولهذا فإن دعمها وحمايتها من المنافسة يصبح ضروريا، ويُؤكد الواقع أن معظم الدول تقوم بدعم بعض صناعاتها، لتجعلها تتمتّع بمزايا إنتاجية وتجارية وبالتالي تنافسية على الصناعات المنافسة. إن الدول المتقدمة ورغم أنها هي التي تدعو إلى مبدأ التحرير، فإنها ومنذ الثورة الصناعية قامت بحماية صناعتها، بفرض رسوم عالية على الواردات وكذلك بمنع انتقال ابتكاراتها إلى الدول الأخرى، وهي مستمرة في حمايتها إلى اليوم من خلال خرق مبادئ الاتفاقيات المتعددة لتحرير التجارة الدولية (في إطار المنظمة العالمية التجارية)، وكذلك من خلال القيود غير الجمركية، لتجعلها أكثر تنافسية في الأسواق الدولية. وإذا كان تدخل الدولة ودعم الصناعة مبررا نظريا بالنسبة للدول المتقدمة، فهو أكثر تبريرا بالنسبة للدول النامية.

إن إقامة صناعة ناشئة (لوجود مزايا نسبية معيّنة) خاصة في الدول النامية، يتطلّب وقتا طويلا للتغلّب على ارتفاع التكاليف في مرحلة الانطلاق، والوصول إلى الحجم الأمثل الذي يسمح بتحقيق الأرباح. وعليه، فإن تدخل الدولة بواسطة السياسة الصناعة والتجارية يصبح ضروريا لحمايتها حتى تصبح قادرة على المنافسة. تحتاج الشركات المبتكرة أيضا إلى تدخل الدولة من أجل حماية ابتكاراتها، فتكاليف البحث والتطوير لا يمكن استرجاعها، وتحقيق الأرباح منها في ظل مبدإ الحرية، لأن الشركات الأخرى في هذه يمكنها الاستفادة من التكنولوجيات المُطوّرة دون أن تتحمّل تكاليف البحث.[5] وحسب (SCHUMPETER1933) وكذلك (ARROW 1962) إذا انتشرت الابتكارات دون حماية (عن طريق تشريعات حقوق الملكية الفكرية) فإنه سيختفي الدافع من وراء البحث وسيتأخر معه التطوّر التكنولوجي.[6]

إن وضع سياسة تجارية استراتيجية حسب (LEVINSON 1988) يستلزم؛ أولاً تحديد الخصائص التي يجب أن تتمتّع بها صناعات معيّنة حتى تحقق المساعدات الحكومية المنافع من الناحية الاقتصادية،[7] ويُؤكد (JACQUEMIN 1992) أن معظم الصناعات هي مهمة من خلال التشابكات التي تخلقها، وتستطيع أن تكون قطاعات استراتيجية أو ذات تكنولوجية عالية في يوم ما، وبالتالي من الصعب تحديد الصناعات الاستراتيجية من ناحية المنافع الاقتصادية. إلاّ أن اعتماد النظرة التجارية التصديرية يسمح بتحديد الصناعات، أو الأنشطة التي تقدم منتجات ديناميكية أكبر في التجارة الدولية،[8] والتي يجب استهدافها. يعني الاستهداف (Le Ciblage)[9] تفضيل وتدعيم وتطوير بعض الصناعات أو فروع منها، يرى البلد أنّها ذات أولوية، ويكون ذلك عن طريق توجيه الاستثمارات للفروع المختارة، وتوفير الحماية لها، ودعم الصادرات، وتوفير المناخ المناسب من أجل رفع إنتاجيتها، وذلك بتوجيه وتفعيل المحدّدات المهمة خاصة التكنولوجيا، والعمالة الماهرة لخلق مزايا تنافسية وطنية، وجعلها أكثر تنافسية في الأسواق الدولية.

وتهدف السياسة الصناعية بشكل جوهري إلى دعم تنافسية الصناعات الوطنية، فالتنافسية كما يعرّفها (PORTER 1990): "**هي مجموع التدخلاّت الحكومية التي تشمل في الوقت نفسه تدخلاّت في محيط الأعمال الضروري، لتشجيع تطوّر نسيج المؤسسات وتحسين التنافسية، وتدخلاّت مباشرة تمس المؤسسات المستهدفة في قطاعات قليلة، ولكن محدّدة لأجل مساعدتها على إزالة الاختناقات والعيوب العديدة للسوق**".[10] كما تُعرّف منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (2002) التنافسية بـ" **قدرة البلدان على التواجد في الأسواق الدولية والمحلية بتطوير القطاعات، والأنشطة ذات القيمة المضافة العالية، والمحتوى التكنولوجي العالي**".[11] ومن خلال التعريفين السابقين (وكذلك تعاريف أخرى للتنافسية) ترتبط سياسة دعم الصناعة وتنمية القدرات الإنتاجية بالسياسة التنافسية والسياسة التكنولوجية (ومنه تنمية القدرات البشرية القادرة على إنتاج وتطوير التكنولوجيا عن طريق السياسة التعليمية). وتعتبر التكنولوجيا محدّدا أساسيا في تطوّر الصناعات حسب RODRICK ،[12] ممّا يستلزم تدخل الدولة لبناء القدرات التكنولوجية التي تؤدي إلى بناء القدرات التنافسية، ويُبرّر

ذلك بأن اقتصاد السوق غير قادر لوحده على تعميم مستويات مُثلى للاستثمار في الابتكار والتطوير التكنولوجي، الذي سوف تنعكس تأثيراته الإيجابية ليس فقط على الصناعة ولكن على الاقتصاد ككل، وتضع منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية، السياسة التكنولوجية في قلب السياسة الصناعية ومنه السياسة التنافسية.[13]

وعليه، يتّضح أنّ دراسة التنافسية ترتبط باتجاهين:[14]

الأول: إنتاجي ويتعلق بالقيمة المضافة العالية والتي تعتبر أكثر المؤشرات تعبيرا عن القدرات الإنتاجية، أو الكفاءة الإنتاجية لاقتصاد ما، والتي تمثل أهم محدّدات التنافسية (القدرة على إنتاج السلع والخدمات).

الثاني: تجاري، والذي يعبّر عن الكفاءة التجارية، حيث يستعمل من بين عدّة مؤشرات هيكل الصادرات، والميزة النسبية، ومعدّل نمو الصادرات، وكذا معدّل نمو حصة الصادرات.

المبحث الثاني: هيكل القيمة المضافة للقطاعات الإنتاجية

تُعتبر القيمة المضافة مؤشرا على توليد الثروة، ومن ثم فإن القطاعات الأكثر مساهمة في القيمة المضافة تكون هي الأكثر قدرة على خلقها. إن قدرة القطاعات على تحقيق المداخيل في السوق الداخلية، يعني أنها استطاعت اجتياز عقبة منافسة الواردات، وبالتالي، يمكنها اجتياز عقبة منافسة المنتجات المماثلة في الأسواق الخارجية، إذا تم دعمها. وحتّى يتّضح المقال، نستوقف بالتّحليل في هذا المبحث، القطاعات الأكثر مساهمة في القيمة المضافة.

المطلب الأول

اهتمام الجزائر بتنويع الصادرات والمداخيل خارج المحروقات: إن إشكالية عدم تنوّع الصادرات الجزائرية ليس طرحا جديدا، إذ دائما ما كانت تسعى الجزائر إلى تنويعها، ويندرج سعي الجزائر لترقية الصادرات في إطارين، هما:

- **الإطار الأول**: وهو مسعى نابع من قناعة الجزائر بضرورة تنويع الاقتصاد، وكان ذلك خلال السبعينيّات عندما بدأت مسارها التصنيعي، حيث تأكد هذا التوجّه في ميثاق 1976 الذي نص على ما يلي "**... وبهذا تجد الصناعة لدى السوق الوطنية الدعم الضروري للتغلب على المشكلات المرافقة لانطلاقها واستكمال نضجها، وعليها أن تستفيد من هذا الدعم لتجويد منتجاتها وخلق الظروف التي تمكّنها من دخول المنافسة لتحتل موقعها من السوق الدولية، وذلك في نطاق ما يُبذل من الجهود لتنويع صادرات البلاد والانتقال بالجزائر من مرحلة المواد الأولية إلى مرحلة تصدير المنتجات المصنعة**".[15]

- **الإطار الثاني**: وفرضته المتغيّرات الدولية التي أثرت على اتجاه أسعار النفط نحو الهبوط، وكان ذلك بداية سنة 1986 عندما أُلزمت الدولة على مراجعة سياسة اعتمادها شبه المطلق على تصدير المحروقات، تجلى ذلك في الميثاق الوطني لسنة 1986 عندما نص على ما يلي: "**يجب توفير الشروط الملائمة لجعل الصناعة الوطنية خارج المحروقات مصدرًا دائما للتراكم، ونظرًا لهيمنة القوى على السوق الدولية، فإنه يتعين على الصناعة الوطنية أن ترفع من مستوى منافستها، ولا يمكن تحقيق ذلك إلاّ بالاستعمال الأمثل لأداة الإنتاج طبقا للمقاييس الدولية**".[16] تخلّت الجزائر بعدها عن هذا التوجّه عندما تحسنت مؤشراتها الكلية، وبدأت أسعار النفط ترتفع، خاصة خلال الفترة الممتدّة ما بين 2000 إلى منتصف سنة 2014. ظهر نفس التوجه مرة أخرى مع منتصف سنة 2014 (انخفاض أسعار النفط مرة أخرى) حينها أعلنت الحكومة في جوان 2016 عن "**النموذج الجديد للنمو الاقتصادي**" والذي يمتد من سنة 2016 إلى أفاق 2030، إذ يعتمد في تحقيق النمو الاقتصادي على قاعدة إنتاجية وصناعية وطنية عصرية وتنافسية عن طريق تحسين مناخ عمل المؤسسات.[17]

المطلب الثاني: القطاعات المنتجة في الاقتصاد الجزائري: يتم قياس ذلك من خلال مساهمة القطاعين الفلاحي، والصناعي في القيمة المضافة الإجمالية، والتي تعتبر منتجاتهما قابلة للتصدير، إذ يسمح هيكل القيمة المضافة بالاستدلال على القطاعات ذات الأولوية.

الفرع الأول: هيكل القيمة المضافة الإجمالية: يوضح الجدول التالي مساهمة مختلف القطاعات في القيمة المضافة الإجمالية.

الجدول 1: توزيع القيمة المضافة بين القطاعات للفترة 2011-2015

البيانات	2011	2012	2013	2014	2015
المحروقات	38,2	36,6	32,2	29,1	20,5
الفلاحة	8,6	9,4	10,6	11,1	12,7
الصناعة	4,8	4,8	5,00	5,2	5,9
باقي القطاعات	48,4	49,2	52,2	54,6	60,9

المصدر: ONS: «les comptes économiques de 2001 à 2015». Août 2016, P.26

يتميّز الاقتصاد الجزائري باعتماده على قطاع المحروقات في تحقيق الثروة، حيث يُظهر الجدول استحواذ القطاع على أعلى النسب، ولكن بسبب تراجع إنتاج النفط والغاز والأنشطة الأخرى للتكرير والتمييع منذ سنة 2006[i] فإن مساهمة القطاع في خلق القيمة المضافة قد تراجعت، وهو ما يّوضحه نفس الجدول السابق حيث انخفضت النسبة من 38.2% إلى 20.5% بين 2011 و2015. عندما انخفض معدّل النمو الاقتصادي سنة 2013 إلى 2.8% بعد أن كان 3.1% سنة 2012 تسبب قطاع المحروقات في ذلك الانخفاض بنسبة 69.2 %. (كل قطاع ساهم في الانخفاض بنسبة معينة، ولكن كان بسبب قطاع المحروقات بشكل أكبر بسبب تراجع نشاط الإنتاج والتكرير).[18]

وتقاس كثافة التصنيع بدرجة مساهمة القطاع الصناعي، وخاصة الصناعات التحويلية في الناتج المحلي الإجمالي، وحسب بيانات الجدول، فإن تلك الصناعات لم تساهم إلاّ بنسب ضعيفة ومتناقصة كل سنة، وهي نسبة متواضعة حتى عند مقارنتها بالدول النامية. يدل ذلك على ضعف درجة تصنيع الاقتصاد الجزائري، واعتماده على قطاع المواد الأولية الذي يظهر تخصّصه فيه، أي سيطرة الإنتاج الريعي على الإنتاج الحقيقي.

إن ما يزيد الأمر سوءً أن الجزائر لا تمتلك التأثير في السوق النفطية، حيث تشير الإحصائيات لسنة 2015 أنها مثلت 3,64% من إنتاج دول الأوبك و1,47% من الإنتاج العالمي، كما أنها لا تمتلك إلاّ 1,21% من احتياطي دول الأوبك و0,94% من الاحتياطي العالمي.[19] رغم أن مساهمة قطاع الفلاحة وخاصة الصناعة تعتبر ضعيفة في تشكيل الناتج المحلي الإجمالي، إلاّ أن أهميتهما من حيث القدرة على تحقيق المداخيل والتراكم يفرض تنميتهما، وإن كان في بعض فروعهما فقط.

الفرع الثاني: هيكل القيمة المضافة خارج المحروقات: إن استبعاد تأثير قطاع المحروقات على هيكل القيمة المضافة يُظهر بشكل أفضل أهمية القطاعين الفلاحي والصناعي، وهذا ما يبيّنه الجدول الموالي:

الجدول 2: مساهمة الفلاحة والصناعة في القيمة المضافة خارج المحروقات

البيانات	2011	2012	2013	2014	2015
الفلاحة	13,9	14,8	15,7	15,6	15,9
الصناعة	7,8	7,6	7,4	7,4	7,4

المصدر: ONS: «les comptes économiques de 2001 à 2015» N° 750, Août 2016, P.26

تبقى مساهمة القطاع الفلاحي أفضل من القطاع الصناعي، حيث تحسّنت قيمته المضافة من 1183,2 مليار دينار إلى 1936,4 مليار دينار بين 2011 و2015، كما بلغ معدّل نموه 6,4% بين 2014 و2015 وبالتالي فهو يأتي في المرتبة الثانية من حيث خلق الثروة. يعتمد القطاع الفلاحي في الجزائر على الظروف المناخية، لهذا فالإنتاج الفلاحي يتميّز بالتذبذب الشديد، كما لا يضم القطاع سوى 5805 مؤسسة صغيرة ومتوسطة أي ما يمثل 1,1% من المجموع الكلي.[20] رغم ضعف مساهمة القطاع الصناعي التحويلي، إلاّ أن معدل نموه تحسّن سنة 2015 وأصبح 4,8% بعد أن كان 3 % سنة 2014، وكون القطاع الصناعي يدعم النمو في الأجل الطويل، وأفضل القطاعات مشاركة في السوق العالمية، يجعلنا نبحث عن ما يُشير إلى إمكانية تنميته حتى وإن كان في بعض الفروع، فالتخصّص اليوم أصبح في فروع معينة، وفي قطاعات سوقية محددة.

الفرع الثالث: هيكل القيمة المضافة للصناعات التحويلية: من أجل إظهار الأهمية النسبية للقطاع التحويلي، وفي سبيل البحث عن إمكانية تنميته، فإننا ننسبه فقط لنتائج القطاع الصناعي، وليس للنتائج الإجمالية للاقتصاد، والتي على أساسها يمكن الاستدلال على الصناعات ذات الأهمية ومنه التي يجب تنميتها. والجدول التالي يُبين مساهمته في القيمة المضافة الصناعية:

الجدول 3: هيكل القيمة المضافة للصناعات التحويلية

البيانات	2011	2012	2013	2014	2015
- الصناعات الحديدية والمعدنية*	19,32	18,25	18,22	17,34	18,23
- مواد البناء والزجاج	16,07	14,22	14,07	14,02	13,67
- الكيمياء والمطاط	11,42	11,08	11,37	10,63	10,50
- الصناعات الغذائية	49,80	49,88	50,0	51,58	51,91
- النسيج والألبسة	2,90	2,62	2	2,35	2,31
- الجلود والأحذية	0,56	0,49	2,51	0,55	0,40
- الخشب والفلين	3,79	3,44	0,46	3,12	2,94
			3,31		
مجموع الصناعات التحويلية (مليون دينار جزائري)	4654	5336	5706	6292	6813
	76,3	38,7	85,0	55,5	69,2

* الصناعات الحديدية والمعدنية والميكانيكية والإلكترونية والكهربائية.

المصدر: تم حسابها اعتمادا على بيانات

ONS : «les comptes économiques de 2001 à 2015» N° 750, Août 2016, PP.14-17.

من بين الصناعات التحويلية تعتبر الصناعات الغذائية الأفضل مساهمة في القيمة المضافة واستحوذت على معظمها، كما نجد أن مساهمتها في تحسّن مستمر، إذ بلغ معدل نموها 5,8 % للفترة 2014-2015. تأتي بعدها الصناعات الحديدية والمعدنية والميكانيكية والالكترونية والكهربائية والتي بلغ معدّل نموها 10,5% للفترة 2014-2015 [21]، ثم صناعة مواد البناء والزجاج.

عموما نجد أن الصناعات الغذائية، والمعدنية، ومواد البناء، والصناعات الكيميائية تعبّر عن إمكانيات أفضل من باقي الصناعات، ويمكن استغلالها في تحسين القيمة المضافة، والدخل خارج قطاع المحروقات من السوق الداخلية، وكذلك من السوق الخارجية، ما بجعلها أكثر مساهمة في الصادرات. وتعتبر سياسة التقشف، وتقليص حجم الواردات، التي تفرضها الحكومة في الظروف الراهنة، فرصة للصناعات الوطنية من أجل أن تتطوّر من حيث زيادة الاستثمارات، وتحسين جودة المنتجات، واكتساب حصص سوقية أكبر في السوق المحلية. ومنه، تخفيض تكاليفها وأسعارها.

ومنه، يمكن مبدئيا اعتبار الصناعات الغذائية، والمعدنية، ومواد البناء، والزجاج، والصناعات الكيميائية هي الصناعات التي يجب تطويرها لرفع عدد منتجاتها القابلة للتصدير، مادام أنها الأكثر مساهمة في تحقيق القيمة المضافة.

المبحث الثالث: هيكل الصادرات خارج المحروقات

رغم أن قيمة الصادرات غير النفطية ضعيفة جدا من حيث القيمة، إلاّ أن ذلك لا يعني أنه يوجد فقط عدد قليل من المنتجات المصدرة. إن فحص المنتجات المصدرة يسمح لنا بتمييز المنتجات ذات الصادرات المهمة مقارنة بغيرها.

المطلب الأول: تطوّر قيمة الصادرات خارج المحروقات: من أجل التحليل الدقيق للصادرات الجزائرية فإنه يجب استبعاد تأثير المحروقات، فمع أن نسبة الصادرات غير النفطية ضمن هيكل الصادرات كانت 6,16% في أحسن الأحوال، إلاّ أن ذلك لا يجب أن يُخفي تطوّر قيمتها، والجدول التالي يبين ذلك:

الجدول 4: تطور قيمة الصادرات خارج المحروقات للفترة 2000- 2016 الوحدة: مليون دولار أمريكي

البيانات	2000	2006	2007	2010	2013	2014	2015	2016
الصادرات خارج المحروقات	612	1184	1332	1526	2165	2582	2060	1780
% إلى إجمالي الصادرات	2,77	2,16	2,21	2,67	3,28	4.11	5,46	6,16

المصدر: تم حسابها من بيانات التجارة الخارجية للمديرية العامة للجمارك على موقعها www.douane.gov.dz/

رغم ضعف نسبة الصادرات خارج المحروقات إلاّ أن قيمتها عموما كانت تتطوّر، حيث ارتفعت من 612 مليون دولار سنة 2000 إلى 1,1 مليار سنة 2006، ثم إلى 2,1 مليار دولار سنة 2013 و2,5 مليار دولار سنة 2014 إلى 2,06 مليار دولار سنة 2015، أي بمعدل نمو سنوي متوسط مقدّر بـ 18% رغم انخفاض قيمتها في سنة 2016، يعني ذلك أنه يمكن تطويرها في حالة انتهاج سياسة صناعية وتجارية مناسبة.

إن الاعتماد على المحروقات في تحقيق الفوائض المالية، لا يعني عجز باقي القطاعات عن توليد تلك الفوائض في حالة تنميتها؛ فقطاع الصناعات التحويلية يضم عددا من الفروع والمنتجات التي لا تتميّز بنفس الوضع، لهذا فإن تحليل بنية الصادرات بشكل أدق على مستوى كل صناعة، يسمح بتحديد الفروع والمنتجات التي يمكن تنميتها، لتصبح صادرات مقبولة في الأسواق الدولية.

المطلب الثاني: تطوّر مساهمة الفلاحة وبعض الصناعات التحويلية المهمة في الصادرات: رغم ضعف قيمة الصادرات من دون المحروقات إجمالا، إلاّ أنّ التحليل على مستوى القطاعات، يُظهر أن بعضها يساهم أفضل من غيره، ويمكن الاعتماد عليها في ترقية الصادرات وتحسين المداخيل منها، وهذا ما يُظهره الجدول التالي:

الجدول 5: مساهمة الفلاحة وبعض الصناعات التحويلية في الصادرات خارج المحروقات الوحدة: مليون دينار جزائري

	2011		2012		2013		2014		2015	
	القيمة	%	القيمة	%	القيمة	%	القيمة	%	القيمة	%
الفلاحة والصيد	2721.7	1,93	3719,7	2,57	4981,9	3,38	4571,4	2,33	5519,2	2,99
ص.ح.م.م.ك	9549,9	6,79	6666,9	4,61	4692,7	3,18	3436,0	1,75	3784,7	2,05
مواد البناء والزجاج	2701,5	1,92	1837,0	1,27	2182,2	1,48	1656,5	0,84	1427,0	0,77
الكيمياء والمطاط	97454,5	69,36	110866,8	76,80	107644,9	73,83	164157,2	83,94	155111,1	84,17
الصناعات الغذائية	23837,1	16,97	21263,7	14,73	27644,9	18,79	21751,5	11,12	18440,9	10,00

المصدر: تم حسابها اعتمادا على بيانات

ONS: « Evolution des échanges extérieures de marchandises de 2005 à 2015 », collections statistiques N° 201, Série E : statistiques Economiques N° 88, 2016. P.97.

إن التحليل في مستوى أدق، يوضّح أن صناعة الكيمياء، والمطاط تسيطران على الصادرات خارج المحروقات بأكثر من 70% وهما صناعتان تحويليتان مهمتان في الأسواق الدولية، خاصة في بعض فروعهما. وعليه، فاستغلال النفط في منتجات تحويلية هو أفضل من تصديره مادة خاما، وهذا ما لم تستطع الجزائر تحقيقه بسبب ضعف المؤسسات الصناعية ضمن القطاع. تلي صناعة الكيمياء، الصناعات الغذائية التي شكّلت صادراتها أيضا نسبة مهمة من الصادرات غير النفطية، مع أن أهميتها تراجعت خلال الفترة الممتدّة بين2011-2015 لصالح الصناعات الكيميائية، رغم أن مساهمة الصناعات الغذائية في القيمة المضافة الصناعية كانت أكبر من صناعة الكيمياء والمطاط، إلاّ أن نسبة صادراتها كانت أقل، ويُفسر ذلك، أن منتجات القطاع مُوجهة توجيها أكبر للسوق المحلية وليس الخارجية عكس المنتجات الكيميائية. إن من بين أسباب صعوبة تصدير المنتجات الغذائية، ضعف جودتها، حيث أن السلطات العمومية لم ترفع من مستوى المتطلبات المعيارية، والحواجز، والشروط التقنية داخل السوق المحلية. فالمؤسسات الوطنية لم تكن مُجبرة على رفع مستوى جودة منتجاتها، وتكييفها للمعايير الدولية المفروضة. ومثالنا في ذلك؛ المعايير المطبقة في الصناعات الغذائية في المستوى العالمي، إذ تشكّل أهم عائق أمام دخول المنتجات الغذائية الجزائرية إلى عدد كبير من الأسواق الأجنبية.[22]

وتعاني المنتجات الفلاحية نفس المشكل؛ فضعفها من حيث الكميات المنتجة، والجودة يجعلها غير قادرة على التواجد في الأسواق الدولية، وهذا ما يُفسر تناقض نسبة مساهمتها في القيمة المضافة الإجمالية مقارنة بنسبة مساهمتها في الصادرات، فالصناعات الجلدية والنسيجية رغم ضعفها في تحقيق الثروة، إلاّ أن مساهمتها في الصادرات مجتمعة كانت أكبر من مساهمة القطاع الفلاحي. وتبقى الصناعات المعدنية ضعيفة على مستوى الصادرات، ما يُؤكد أن سعي الجزائر نحو تنمية الصادرات خارج المحروقات لم يُترجم فعليا من خلال تبني سياسة صناعية واضحة الأهداف والآليات، ولكن التحليل في مستوى المنتجات، قد يُظهر نتائج مختلفة.

المطلب الثالث: المنتجات الأكثر تصديرا خارج المحروقات وخارج المنتجات الأولية: إن التحليل في مستوى الصناعات، أظهر نتائج أفضل من التحليل في المستوى الكلي للقطاعات. وبالتالي، فإن التحليل في مستوى المنتجات، سيعطي نتائج أفضل من التحليل في مستوى الصناعات، وهذا ما سنحاول إظهاره من خلال الجدول 6.

الجدول 6: المنتجات الأكثر تصديرا خارج المحروقات خلال الفترة 2011-2015 الوحدة: مليون دينار جزائري

البيـــــانـــــات	2011	2012	2013	2014	2015
اللبن ومنتجات الألبان (ما عدا الزبدة والجبن)	59,6	174,4	389,9	313,4	260,9
الأسماك الطازجة ، مبردة أو مجمدة	19,9	18,5	118,5	96,0	126,9
القشريات والرخويات واللافقاريات المائية	396,7	378,4	321,6	426,9	491,2
الخضروات الطازجة والمبردة ، المصبرة والمجففة	676,6	1144,2	2097,8	697,3	1237,2
الفواكه (باستثناء البذور الزيتية) طازجة أو مجففة	1857,0	2080,7	2408,3	3048,5	3543,2
عصير الفواكه لا تحتوي على الكحول	114,4	39,2	62,6	113,5	235,3
سكريات والدبس والعسل	19596,2	16774,0	22110,5	17949,5	15328,2
منتجات ومحضرات غذائية	47,5	581,9	1226,9	506,9	538,1
الأسمدة الخام (ماعدا المنتمية للقسم 56)	9385,9	12009,4	7754,2	7504,0	9723,3
المنتجات الكيميائية غير العضوية وأكاسيد وأملاح	30108,8	35412,4	25279,5	48105,5	51516,5
أصباغ ودهانات ومنتجات ذات صلة	146,6	49,5	35,3	97,0	164,3
منتجات طبية وصيدلانية (ما عدا القسم 542)	2,1	3,0	98,7	12,3	18,8
أدوية للطب البشري والبيطري	66,1	138,4	179,9	134,3	234,2
أسمدة (ما عدا الأسمدة الخام)	707,3	740,9	2254,2	22867,2	42795,8
الصلال والجلود المحضرة	2342,8	1919,6	2090,9	2191,0	1748,8
منتجات من الفلين	374,1	261,4	217,9	303,2	263,8
ورق وورق مقوى مقطع	232,6	289,5	632,2	335,9	569,8
المنتجات المعدنية المصنعة	226,8	349,6	563,6	694,7	309,1
الزجاج	1983,8	1645,6	1839,0	1431,2	1377,4
الصلب والحديد الأسفنجي ، مسحوق الحديد والصلب	1032,2	1125,2	906,5	607,5	434,7
أجهزة وأدوات الهندسة المدنية والبناء	276,7	305,8	164,3	252,7	103,5
مضخات السوائل	28,6	54,5	26,9	8,5	26,6
أجهزة التدفئة والتبريد	72,2	60,5	61,9	16,6	12,1
مضخات (ما عدا السوائل) ضواغط الهواء والمراوح	99,6	60,3	73,3	42,2	68,7
معدات المناولة الميكانيكية وقطع	32,7	17,8	13,8	0,6	18,2
الصنابير والصمامات وما شابهها	31,8	44,7	93,1	55,5	33,8
أجهزة المعالجة الذاتية للمعلومات	22,7	15,2	15,4	11,8	8,6
أجهزة التلفزيون وإن كانت مركبة مع أجهزة أخرى	45,8	5,5	0,9	0,9	16,5
معدات الاتصالات السلكية واللاسلكية وأجزائها	83,0	21,65	3,5	61,2	13,9
أجهزة لإنتاج وتحويل الطاقة	3,5	4,4	2,4	6,1	0,5
آلات وأجهزة كهربائية	49,2	89,6	9,6	38,1	65,7
الطائرات والمعدات ذات الصلة	5,9	0,0	373,2	170,7	486,2
السفن والقوارب والهياكل العائمة	1,1	227,9	0,0	0,0	597,8
أجهزة وأدوات القياس والمراقبة	116,1	64,6	155,2	127,7	180,9
منتجات بلاستكية	170,8	290,9	359,6	195,5	186,7

المصدر: تم تجميع بياناته من

ONS « Evolution des échanges extérieures de marchandises de 2005 à 2015 », collections statistiques N° 201, Série E : statistiques Economiques N° 88, 2016. PP.125-133

رغم ضعف الصناعات الميكانيكية من حيث القيمة المضافة ، ومن حيث الصادرات ، إلاّ أن الجدول 6 يبيّن أن هناك العديد من منتجاتها هي محل تصدير ، كما أنها منتجات تكنولوجية ذات طلب مهم في الأسواق الدولية ، مثل: أجهزة إنتاج وتحويل الطاقة ، آلات وأجهزة كهربائية ، الطائرات والمعدات ذات الصلة ، السفن والقوارب والهياكل العائمة ، أجهزة وأدوات القياس والمراقبة. كما نلاحظ أن الصادرات من القطاع الصناعي ، هي أكثر من القطاع الفلاحي ، رغم أن هذا الأخير أظهر كفاءة أعلى من حيث القيمة المضافة. يُؤكد الجدول أنه لا يجب الحكم على أهمية القطاع في الصادرات من خلال دراسته كوحدة واحدة ، بل يجب النظر إلى فروعه ومنتجاته نظرة منفصلة ، لأن التصدير يخص المنتجات وليس

القطاع كله. ونجد أن الصادرات المهمة تنوّعت بالنسبة لكل القطاعات، ولكن تركزت تركيزا أكبر في الصناعات الغذائية، والصناعات الميكانيكية، والصناعات الكيميائية.

من خلال التحليل السابق تتأكد أن الصناعات الغذائية والصناعات الكيميائية وأيضا الصناعات الميكانيكية، هي الصناعات التي يجب تطويرها لدعم منتجاتها المصدرة، وأيضا رفع عدد المنتجات التي يجب تصديرها ضمن نفس الفروع، في حين كانت صناعة الزجاج ومواد البناء (والتي أظهرت كفاءة سابقا) كانت ضعيفة.

المبحث الرابع: المنتجات الدينامكية في الأسواق الدولية ودور الدولة في دعمها

أظهر التحليل السابق أن بعض منتجات الصناعات الغذائية، والميكانيكية، والكيميائية كانت أهم من غيرها من حيث القيمة، ولكن، هل تُظهر تلك المنتجات كفاءة في الأسواق الدولية؟ ومنه، يصبح دور الدولة هو دعم المنتجات المُصدرة عموما ولكن دعما خاصا بتلك التي تكون أكفأ في الأسواق الدولية، والتي يعني أنها استطاعت مواجهة المنافسة الدولية، ومنه الفروع الصناعية التي تنتمي إليها.

المطلب الأول: المنتجات الدينامكية في الأسواق الدولية: تقاس الكفاءة في الأسواق الدولية، أو ما يصطلح عليه بالكفاءة التجارية، بعدة مؤشرات منها؛ الميزة النسبية الظاهرة، ومعدل نمو الصادرات، ومعدل نمو حصة الصادرات في الصادرات العالمية.

الفرع الأول: الميزة النسبية الكامنة لبعض المنتجات المصدرة: في الأصل يتم حساب الميزة النسبية الظاهرة للمنتجات الجزائرية المصدرة، والمنسوبة إلى إجمالي الصادرات الوطنية والعالمية، ولكنها في بحثنا أظهرت أن عددا قليلا منها فقط يتمتّع بميزة نسبية، وهي المواد والمنتجات الأولية. استبدلنا مؤشر الميزة النسبية الظاهرة بالميزة النسبية الكامنة، إذ سنقارن صادرات المنتج بإجمالي صادرات الفرع الذي ينتمي إليه وليس بإجمالي الصادرات، لأن المنتج ينافس نفس المنتج داخل الفرع في المستوى الدولي وليس كل المنتجات. إن حساب الميزة حسب الصيغة المعدّلة يكشف بشكل أفضل عن المنتجات التي تتمتع بميزة نسبية كامنة، ومنه يمكن عدّها المنتجات ذات الأولوية في تنمية مزاياها التنافسية تنمية أكبر.

تعطى علاقة الميزة النسبية الكامنة كالتالي: حيث أن:

Potential Comparative Advantage : PCA

xiw، :xij هي صادرات المنتج بالنسبة للعالم وللبلد

$$PCA = \frac{xij/_{xkj}}{xiw/_{xkw}}$$

على التوالي.

xkj، xkw: هي صادرات الفرع بالنسبة للعالم وللبلد على التوالي.

نعرض في الجدول 7 بعض المنتجات التي تتمتع بميزة نسبية كامنة كما يلي:

الجدول 7: المنتجات المصدرة التي تتمتع بميزة نسبية كامنة

SH4	المنتجات	الميزة	SH4	المنتجات	الميزة
0403	مخيض اللبن والزبادي	15,02	5801	نسيج الأقمشة وقطيفة ، ، ،	62,53
1515	الدهون النباتية وجزئياتها	5,11	6304	منتجات التأثيث	2,95
1703	دبس تكرير السكر	21,03	6303	ستائر خارجية وداخلية	1,046
1804	زبدة الكاكاو	8,96	6301	أغطية	7,82
1902	المعكرونة والكسكسي	4,55	6405	الأحذية	7,36
2009	الفاكهة والخضار ، عصائر	1,62	6406	أجزاء من الأحذية	5,39
2002	طماطم محضرة ومصبرة	2,17	6809	منتجات من الجص	8,38
2005	فواكه أخرى محضرة ومصبرة	1,13	6908	البلاط ، الفسيفساء	1,98
2202	مياه م. مياه غازية مسكرة	4,77	6910	أحواض ، حمامات	3,68
2403	بدائل التبغ المصنعة وغيرها	1,60	7005	تقويم الزجاج ، ، ،	5,43
2401	التبغ غير المصنع	1,73	7013	زجاجيات المائدة	1,041
3004	مخاليط دواء في جرعة	1,04	7207	أنصاف من الحديد أو الصلب	1,22
3003	مخاليط دواء ليست في جرعة	1,49	7210	منتجات مطلية من حديد	1,145
3102	أسمدة أزوتية معدنية	2,56	7304	أنابيب مجوفة حديد أو صلب	2,06
3307	مستحضرات التجميل ، ، ،	2,45	7305	أنابيب وخراطيم أخرى	3.85
3303	عطور الحمامات	2,12	8207	الأدوات اليدوية والميكانيكية	2,51
3301	الزيوت العطرية	6,21	8307	أنابيب مرنة من معادن عادية	13,20
3401	الصابون ومواد الغسيل	3,22	8431	أجزاء آلات ، ، ،	7,60
3814	مزيلات الطلاء	14,06	8413	مضخات السوائل ، ، ،	1,38
3923	منتجات التعبئة والتغليف	5,32	8421	أجهزة الطرد المركزي ، ، ،	1,13
3920	شرائط البلاستيك	1,10	8415	مكيفات الهواء	1,45
4011	إطارات هوائية مطاطية	2.15	8481	حنفيات والأنابيب ، ، ،	1,31
4012	الإطارات الصلبة	1,23	8477	آلات استعراض المفصل	1,95
4013	الأنابيب الداخلية مطاطية	1,88	8425	رافعات ، بكرات ، ، ،	4,33
4105	جلود الأغنام وغيرها من الجلود	31.21	8412	محركات أخرى ، ، ،	3,81
4503	جلود الأغنام المدبوغة	1,425	8414	مروحة الهواء ومضخات ، ، ،	1,18
4501	الفلين الطبيعي	1,38	8411	توربو الطائرات وأخرى	1,50
4502	ألواح الفلين الطبيعي	1,35	8422	غسالات الأطباق ، ، ،	2,20
4819	صناديق تعبئة من ورق مقوى	3.52	8424	تطبيقات ميكانيكية ، ، ،	5,01
4823	الورق المقوى ،ورق الترشيح	3,28	8447	آلات النسيج	1,14
4820	سجلات ، دفاتر الطلبات	2,64	8474	آلات الفرز المنتجات المعدنية	1,01
4818	ورق الحمام ، المناديل ، ، ،	1,66	8438	آلات إعداد الأطعمة والمشروبات	2,89
5705	سجاد وأغطية الأرضيات	10,31	8506	البطاريات الأساسية	12,09
8716	مقطورات وشبه مقطورات	2,65	8536	أجهزة للتحويل ، ، ، ،	1,20
8702	سيارات النقل الجماعي للأشخاص	8,82	8544	أسلاك معزولة	8,61
8704	شاحنات نقل البضائع	1,60	8507	مراقم كهربائية	3,17
8803	قطع غيار الطائرات	1,89	8511	محركات ، شمعات الإشعال	1,38
9028	إمدادات الغاز و الكهرباء	7,11	8502	مجموعات توليد الكهرباء	5,27
9015	أدوات للأرصاد الجوية ، ، ،	33,68	8515	الليزر ، شعاع الفوتون ، ، ،	2,84
9026	أجهزة قياس الغازات ، ، ،	1,30	8548	أجزاء من الآلات الكهربائية	31,88
9014	بوصلات الاتجاه ، ، ،	1,25	8609	حاويات الشحن	1,44
9023	آلات وأجهزة لأغراض توضيحية	1,86	8701	جرارات	6,08
9405	قطع غيار مركبات بالمحركات	1,29	8708	مصابيح وأجهزة إنارة	2,59

المصدر: تم حساب الميزة بالاستناد إلى الصيغة السابقة وبيانات التجارة الدولية من موقع مركز التجارة الدولية

http://tradecompetitivenessmap.intracen.org/TP_TP_CI.aspx

يوضح الجدول أن هناك الكثير من المنتجات التي تتمتع بميزة كامنة، إذ تتميّز تلك المنتجات، ورغم ضعف قيمة صادراتها، بأنها مهمة في مستوى الفرع الذي تنتمي إليه في الأسواق الدولية. إن رفع قيمة صادرات تلك المنتجات بتشجيع المؤسسات على التصدير أكثر، سيرفع من قيمتها. ومنه، تتحسّن قيمة الصادرات خارج المحروقات. حين تشمل المنتجات ذات الميزة الكامنة منتجات مهمة ضمن الصناعات الميكانيكية، مثل؛ شاحنات نقل البضائع، قطع غيار الطائرات، إمدادات الغاز والكهرباء، أدوات للأرصاد الجوية، أجهزة قياس الغازات، بوصلات الاتجاه، مجموعات توليد الكهرباء، أجزاء من الآلات الكهربائية، قطع غيار مركبات بالمحركات وغيرها، وهي منتجات دينامكية في التجارة الدولية، لأنها ذات محتوى تكنولوجي متوسط وعال. كما تضم الصناعات الكيميائية والصناعات الغذائية أيضا منتجات عديدة ذات ميزة كامنة، يمكن دعم مكانتها في الأسواق الدولية، ومنه زيادة قيمة صادراتها.

الفرع الثاني: معدل نمو الصادرات ومعدل نمو حصة الصادرات: يشير معدّل نمو الصادرات إلى جهود المؤسسات لزيادة قيمة صادراتها من ناحية، وإلى تقبّل الأسواق الدولية لتلك المنتجات من ناحية أخرى. ويقاس معدل نمو الصادرات بتغيّر قيمتها خلال خمس سنوات، ويُحسب المعدّل بالمعادلة التالية:

$$\left(\left(\frac{x_{di}^{t}}{x_{di}^{t0}}\right)^{1/t-t0} -1\right)*100$$

حيث أن:

x: قيمة الصادرات للبلد d للصناعة (المنتجات) i

to: السنة الأولى

t: السنة الخامسة

ويشير معدّل نمو الحصة في الصادرات العالمية إلى أهمية الصادرات حصةً وليس قيمةً في الصادرات العالمية، وبالتالي تحسّن التنافسية في الأجل الطويل، لأنه قد تزيد قيمة الصادرات ولكن تتراجع حصتها من الصادرات العالمية. ويؤكّد معدل نمو حصة الصادرات على المزايا التي يملكها المنتَج، وبالتالي قوته التنافسية. كما يُقاس معدّل نمو حصة الصادرات لمدة خمس سنوات بالمعادلة التالية:

$$\left(\left(\frac{x_{di}^{t}}{x_{wi}^{t0}}\right)^{1/t-t0} -1\right)*100$$

حيث أن:

x_{di}: حجم الصادرات للبلد d للصناعة (المنتجات) i

x_{wi}: حجم الصادرات العالمية للصناعة i

to: السنة الأولى

t: السنة الخامسة

يوضّح الجدول التالي المعدلّين بالنسبة لبعض المنتجات المصدرة.

الجدول 8: معدل نمو الصادرات ومعدل نمو حصة لبعض الصادرات الجزائرية 2015

SH4	المنتجات	معدل نمو الصادرات	معدل نمو الحصة في الصادرات العالمية
0403	مخيض اللبن والزبادي	45	47
0401	ألبان وقشدة مركزة ومحلات	63	67
2007	مربى البرتقال	37	33
2009	الفاكهة ، الخضار ، عصائر	10	14
2106	محضرات غذائية	35	31
2005	فواكه أخرى محضرة ومصبرة	45	40
2209	الخل بدائل الخل	6	4
3004	مخاليط دواء في جرعة	29	29
3006	منتجات صيدلانية ، ، ،	50	49
3102	أسمدة أزوتية معدنية	64	60
2515	الرخام والحجر الجيري	25	38
2517	حجارة وحصى موجهة للبناء	20	19
6908	السيراميك ، البلاط والفسيفساء	197	192
8531	أجهزة كهربائية للتطبيقات الصوتية والبصرية	4	1
8537	ألواح متعددة المفاتيح	38	33
8512	إضاءات كهربائية للمساحات	21	13
8544	كابلات وأسلاك معزولة	15	13
8542	الدوائر المتكاملة إلكترونية	13	7
8539	مصابيح كهربائية	239	301
8523	دعائم وسائل الإعلام لتسجيل الصوت	51	55
8543	آلات وتجهيزات كهربائية ، ،	68	68
9030	أجهزة تحليل الطيف	62	62
9032	أدوات تنظيم السيطرة التلقائية	54	55
9026	قصب السكر ، الشمندر	21	18
1704	سكريات متنوعة	38	36
1702	عجائن غذائية كسكس	126	123
1902	محضرات من الدقيق والنشاء وخلاصة الشعير	84	82
1901	آلات ذات وظائف فردية ، ،	114	108
8479	محركات أخرى ، ، ،	32	34
8412	قطع غيار أجهزة الكمبيوتر ، ،	37	38
8482	معدات العجلات غير كهربائية	23	27
8467	الآلات والمعدات المخبرية ، ، ،	157	158
8419	قطع غيار مركبات بالمحركات	11	11
8708	أجزاء من الطائرات	90	89
8803		179	166

المصدر: تم تجميع بيانات المعدّلين (ولم يتم حسابهما) من موقع مركز التجارة الدولية

http://www.trademap.org/Product_SelProductCountry.aspx?nvpm

يُظهر الجدول العديد من المنتجات التي تتمتع بمزايا تنافسية ، وقادرة على المواجهة في الأسواق الدولية ؛ فعادة ما يعكس مستوى تطوّر الاقتصاد نوع المنتجات المصدرة ، وبالتالي نجد أن معظم المنتجات المُصدرة من طرف الجزائر - الدولة النامية -هي منتجات بسيطة وضعيفة المحتوى التكنولوجي ، ومع ذلك هناك منتجات مهمة تنتمي للصناعات الميكانيكية والإلكترونية والكهربائية. وتزيد أهمية المنتجات إذا كانت موجودة في أسواق توسعيّة ، أي ؛ في الأسواق التي يكون فيها الطلب على تلك المنتجات متزايدا.

إذا فالصناعات الأولى بالتطوير من أجل رفع قيمة صادراتها، هي بعض فروع الصناعات الغذائية، والصناعات الميكانيكية، وصناعة مواد البناء، والتي كانت منتجاتها دينامكية. ورغم أن صادرات الصناعات الكيميائية كانت

مهمة في الصادرات الجزائرية، إلاّ أن أهميتها تراجعت في الأسواق الدولية، إلاّ في بعض المنتجات مثل الأسمدة.

المطلب الثاني: دور الدولة في دعم الفروع المهمة لتنويع الاقتصاد والصادرات

يتمثل دور الدولة من أجل التنويع في الصادرات، وتقليل الاعتماد على النفط لتحقيق المداخيل في اتخاذ مجموعة من السياسات التي تكون كفيلة بتحقيق الهدف. حيث يجب أن تصب تلك السياسات الجزئية في دعم الصناعات الوطنية لتحسين تنافسيتها. وإن أهم تلك السياسات حسب ما تم التطرق إليه في المبحث الأول، تتمثل فيما يلي:

- استهداف الفروع الإنتاجية المهمة التي تم تحديدها في هذه الدراسة عن طريق تشجيع الاستثمار فيها من خلال تحسين مناخ الاستثمار.
- تحسين المستوى التكنولوجي الذي يسمح بخلق دينامكية ابتكاريه في الفروع المستهدفة.
- تثمين رأس المال البشري في القطاع الإنتاجي للرفع من مستوى إنتاجيتها.

الفرع الأول: الاستهداف القطاعي وتشجيع الاستثمارات: حسب هذا البحث، يجب استهداف المنتجات التي تمت دراستها واستهداف الصناعات المرتبطة بها، لتكون ذات أولوية لتنمية الصادرات. ويكون الاستهداف عن طريق توجيه الاستثمارات للفروع المختارة، وتوفير الحماية لها لدعم الصادرات، وتوفير المناخ المناسب من أجل رفع إنتاجيتها، وذلك بتوجيه وتفعيل المحدّدات المهمة خاصة التكنولوجيا، والعمالة الماهرة لخلق مزايا تنافسية وطنية، وجعلها أكثر تنافسية في الأسواق الدولية. ولكن، حتى يكون الاستهداف صحيحا فإنه لا يجب اختيار القطاعات أو الصناعات أو الأنشطة على أساس انخفاض أسعار عوامل الإنتاج من أجل تحقيق التنافسية السعرية، أو تلك التي تكون معرّضة للزوال نتيجة لتدهور مكانتها في التجارة الدولية[23]، بل على أساس المحدّدات التي تضمن تحقيق مزايا تنافسية مستدامة وهي التكنولوجيا ورأس المال البشري.

وتمثّل المؤسسات المصغرة (والتي تشغل أقل من 10 عمال) 90% من النسيج الصناعي الوطني. ويتركّز معظمها في قطاع التوزيع. ومفتاح التنمية يكمن في كمية ونوعية المؤسسات التي تعمل داخل الاقتصاد،[24] ولهذا يحتاج الاقتصاد الجزائري من أجل خلق نسيج صناعي، وقاعدة إنتاجية تشجيع خلق المؤسسات التي تساهم في زيادة المداخيل، وخلق الثروة داخل السوق المحلية أو من خلال الأسواق الخارجية. ولا يتعلق تشجيع الاستثمار بالاستثمارات المحلية فقط، فالتأثيرات الإيجابية للاستثمارات الأجنبية المباشرة من حيث نقل التكنولوجيا، وتأهيل العمالة المحلية تعتبر جد مهمة. إن المشاريع المشتركة أو المملوكة بالكامل للأجانب وعند إقامتها في محيط جغرافي اقتصادي معين، ستخلق حولها أو تكون ضمن مجموعة شركات محلية تتعامل معها سواء في مجال التعاقد من الباطن لإنجاز بعض الأنشطة، أو من خلال التعامل مع موردين محليين ومتعاملين آخرين والذين سيكتسبون الخبرة في مجال الخضوع للشروط، والمعايير الدولية والأكثر صرامة من المعايير المحلية، مما يسمح لهم بزيادة فعاليتهم وكفاءتهم.

وتُعدّ الجزائر من دول المغرب العربي التي عرفت تحسينات مهمة في مناخ الأعمال لسنة 2017 لهذا اكتسبت 6 مراكز في الترتيب مقارنة بسنة 2016، مع أنها تبقى في مراكز متأخرة، إذ احتلت المرتبة 156 من مجموع 190 بلد.[25]

ومن بين التحسينات التي عرفها مجال الاستثمار؛ تشجيع بعض الفروع الصناعية منها: -صناعة الحديد والتعدين — اللدائن الهيدروليكية — التجهيزات الكهربائية والكهرومنزلية -الكيمياء الصناعية — الميكانيك وقطاع السيارات — الصيدلة — صناعة الطائرات — بناء السفن وإصلاحها — التكنولوجيا المتقدمة — صناعة الأغذية وغيرها، وذلك من خلال:

- إعفاءات مؤقتة لمدة 5 سنوات من الضريبة على أرباح الشركات، والضريبة على الدخل الإجمالي -الإعفاء من الرسم على النشاط المهني -منح تخفيض قدره 3 % من نسبة الفائدة المطبقة على القروض البنكية - إعفاءات من الرسم على القيمة المضافة والحقوق الجمركية على التجهيزات المتعلقة بالبحث والتطوير التي يتم اقتناؤها، وعلى استثمارات البحث والتطوير التي يُنجزها القطاع الصناعي.

كما تضمن قانون الاستثمار لسنة 2016 [26] تدابير إضافية تتعلق معظمها بإعفاءات جبائية منها: -الإعفاء من الحقوق الجمركية التي تدخل مباشرة في إنجاز الاستثمار -

إعفاءات من الرسم على القيمة المضافة فيما يخص السلع والخدمات المستوردة والمقتناة محليا والتي تدخل مباشرة في إنجاز الاستثمار -الإعفاء لمدة 10 سنوات من الرسم العقاري على الملكيات العقارية التي تدخل في إطار الاستثمار من تاريخ الاقتناء ، وغيرها من الإجراءات التشجيعية.

إن تطبيق السياسات السابقة كفيل بتنمية الصناعات المستهدفة لأجل تنويع الاقتصاد. ومنه ، تنويع الصادرات والمداخيل ، وبالتالي فك الارتباط بقطاع المحروقات الذي يُلقي بانعكاساته السلبية على الاقتصاد الجزائري ، كلما انخفضت أسعاره في الأسواق الدولية.

الفرع الثاني: بناء قدرات تكنولوجية: يعدّ البحث العمومي الأكاديمي والتطبيقي نتاج إدارة فرق البحث من جهة ، وإدارة الدولة من جهة أخرى. لهذا فإن تدخّلها يجب أن يكون في المستوى الكلي ، أي ؛ يجب أن تكون سياسة التنمية التكنولوجية والابتكار الوطني ضمن الأولويات الوطنية ، ومنه يستلزم من أجل الوصول إلى الأهداف أن تكون تلك السياسة طويلة المدى ، فالنظرة المستقبلية يجب أن تحقق الأهداف التالية: [27]

- تحديد الأهداف بوضوح للخطط المرغوبة للتنمية التكنولوجية والقابلة للتحقيق في المستقبل.

- تجميع الشركاء المعنيين بالتنمية التكنولوجية في شبكة فعّالة لتحويل الخطط إلى واقع.

ويكون تحقيق التنمية التكنولوجية من خلال توفير بنية تحتية تكنولوجية وضمان انتشارها داخل الاقتصاد ، كما سيتم توضيحه:

أولا: توفير بنية تحتية تكنولوجية: يعدّ تطوير البني التحتية التكنولوجية ، والعلمية مهمّا من أجل رفع مصادر عرض المعارف المتقدمة ، وتكون تلك البنى مادية مثل: أقسام البحث ، والمخابر داخل الجامعات ، ومراكز البحث المتخصّصة ، وتوفّر أجهزة وأدوات البحث...الخ ، وغير مادية مثل: الحظائر العلمية ، والأقطاب التكنولوجية ، والحاضنات[28]. ويتمثل هدف تلك الأقطاب والحظائر في تقديم مكان مشترك للمساعدة على إقامة المشاريع ، وخلق المؤسسات المبتكرة ، وتثمين أعمال ونتائج البحوث ونشرها بمساعدة التنظيمات العمومية ، أو الخاصة للبحث ، وأيضا الجامعات. وتعدّ الشركات التي تنتمي إلى الحظائر العلمية أكثر توجها نحو الابتكار وأكثر إنتاجية من الشركات الأخرى.

ثانيا: ضمان انتشار التكنولوجيا داخل الاقتصاد: لا يكفي أن يتم إنتاج التكنولوجيا في مراكز البحث ، بل يجب نشرها لتستفيد منها الصناعة وكامل الاقتصاد. ويتم هذا النشر من خلال: [29]

- اتفاقيات التعاون بين الجامعات والمؤسسات الصناعية ؛ حيث تنشئ بعض الدول "**صناديق دعم الصناعة**" لتحقيق هدف نقل التكنولوجيا من الجامعات ، ومراكز البحث إلى الصناعة بإيجاد تطبيقات لها ، لحل بعض مشاكل القطاع الصناعي ، أو في شكل منتجات جديدة أو مُطوّرة يستفيد منها كل المجتمع.

- وجود هيئات ، ومؤسسات لتنظيم وتسهيل عملية النقل من الجامعات ومراكز البحث إلى الصناعة.

الفرع الثالث: تثمين رأس المال البشري في القطاع الإنتاجي: يرتبط تثمين رأس المال البشري مباشرة بالقطاع الإنتاجي ، وبسوق العمل الذي يعدّ حلقة الوصل بينهما. والقطاع الإنتاجي في الجزائر يعاني من تسرب كبير لرأس المال البشري (الخارجي والداخلي)[30].

- الخارجي: ويتمثل في الكفاءات التي تهاجر أو التي لا تعود بعد استكمال تكوينها ، والمرتبط خاصة بالكفاءات الجامعية ؛

- الداخلي: ويرتبط بعدم تثمين رأس المال البشري الموجود (داخليا) ضمن القطاع الإنتاجي.

أولا: التسرّب الخارجي للكفاءات: تشير مختلف الإحصائيات إلى العدد الكبير للكفاءات الجزائرية المهاجرة إلى الخارج ، كما تُصنف الجزائر من بين الدول الأكثر فقدانا لكفاءاتها. وتتراوح نسبة الفقدان بين 4 %و8% من الكفاءات التي تتجه فقط إلى دول منظمة التعاون الاقتصادي ، وقد قُدر عدد المهاجرين الجزائريين سنة 2013 بـ 1.763.789 مهاجر.[31] يؤثر التسرّب الخارجي لرأس المال البشري على الجانب الاقتصادي من حيث خسارة الإنفاق على التعليم ، وخسارة عدم استغلال المخرجات في النشاط الاقتصادي وفي المجال البحثي. فهجرة الكفاءات تمكّن الدول المستقبلة من

تقوية رصيدها العلمي على حساب الدول الموفدة. إن تزايد عدد المهاجرين من ذوي الكفاءات سيُفقد الاقتصاد إمكانياته في بناء قدراته العلمية ، والإنتاجية وبالتالي التنافسية ، هذا ما يستلزم توفير عوامل الجذب لعودة تلك الكفاءات ؛ رغم أن الجزائر تكوّن النخبة إلاّ أنها لا تستطيع الاحتفاظ بها ، فالحكومة هي المسؤول الأول عن هذا النزيف ، وهي عاجزة عن التكفّل بالشباب المتميزين ، والاستثمار في قدراتهم. وإذا كانت الجزائر لا تتحكّم في التسرب الخارجي ، فهل استغلت ما تبقى على المستوى الداخلي ؟

ثانيا: التسرّب الداخلي للكفاءات: يمكن أن نستدل على التسرّب الداخلي من خلال مؤشر البطالة حسب مستوى التأهيل ، والجدول التالي يُظهر ذلك:

الجدول 9: توزيع البطالين حسب المستوى التعليمي للفترة 2010-2016 الوحدة: %

البيانات	2015	2016
دون مستوى تعليمي	3,6	2,6
ابتدائي (ملم بالقراءة والكتابة)	7,7	6,8
متوسط	13,4	10,6
ثانوي	10,1	9,5
جامعي	14,1	16,7

المصدر: جدول مركب.

ONS : Activité, Emploi, Chômage. Septembre 2015, N° 726.

ONS : Activité, Emploi, Chômage. Septembre 2016, N° 763.

يُظهر الجدول أن مستوى بطالة الأفراد الذين هم في مستوى التعليم الجامعي أعلى منه بالنسبة للثانويين ، وذوي التعليم المتوسط. وترتفع نسبة بطالة الجامعيين بالنّظر إلى من هم دون أي تعليم ، أو في المستوى الابتدائي. يعني ذلك ؛ أنه كلما ارتفع المستوى التعليمي كلما كانت فرص التشغيل أقل ، وهو ما يؤكد عدم الترابط بين النظام التعليمي والقطاع الإنتاجي ، مما يؤدي إلى انخفاض عائدات اكتناز المهارات بوجود عمال ذوي مهارات عالية دون توفر عمل لهم. إن نسبة 11,7% إلى 16% من الجامعيين المشغلين بين 2010 و2013 [32] ، تفسّر ضعف مستوى الأنشطة الاقتصادية الموجودة. كما تلخّص الوضعية السابقة عدم التوافق والتناقض بين سعي الجزائر إلى تخريج عدد كبير من المؤهلين علميا ، وعدم قدرتها على الاستفادة منهم في تنمية الاقتصاد. إن من أهم أسباب ذلك الوضع عدم مواءمة التكوين لحاجات المؤسسات (سوق العمل) ، ويظهر ذلك من خلال ارتفاع بطالة الجامعيين في الوقت الذي تجد فيه المؤسسات صعوبة في الحصول على عمالة مؤهلة ، تساهم في تحسين تنافسيتها. إن نسبة المؤسسات الجزائرية التي تعاني من عجز في الكفاءات بلغت 37% سنة 2007 ، وهي من أعلى النسب في الدول العربية [33] فمن خصائص مخرجات التعليم الجامعي وجود فارق بين المكتسبات العلمية ، وما هو مجسّد في الواقع التطبيقي ؛ نظرا لنقص التطبيق ، كذلك لعدم اهتمام الطالب بالتحصيل العلمي بقدر اهتمامه بالشهادة التي تؤهله للحصول على وظيفة.

الخاتمة: إن البحث عن كيفية تنويع الصادرات لا يجب أن ينطلق من وضع الآليات التي تشجع المؤسسات على التوجّه نحو التصدير ، بل يجب أن ينطلق من تحديد الفروع ، ومنتجاتها التي تحقق كفاءة في السوق المحلية (القيمة المضافة) وفي الأسواق الخارجية (الدينامكية). وكان ذلك منطلق البحث. وعليه ، فقد خلص إلى **النتائج** التالية:

- يعتبر القطاع الفلاحي في المرتبة الثانية بعد المحروقات من حيث خلق الثروة ، ومع ذلك فإن مساهمته في الصادرات خارج المحروقات كانت ضعيفة ؛
- تساهم الصناعات الغذائية ، والصناعات الميكانيكية ، وصناعة مواد البناء ، والزجاج ، والصناعات الكيميائية مساهمة كبيرة في القيمة المضافة الصناعية من باقي الصناعات.

– تنتمي معظم أهم المنتجات المُصدرة إلى الصناعات الغذائية ، والصناعات الكيميائية ، والصناعات الميكانيكية.

– تتنوّع الصادرات الدينامكية في الأسواق الدولية بين مختلف الصناعات ، ولكن تتركّز في الصناعات الغذائية ، والصناعات الكيميائية ، والصناعات الميكانيكية.

ومنه ، فإن النتيجة العامة التي تُجيب على سؤال الإشكالية ، **هي أن تنمية الصادرات خارج المحروقات، والمواد الأولية لن يكون بالاستناد إلى قطاع معيّن، إذ تشمل جميع القطاعات منتجات مهمة، وفروعا إنتاجية مهمة سواء من حيث القيمة المضافة، أو من حيث قيمة الصادرات، أو من حيث تنافسيتها في الأسواق الدولية. ومع ذلك نجد أن معظم المنتجات المهمة تنتمي لفروع الصناعات الغذائية، والصناعات الكيميائية، والصناعات الحديدية، والمعدنية، والميكانيكية، والالكترونية، والكهربائية**. وتؤكد هذه النتيجة صحة الفرضية ؛ حيث أن البحث أكد وجود فروع إنتاجية ، ومنتجات يمكنها المساهمة في تنويع صادرات الاقتصاد الجزائري. والأكيد أنّ بحثا أكثر توسّعا ، سيُظهر عددا أكبر من الفروع والمنتجات.

ومن أجل تثمين فروع الصناعات السابقة نقدم **المقترحات** التالية:

- تبدأ تنمية القطاع الصناعي بضرورة إحداث التوازن بين الاستثمار في قطاع المحروقات والقطاع التحويلي.

- إن تنويع الصادرات لن يكون إلاّ بتنويع الإنتاج ، ولأنه من الصعب تحقيق الكفاءة في جميع القطاعات فإن الفروع التي يجب استهدافها هي تلك التي تحقق قيما مضافة عالية ، حيث تشكّل منتجاتها صادرات محتملة. ومنه ، يجب استهداف الفروع والمنتجات التي تمّ تحديدها في هذه الدراسة.

- إنّ زيادة عدد المنتجات المصدّرة ، يجب أن يكون برفع حجم الإنتاج الوطني من خلال دعم المؤسسات الرائدة في الفروع المستهدفة لتكثيف الإنتاج ، ورفع القدرات الإنتاجية ، ومنه حجم الصادرات ، وكذلك تسهيل الاستثمار بخلق مؤسسات جديدة من خلال تحسين بيئة الأعمال وتشجيع المنافسة بينها لإكسابها كفاءة ومزايا تنافسية.

- تنمية الأنشطة والفروع الداعمة للفروع المستهدفة لضمان إطار متكامل لبناء قدراتها الإنتاجية ، نحو تنمية بعض المنتجات الفلاحية الضرورية لبعض فروع الصناعات الغذائية.

- جذب الاستثمارات الأجنبية ، وتوجيهها نحو الفروع التكنولوجية التي تحتاج إلى التكنولوجيات الحديثة ، وإلى تطوير أنشطتها ، وأيضا اكتساب المهارات العالية ، مثل فروع الصناعات الميكانيكية ، والكهربائية التي يجب إعادة بعث نشاطها خاصة من خلال المشاريع المشتركة.

- تثمين المبادرات الفردية في الابتكار ، والتطوير في القطاع الإنتاجي ، ليس فقط من خلال التقريب بينها في المعارض ، ولكن بتقديم الدعم المادي للمؤسسات التي تتبنى فعلا تلك الابتكارات وتحوّلها إلى منتجات جديدة.

- اهتمام المؤسسات الوطنية بتأهيل عمالها واطلاعهم على المعارف والتقنيات الحديثة باستمرار ، خاصة في المراكز والمعاهد المتخصّصة.

الهوامش

1. DIRECTION GENERALE DES DOUANES : « Statistiques du commerce extérieures de l'Algérie, période Année 2015 », P9. Sur le site http://www.douane.gov.dz consulté le 15 Mai 2017.

2. BANQUE D'ALGERIE: « Rapport Annuel 2015, Evolution économique et monétaire en Algérie ». Novembre 2016. P 61.
3. NEZEYS, Bertrand. (1994): « les politiques de compétitivités ». Ed. Economica, Paris, p68.

4. BOREL, F-X ; THEMEJIAN, k ; VELAY, P. «Débats récents de la politique commerciale stratégique ». Séminaire de politique commerciale internationale, Université Lumière, Lyon2, 2002/2003
5. - KRUGMAN, P. et autres (2009) : « Economie internationale ». 8ème édition, Ed. Pearson Education, France. pp 272,257.
6. - COHENDET, P.(2003) « Innovation et théorie de la firme » dans : encyclopédie de l'innovation. Economica. Paris. P.386
7. BOREL, F-X ET Autres. Op.Cit. P 37.
8. - NEZEYS, B. Op.Cit. P 69.
9. PORTER M E (1990): « L'avantage concurrentiel des nations ». Ed Inter Edition, 1990, Ed Française 1993, Paris. P.655.
10. PORTER M E. Op.Cit.

11. UNIDO (2013): The Industrial competitiveness of Nations. Competitive Industrial performance, Report 2012/2013. P5.
12. أحمد الكوّاز: "السياسات الصناعية". مجلّة سلسلة جسر التنمية ، العدد الثالث ، 8 فيفري 2010 ، ص ص 9-19.
13. UNIDO (2016) : « Rapport sur le Développement Industriel ».p33.
14. محمد عدنان وديع (2003) "القدرة التنافسية وقياسها". جسر التنمية العدد 24 ديسمبر ، إصدار المعهد العربي للتخطيط الكويت.ص ص1-16.
15. بن حمودة سكينة: "الصادرات الجزائرية خارج المحروقات". مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة قسنطينة ، العدد 14 ، 2000 ، ص ص 209-218.
16. عجة الجيلالي: "التجربة الجزائرية في تنظيم التجارة الخارجية من احتكار الدولة إلى احتكار الخواص". دار الخلدونية ، الجزائر ، 2007 ، ص203. عن الميثاق الوطني لسنة 1986 ، ص42.
17. Ministère des Finances : «Le Nouveau modèle économique de croissance ». www.mf.gov.dz/ consulté Mai 2017

18. BANQUE D'ALGERIE: Rapport Annuel, Evolution économique et monétaire en Algérie 2014. Juillet 2015 P 26.

19. تم حسابها من معطيات: "التقرير الاقتصادي العربي الموحد". جامعة الدول العربية ، 2016 ، ص 462-464.
20. ¨ BANQUE D'ALGERIE: Rapport Annuel 2015. Op.Cit. 31-33.
21. ¨BANQUE D'ALGERIE: Rapport Annuel 2015. Op.Cit. 37-39.
22. ¨HARBIA, A. : » La compétitivité de l'entreprise algérienne en jeux. ». Revue, Economia, 4 Avril, 2009. www.andpme.org.dz
23. ¨NEZEYS, B. Op.Cit. P69-71.
24. ¨ LAMIRI, A.: « La décennie de la dernière chance, émergence ou déchéance de l'économie algérienne ? ». Ed. CHIHAB, Algérie, 2013.
25. ord bank group: « Doing Business, Equal opportunity for all ». 2017. P.5.
26. القانون رقم 16-09 المتعلق بترقية الاستثمار المؤرخ في 3 أوت 2016 ، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، العدد 46.

27. COMMISSION ECONOMIQUE DES NATION UNIES POUR L'EUROPE: » Recueille des bonnes pratiques permettant de promouvoir un développement fondé sur le savoir ». Nations Unies, New York, Genève. 2008. p.4
28. MADIES, T. et PRAGER, J-C. : « Innovation et compétitivité des régions ». Ed. La documentation française. Paris. 2008. P.90
29. أحمد أبو الهجاء: "نقل العلوم والتكنولوجيا من الدول المتقدمة وأثره على النهضة العلمية ضمن: العلوم والتكنولوجيا في الوطن العربي ، الواقع والطموح. إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ومؤسسة عبد الحميد شومان ، الأردن. 2002 ، ص 323-344.

30. DJEFLAT, A : » L'Algérie, du transfert de technologie à l'économie du savoir et de l'innovation : trajectoire et perspectives ». Les cahiers du Cread, N° 100, 2012. pp. 71-94.
31. جامعة الدول العربية: "التقرير الإقليمي للهجرة الدولية ، الهجرة الدولية والتنمية". 2014 ، ص 14.
32. ONS. Collections Statistiques, Statistiques Sociales N° 185, Série S 2013, p.64.
33. NABNI: « Cinquantenaire de l'indépendance: Enseignements et vision pour l'Algérie de 2020 ». Rapport 2014. P. 137.
34. موقع مركز التجارة الدولي http://www.intracen.org/

35. OFFICE NATIONAL DES STATISTIQUES: « les comptes économiques de 2001 à 2015 ». Août 2016.

36. ONS: « Evolution des échanges extérieures de marchandises de 2005 à 2015 », collections statistiques N° 201, Série E : statistiques Economiques N° 88, 2016.
37. ONS : Activité, Emploi, Chômage. Septembre 2015, N° 726.
38. ONS : Activité, Emploi, Chômage. Septembre 2016, N° 763.

أثر مواقع التواصل الإجتماعي على المجتمع الجزائري المعاصر

فيصل لكحل*

الملخص

تعتبر مواقع التواصل الإجتماعي وسائل ووسائط إلكترونية موجودة على شبكة الانترنت تتيح لمستخدميها فضاء عاما للتواصل يمكن للأفراد والمجتمعات من خلاله تبادل المنافع والخبرات فيما بينها. ويعتبر المجتمع الجزائري من المجتمعات المتأخرة نسبيا فى استخدام وسائل التواصل الاجتماعي ، حيث بدأ الانتشار والاستخدام الفعلى لها فى أوساط المجتمع الجزائري منذ أواخر التسعينيات ، وقد كان لهذا الإستخدام أثارا إيجابية سواء بالنسبة للفرد في ثقافته وخبراته المعرفية والعلمية أو بالنسبة للأفراد في تحقيق التواصل العلمي والمعرفي والثقافي والإجتماعي فى ما بينهم ، من خلال تبادل الخبرات والمحادثة والمتابعة والنقاش حول الكثير من القضايا التى تهم الإنسان فى حياته اليومية وفى علاقاته الاجتماعية. ولكن إلى جانب الإيجابيات التى تتيحها وسائل التواصل الإجتماعى فإن لها بالمقابل الكثير من السلبيات التى تؤثر على الفرد والمجتمع على السواء. وأكثرها انتشار ظاهرة الانعزال الإجتماعى للأفراد وارتباطهم بالمجتمع الافتراضى ، مما يفقدهم القدرة على تأدية أدوارهم ومسؤولياتهم الإجتماعية. وقد جاءت هذه الدراسة لإبراز مدى تأثير وسائل ووسائط التواصل الإجتماعى على المجتمع الجزائري من خلال بيان إنعكساتها الإيجابية والسلبية.

الكلمات المفاتيح: العالم الافتراضي ، مواقع التواصل الاجتماعي ، المجتمع الجزائري ، الأنثروبولوجيا الإجتماعية ، الثقافة.

Résumé

Les sites de réseaux sociaux sont des moyens électroniques et des médias sur Internet qui offrent aux utilisateurs un espace public de communication à travers lequel les individus et les communautés peuvent partager leurs avantages et leurs expériences. La société algérienne est considérée comme une société relativement tardive dans l'utilisation des médias sociaux, où la diffusion et l'utilisation effective ont commencé dans la société algérienne depuis la fin des années 1990, Cette utilisation a eu des effets positifs tant sur l'individu dans sa culture et ses connaissances et son expertise scientifique que sur les individus dans la réalisation de la communication scientifique, cognitive, culturelle et sociale entre eux. Grâce à l'échange d'expériences et de conversations et de suivi et de discussion sur de nombreuses questions qui concernent l'homme dans sa vie quotidienne et les relations sociales. Mais en plus des avantages offerts par les médias sociaux, ils ont de nombreux inconvénients qui affectent à la fois l'individu et la société. Le phénomène le plus répandu de l'isolement social des individus et de leur association avec la société virtuelle, Perdant ainsi la capacité de remplir leurs rôles sociaux et leurs responsabilités. Cette étude a été menée pour mettre en évidence l'impact des médias sociaux sur la société algérienne à travers ses réflexions positives et négatives.

Mots clé : Monde Virtuel, les sites réseaux sociaux, la société algérienne, l'anthropologie sociale, Culture.

Summary

Social networking sites are electronic means and media on the Internet that provide users with a public space for communication through which individuals and communities can share their benefits and experiences.

Algerian society is considered to be a relatively late society in the use of social media, with the spread and actual use of it in Algerian society since the late 1990, This use has had positive effects both on the individual in his culture and knowledge and scientific expertise or on individuals in achieving scientific, cognitive, cultural and social communication among them, Through the exchange of experiences and conversation and follow-up and discussion on many of the issues that concern the human in his daily life and social relations. But besides the positives offered by social media, they have many disadvantages that affect both the individual and society, The most common is the phenomenon of social isolation of individuals and their association with virtual society, Thus losing the ability to fulfill their social roles and responsibilities, This study was conducted to highlight the impact of social media on the Algerian society through its positive and negative reflections.

Keywords: Virtual world, social networking sites, Algerian society, social anthropology, the culture.

* أستاذ محاضر أ، جامعة ابن خلدون تيارت

إشكالية الدراسة

تعاني أغلب المجتمعات المعاصرة من وجود صراع بين عالمين، عالم واقعي والآخر خيالي وافتراضي، أحدهما حقيقي في بوتقة تحكمها وتحددها القوانين والأعراف، أما الثاني فضاء معلوماتي يمكن التصرف فيه بكل حرية ودون خوف أو تردد ودون حواجز أو جوازات (نطلع على ثقافة من نريد، نبحث في أي شيء نرغب، نشارك الآخرين أعمالهم وأحداثهم)، هذا الانفلات مما نملك ونبحث عما يملك الآخرون يجعل أفكارنا ومعتقداتنا وهوياتنا في خطر مما ينعكس على المجال الإجتماعي بالسلب، بحيث يفقد المجتمع آليات ومقومات وجوده الطبيعية.

تكمن أهداف الورقة البحثية في تسليط الضوء على أثر مواقع التواصل الاجتماعي في ثقافة المجتمع الجزائري، نظرا لأن العالم الافتراضي أصبح يعرف حركة ديناميكية سريعة من التطور والانتشار الذي أثر بدوره على المجتمع الجزائري، وتحديدا على هويته الثقافية من خلال تأثر هذا المجتمع بالانفتاح على العولمة التكنولوجية، وبالتالي تكمن أهمية الدراسة في تحديد الأثر الذي قد تحدثه مواقع التواصل الاجتماعي في ثقافة المجتمع الجزائري من خلال الكشف عن ايجابيات وسلبيات الفضاء الافتراضي، وانعكاساتها على المجتمع الجزائري، ولكن لا بد من الناحية المنهجية أن نشير بإسهاب إلى المفاهيم السوسيولوجية لكل من الأنثروبولوجيا الإجتماعية والعالم الافتراضي والعلاقة الممكنة بينهما.

1-الأنثروبولوجيا الإجتماعية والعالم الافتراضي

إذا كانت الأنثروبولوجيا عامة تعرف على أنها علوم الإنسان التي تهتم بدراسة كل ما له علاقة بالإنسان بصفة عامة من خبرات وعلوم ومعارف وعلاقات وتأثير وتأثر وتواصل وتفاعل من خلال السعي إلى فهمها ومعرفتها فإن "الأنثروبولوجيا الإجتماعية تدرس كل المجتمعات الإنسانية البسيطة والمركبة، فأي شيء يدرسه هذا العلم في تلك المجتمعات؟ الواقع أن البناء الإجتماعي Sosial structre والعلاقات الإجتماعية sosial Realtionships هما الموضوع الأساسي الذي تدرسه الأنثروبولوجيا الإجتماعية في المجتمع الإنساني"[1].

إن موضوع الأنثروبولوجيا الإجتماعية هو المجتمع الإنساني الذي يتطور ويتغير عبر الزمن والتاريخ، حيث تدرس الأنثروبولوجيا الإجتماعية النظم التي تتشكل بواسطتها العلاقات الإجتماعية بين الأفراد كما تسعى إلى معرفة الروابط والتكامل الإجتماعي الموجود بينهم داخل المجتمع في علاقاتهم الإجتماعية المختلفة، "إن الأنثروبولوجيا الإجتماعية تهتم بمجال محدد من مجالات العلوم الإجتماعية وهو دراسة النظم الإجتماعية في إطار البناء الإجتماعي للمجتمع"[2]، فهي تدرس النظم المختلفة الأسرية والقرابية والإقتصادية والدينية والتربوية في المجتمع وعلاقاتها المختلفة في ما بينها، وكيفية تشكل البناء الإجتماعي في ظل هذه العلاقات الإجتماعية، و"يذهب وينيك Winck في قاموسه لعلم الأنثربولوجيا إلى أن (البناء الإجتماعي نسيج يتكون من العلاقات التي تربط بين أعضاء مجتمع ما)،... أما كيسينج Keesing فهو يرى أن البناء الإجتماعي يمثل (النظم الإجتماعية التي عن طريقها تصل مجموعة من السكان إلى حالة التكامل والترابط وهي الحالة اللازمة لتكوين مجتمع)"[3].

وأياً كان الأمر فإن البناء الإجتماعي يشمل العلاقات الإجتماعية بين الأفراد والنظم التي تتحدد وفقها هذه العلاقات، فالبناء الإجتماعي هو نظام الجماعات الإجتماعية التي تحافظ على وجودها كجماعات في ظل تغيرها وتطورها المستمر، ويمكن القول أن الأنثروبولوجيا الإجتماعية عموما هي "الدراسة التكاملية المقارنة القائمة على ملاحظة السلوك الإنساني في مضمونه الإجتماعي، فهي دراسة تكاملية لأنها تتبنى المنهج الكلي Holistis Method الذي يسعى لإدراك الإطار الإجتماعي العام الذي توجد فيه الظاهرة والإحاطة بالعوامل التي تؤثر فيها وتتأثر بها. وهي دراسة مقارنة Comparative بمعنى أنها تدرس النظام القرابي أو الإقتصادي في مجتمع معين ثم تقارن بين هذا النظام ونظيره في مجتمع آخر...، كما أن الأنثروبولوجيا الإجتماعية دراسة تعتمد على الملاحظة Observation لأن الباحث يستمد مادته من الواقع الذي يدرسه بنفسه ويعايشه"[4].

إن دراسة البناء الإجتماعي تبدأ أولا من ملاحظة الواقع الإجتماعي الذي يرتبط بزمان ومكان محددين لمعرفة العلاقات الإجتماعية التي تربط بين الأفراد فيما بينهم أو بين مجموعة من الأفراد في علاقاتهم الإجتماعية التي تقوم على

التفاعل والتبادل والتأثير والمصالح ، أو من خلال ملاحظة سلوك الإنسان في مجاله الإجتماعي الكلي ومن خلال معرفة النظم التي تتحكم فيه مقارنة بالنظم المؤثرة في مجتمعات أخرى.

إن المتأمل في حال المجتمع الجزائري يدرك أن التغيرات التي يمر بها لا تخضع لإرادة ثقافية مسبقة أو لإستراتيجية حضارية مخطط لها ، إن هناك تغيرات عشوائية لا تخضع لمحددات منهجية منظمة ، ويمكن أن نلمس هذا في الإستخدام السيئ للتكنولوجيا ومنتجاتها ، إن المجتمع الجزائري وإن كان يملك الحصانة الثقافية الكافية لمواجهة مخاطر العالم الافتراضي إلا أنه يفتقد إلى الطريقة أو المنهج الملائم لمواجهة هذه المخاطر والتحديات ، فالبنية السوسيولوجية والسوسيو-ثقافية للمجتمع بنية هشة مقارنة بما وصلت إليه المجتمعات الغربية ، لأن من شروط الدخول إلى الحضارة والعالمية القدرة على إنتاج التقنية والتكنولوجيا والقدرة على التحكم فيها ، وهذا ما ينعكس سلبا على المجتمع الجزائري المعاصر الذي يبقى في موضع المتأثر والمتلقي مما يفقده آلية التحكم والسيطرة على المنتجات العلمية والتقنية ، التي تنعكس سلبا على المجتمع وتجعله عرضة للمشكلات والأزمات. إن المجتمع الجزائري لم يستطع بعد أن يتلاءم مع طبيعة المتغيرات العلمية والتكنولوجية ، لأن هذه المتغيرات لم تكن نابعة من ثقافة خاصة بالمجتمع الجزائري ، وإنما هي متغيرات فرضتها التطورات العلمية في مجال علوم الإنسان والمجتمع في الغرب ، يقول أحد السوسيولوجيين في وصف هذه الأزمة "لقد شهدت الأوضاع الجزائرية في العقدين الأخيرين إفرازات خطيرة طالت كل المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية مما أدى المهتمين بهذه الشؤون إلى توصيف حالة الجزائر بالمتأزمة ، حيث شاع تداول عبارة "المجتمع الجزائري المتأزم" ، وعبارة "الذات الجزائرية الممزقة"[5].

2-أثر مواقع التواصل الإجتماعي بين الإيجابيات والسلبيات

تُرجع معظم الأبحاث المشكلات التي يعاني منها الفرد الجزائري إلى توتر علاقته بعالم القيم ، لأن هناك اضطرابات علائقية يعاني منها الكثير من الأفراد في حياتهم الأسرية والاجتماعية وسبب هذه الاضطرابات يعود إلى ما يتلقونه من قيم وعادات وتقاليد من محيطهم الأسرى والتربوي وبين ما يتأثرون به من مؤثرات تفرضها العولمة في مجال التكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديثة ، حيث يحدث انفصام في شخصية الأفراد يفقدهم القدرة على التحكم في أفعالهم وتصرفاتهم نتيجة ميلهم إلى التأثر بما يحيط بهم وبما اكتسبوه من وسائل التواصل.

وتبين في هذا الصدد دراسة "بيبيمون كلثوم" تصور ممارسة الهوية الثقافية لدى الشباب الجزائري بين الفضاء الالكتروني والممارسة الواقعية من خلال دراسة ميدانية لعينة من الشباب الجامعي مستخدمي شبكة التواصل الاجتماعي "الفايس بوك" تأثير شبكة التواصل الاجتماعي من خلال أهم أبعادها وهو تأثيرها في الهوية الثقافية لمستخدمي هذه الشبكة من خلال عملية الاتصال مع الأخر ، اذ "أن المستخدم يميل الى تقمص عدة هويات أثناء عملية الاتصال بالمقارنة مع الممارسة الواقعية لسلوك المواطنة ، ويتجلي هذا في كيفية عرض الهوية الالكترونية طبيعة علاقاته الشبكية على الفايس بوك مقارنة بالواقع ، وفي اللغة المتداولة على الفايس بوك"[6] وكذلك من خلال "التعارض الظاهر بين موقفه على الفضاء الافتراضي وموقفه في الواقع أو بين هويته الإلكترونية وهويته الواقعية والتي تعكس العلاقة بين المتخيل والواقعي"[7]

وقد "تولدت عن ظاهرة التزاوج بين تكنولوجيات الاتصال الحديثة وتطبيقات شبكة الانترنيت ما بات يعرف بمواقع التواصل الاجتماعي الذي أضافت بعدا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا للتكنولوجية الحدثية وخلقت مجتمعات افتراضية غير تلك المتعارف عليها لدى علماء الاجتماع وهي نتاج التعقيد التقني الذي تشهدها المجتمعات الحالية بفعل التطور التكنولوجي السريع خاصة الانترنيت التي أصبحت موضوع دراسات وأبحاث العديد من المفكرين"[8] ، حيث تمثل الانترنت المرجع الرئيسي في استخدامات الأفراد وقضاء حاجاتهم البحثية العلمية وحتى الاقتصادية لدرجة تكاد الانترنت تحل محل المكتبة كونها تقدم الحل السريع في الاستكشاف والبحث وسرعة التواصل كما تساعد في التسويق أو اجراء الكثير من المعاملات الاقتصادية دون عوائق

جغرافية لدرجة يمكن بها إجراء تعديلات اتجاهات الناس وميولاتهم في مختلف القضايا .ذلك أنها تلبي الكثير من حاجات الناس في ربح الوقت والجهد والتكلفة ، يظهر ذلك مثلا في البريد الالكتروني اثناء تبادل الوثائق الرسمية ، دون أن نغفل عن صدى وصيت المواقع التي توفر التواصل المباشر القائم على المناقشات والدردشة تبادل الخبرات مثل (الفايس بوك ، مسينجر ، التويتر ، انستغرام...وغيرها).

إن استخدام الأنترنات كوسيلة اتصال بين الأفراد من خلال وسائط (الفيسبوك ، التويتر ، الأنستغرام ، الإيميل ، الفايبر ، والواتساب السكايب) تجاوز الغاية التي أقيمت من أجلها هذه الوسائل ، فعوض أن يجعل الفرد من هذه الوسائط أداة من أجل تحقيق التواصل الإيجابي والفعال الذي يسهل له سبل الدراسة والتعلم وتبادل المعلومات والخبرات والمعارف ، إستخدمها في مجال الحق الفردي الذي يخول له أن يستخدمها على حسب ما تمليه عليه أهواءه ورغباته ، وما ساعد في مثل هذه الاستخدامات هو عدم وجود الرقابة الكافية على هذه الوسائل ، لأن الذي أنتج هذه الوسائل جعل في المقابل آلية التحكم فيها في يد الإنسان الذي يستخدمها بكل حرية ، كما زاد انتشارها خاصة عند الشباب في اكتساب عادات وسلوكات دخيلة. كما هو ملاحظ في ظاهرة التباهي بالأجهزة الذكية وكذلك استخدامات الانترنت على مدار الساعة والانخراط الدائم في مواقع التواصل الاجتماعي تماشيا مع الثورة التقنية والتكنولوجية منجذبين نحو الجانب الاجتماعي لمواقع التواصل ، فهي تربطهم بأفراد مختلفين اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وحتى سياسيا وتعليميا.

إن هناك جوانب إيجابية كثيرة للأنترنت فيما يتصل بنهل العلوم والمعارف والتواصل العلمي والمعرفي البناء والهادف بين الأفراد والمجتمعات من خلالها يمكن أن يجد الطالب غايته والمستكشف ضالته في مختلف المجالات.

ولكن هناك في المقابل الكثير من السلبيات تتجلى في الإستخدام السيئ والغير عقلاني لها ، لأن الإستخدام المفرط للأنترنات يجعل الفرد يميل إلى العزلة وإلى الانطواء على الذات ، حيث يعيش حياة نفسية وهمية نتيجة التأثر بالتقنيات والبرامج التي تسلب الفرد قدرته على التواصل الأسري والإجتماعي.

تشير دراسة للباحثين "طاوس وازي" و"عادل يوسف" في دراسة عينة من أفراد المجتمع الجزائري في يخص تأثير وسائل التواصل التكنولوجية على العلاقات بين الأفراد سنة 2013 ، أن الآثار السلبية لوسائل التواصل التكنولوجي تتمثل في هشاشة العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة ، اذ أصبح الفرد ينبهر وينجذب لأحدث وأذكى وسائل التحاور ، التي تؤدي إلى افتقاره للتغذية الراجعة وتبادل الأفكار والمشاعر[9] ، وفي ظل الميل المفرط في استخدام وسائل التواصل الإلكترونية والأجهزة والوسائل السمعية والبصرية التي تربط الأفراد بعوالم أخرى تكاد تبعد عنهم بآلاف الكيلوميترات أو بعوالم خيالية وافتراضية لا أساس لها في الواقع ، نجد أن العلاقات الأسرية تقل بين الأفراد حيث تحدث العزلة والميل إلى الإنفراد ، وتقل المشاعر العاطفية والقيم التي تربط بينهم ، كما أن الفرد المتأثر سلبيا بهذه الوسائل يسعى إلى اصطناع شخصية مخالفة لشخصيته الطبيعية ، لأن "احتكاك الفرد بعالم الانترنت خاصة مواقع التواصل الاجتماعي ومحاولة اظهار المستخدم أنه حاضر بصورة دائمة في الانترنت مما يؤدي الى اختلاق شخصية افتراضية غير شخصيته ، وذلك بوضع اسم غير اسمه وصور غير صوره ، وذلك من أجل التلاعب والدخول في قصص حب مع الجنس الأخر أو عملية اختلاس ، أو ممارسة أعمال غير شرعية عبر الانترنت بدون اكتشاف الأخر ذلك"[10] ، إن إستنخدام الأنترنت بهذا الشكل يؤسس للمستخدم عالما افتراضيا يلجأ إليه الفرد باستمرار للهروب من عالمه الواقعي الذي يعيشه بواسطة شخصية افتراضية وهمية في مقابل شخصيته الواقعية ، يميل المدمن على استخدام الأنترنت بكل حرية إلى تعويض كل النقائص التي عجز عن إشباعها في العالم الواقعي الذي يواجهه بمختلف القيم والعادات والتقاليد الاجتماعية ، كما يسعى إلى التحرر منها بمختلف الطرق ويؤدى هذا النزوع إلى الوقوع في العنف المعنوي وإلى ممارسة السلوكات والأفعال التي تنعكس بشكل سلبي على علاقاته الإجتماعية.

تبين دراسة "عبدالي ريم" والتي جاءت بعنوان "العنف على مواقع التواصل الاجتماعي- دراسة انثوغرفية حول مستخدمي الفايسبوك في الجزائر" ، من خلال بحثها في العنف المعنوي الممارس داخل شبكات التواصل الاجتماعي

التي تضم أكبر عدد من المجتمعات الافتراضية أن الفيسبوك كوسيلة تواصل يفتح الباب واسعا للتعبير والنقاش الحر عن طريق النشر والتواصل، وهذا ما أتاح الفرصة للكثير من المستخدمين في التعبير عن أرائهم بدون أي سلطة رقابية، وإبداء وجهات نظرهم التي قد تقلل من احترام الأخر لتكون حدة التخاطب والإساءة والانزلاق في سفه القول[11].

إن وسائل الاتصال الحرة التي لا تخضع لضوابط قانونية ولا إلى رقابة فوقية مباشرة تكون نتيجتها فقدان الأفراد لقيمهم ولأخلاقهم الطبيعية التي نشؤ عليها، مما يفقدهم القدرة على التفاعل والتواصل الإجتماعي مع بقية الأفراد، كما أن تنوع وسائل الاتصال زاد من انعزال الأفراد وانطوائهم على ذواتهم، والسؤال الذي يطرح نفسه ما المواقع التي يتفحصها مترددي المقاهي أو متصفحي الانترنت؟ تبين دراسة جزئية على عينية من مجتمع ولاية باتنة أن" 60 % يقضون أوقاتهم في المحادثة «chat» ومواقع التعارف والصداقة 20 % من المستخدمين للمواقع الثقافية، وأخيرا 20 % مواقع طبية حاسوبية تجارية وسياسية"[12]، وتبين هذه النسب أن النسبة الغالبة في استخدام الأنترنات تكمن في التواصل والمحادثة التي تربط الفرد بالأخرين من خلال الصداقة والتعارف، حيث يقضي الكثير من الأفراد خاصة الشباب منهم أكثر أوقاتهم أمام الأنترنات مما ينعكس على علاقاتهم وتواصلهم الإجتماعي الطبيعي، وبالتالي يؤثر على مردودهم في الدراسة والإنتاج والإبداع في أعمالهم وقدراتهم الشخصية التي تربطهم بمحيطهم الإجتماعي وكما تبين الدراسة أن النسبة الأقل تخصص للمواقع الثقافية والتعليمية والعلمية ذات الفائدة، وهذه المؤشرات تدل على فقدان المجتمع الجزائري لقيمه الباعثة التي يتزود بها الأفراد بفقدانهم للقيم الثقافية والأخلاقية التي اكتسبوها في محيطهم الطبيعي، وكل هذا ينعكس سلبا على المجتمع، "أشار كاتز katz في نظريته "الاستخدامات والاشباعات" الى عملية التأثير التي تتحدد من طبيعة الاستخدام وأطلق مقولته: ينبغي أن نتوقف عن سؤال أنفسنا ماذا تفعل وسائل الاعلام بالناس؟ لنسأل أنفسنا ماذا يفعل الناس بوسائل الإعلام؟ كما أكدت نظرية مدى قدرة وسائل الإعلام على العالم الثقافي لجورج غيربنر G.Gebner [إلى القول بأنها تفرض] واقع تعليمي وثقافي وقيمي معين لمشاهديها وقرائها، بحيث يحل واقع وسائل الإعلام محل الواقع الطبيعي للمشاهدين"[13].

يظهر الجانب السلبي في انعكاس العالم الافتراضي بشكل أكثر وضوحا على المجتمع في تسويق الأفلام السينمائية الخيالية والمسلسلات الإجرامية التي تجعل الفرد مستلب الوعي ومتفاعلا مع عوالم خيالية ليس لها وجود في الواقع، أما بالنسبة للأفلام الكرتونية العالمية المشهورة التي تسوق للأطفال فهي في أكثرها من إنتاج العالم الغربي الذي يقوم بتسويقها من أجل تمرير أهدافه وأغراضه الثقافية والحضارية التي تؤثر في ذهنية الأطفال وتجعل نموهم الطبيعي يخضع لمؤثرات خيالية تسلب الطفل وعيه وتجعله متفاعلا مع عوالم غير طبيعية، حيث تتكون بشكل غير مباشر خلفية ثقافية لدي الطفل يكتسبها دون شعور منه من شاشة التلفزيون ويعمل على استخدامها ومحاولة تطبيقها بالمثل نفسه في العالم الخارجي، ومن وظيفة المحيط الأسري والإجتماعي فرض الرقابة والحماية، ولكن المجتمع لا يملك الحصانة الكافية لوقاية الأطفال من هذا التأثر وغالبا نجد أن أكثر الأسر اليوم لا تملك أن تعزل الأطفال عن الوسائل التكنولوجية التقنية كما أن التوعية الأسرية لا يمكنها أن تعزل الطفل عن محيطه الذي يعيش فيه بشكل مباشر وفي ظل هذا يبقي الطفل في حالة صراع بين عالمه الخيالي والإفتراضي الذي اكتسبه وبين تنشئته الإجتماعية الطبيعية التي نشأ عليها، لأن ما يكتسبه الطفل تساهم فيه الوسائل التكنولوجية والتقنية بشكل كبير عن ما يكتسبه من محيطه الأسري والإجتماعي الذي يعيش فيه، كما أن آليات التحكم في وسائل الاتصال ليست أمرا إراديا يخضع بشكل مباشر لإرادة المجتمع وإنما هي تخضع لرغبات وأهواء الأفراد بالشكل نفسه.

يفهم هنا أن تأثير العالم الافتراضي على المجتمع المدني الجزائري زاد من خطورة فقدان المجتمع لخصوصيته وهويته الثقافية، وهذا بفعل تأثير العولمة الثقافية، فالعولمة اختراق ثقافي أمريكي لمختلف المجتمعات على هذا الكوكب، تحركه وسائل الاعلام الجماهيرية عبر خضوعها لشركات أمريكية وأوربية تفرض صورتها القوية وأصواتها النافذة على الشعوب غير المحصنة، خاصة أن العولمة الثقافية لها الأثر الأعظم في بناء الهويات وتغيير المجتمع العالمي وعولمة

المشكلات الاجتماعية[14]، ولا يقتصر الأمر في تأثير العولمة على الهويات الثقافية للمجتمع وفقط، وإنما نجدها تؤثر في النظم والمؤسسات الإجتماعية وكل ما يتصل بها من البنى والأنساق الثقافية للمجتمع، وكما "أشار المجلس الأوربي للثقافة سنة 1998 أن زمن العولمة هو زمن تهديد الهويات والثقافات، وكذا طمس ملامح الخصوصيات الثقافية، وإن لم تتمكن من اضعاف الهويات الوطنية فهي على الأقل تضعها على المحك"[15]، بل أن العولمة الثقافية بفعل تأثيراتها العالمية اخترقت النظم والجمعيات والمنظمات الإجتماعية التي يعتمد عليها في بناء المجتمع والحفاظ على هويته وخصوصيته الثقافية، فـ"المجتمع المدني يعتمد على نشاط الجمعيات والمنظمات الإجتماعية غير الحكومية التي تقوم على قيم ومبادئ اجتماعية خاصة تحقق من خلالها أهدافها وأغراضها الإجتماعية من خلال تحقيق تلك القيم والمبادئ في الواقع الإجتماعي من تفاعل وتواصل وغيرها[16] فقد اهتم المواطن الجزائري بتشكيل الجمعيات والمنظمات والروابط والنوادي التي تهتم بالقضايا الاجتماعية، ولكن على الرغم من سبق الجزائر من حيث العدد في مجال تأسيس الجمعيات فإنها تفقد هذا الموقع في مجال حيوية ونشاط وتطور المجتمع أمام فاعلية الحركة الجمعوية في لبنان ومصر واليمن والمغرب والأردن وفق التصنيفات التي ذهبت إليها بعض المنظمات الغير الحكومية[17]

لعل سبب قلة فعالية المنظمات الإجتماعية والجمعيات المجتمعية في الجزائر هو افتقادها لآليات التفاعل الإجتماعي وفقدانها للإمكانيات الحضارية اللاَّزمة، كما أن سبب قلة فاعلية الحركة الجمعوية في الجزائر على كثرة عددها يعود أولا وقبل كل شيء إلى أن هذه الكثرة المعلنة غير صحيحة، لأن كثيرا من الجمعيات المسجلة لا وجود لها على أرض الواقع، لأنها انقطعت عن النشاط أو لم تنشط أصلا منذ تأسيسها ولم يتخذ قرار إداري أو قضائي بحلها[18]، وبالتالي فإن الجانب الكمي الظاهر في ما يخص الجمعيات لا ينفع في إخراج المجتمع من أزماته الحضارية، إذ ما الفائدة من تواجد الكثير من الجمعيات والمنضمات دون فعالية أو تأثير اجتماعي واضح، إن كثرة المنظمات والجمعيات المجردة من الفعالية الإجتماعية يدل على وهن العالم الثقافي والسياسي الذي ينعكس لا محالة على الوضع الاجتماعي.

إن "إشكالية الوضعية الثقافية في الجزائر تطرح بمعنى مضاعف في الوضع الجيوبوليتيكي والأنثروبولوجي وكذلك في الجانب الاجتماعي التاريخي خاصة في المرحلة ما بعد الاستعمارية"[19]، لأن عدم فعالية الثقافة في المجتمع الجزائري المعاصر ناتج عن وجود هوة عميقة تفصل بين المثقف والمجال الإجتماعي العام، ولعل الأمر ناتج عن عدم الفهم الصحيح لمهمة الثقافة وأدوارها الاجتماعية، إذ لا فائدة من الثقافة إذا كانت لا تمس حقائق ووقائع اجتماعية ملموسة، لأن الفهم الذي يُنظر للثقافة على أنها تخص المجرد والنظري المكثف في العلم والمعرفة دون وجود جسور تواصل بينها وبين الواقع الاجتماعي، إنما هو تجاهل وعدم الإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتق المثقف، إن "المهمة التي يبقى المفكر الجزائري منوطا بها هي الأخذ بأخلاقية الارتحال عبر جغرافيات المعنى والرموز والقيمة التي يسكنها الوعي الجمعي، والتي من شأنها تحويل الأفكار المنتجة إلى قيم ممارسة تحقق كيانها في الواقع النفسي والاجتماعي"[20]، لأن المجتمع يحمل في بعض الأحيان بذور فنائه من الداخل، لأن بعض المجتمعات التاريخية فقدت مكانتها الحضارية بسبب عجز فكرها الاجتماعي عن قيادة المجتمع والمجتمع الذي يفتقد لمرجعية فكرية وثقافية أصيلة ينزاح نحو نوع من الوهم الكاذب في اتجاه تغيرات تفرضها الشروط التاريخية الحاضرة دون وعي ثقافي مسبق، إذ لا يمكن النظر إلى المجتمع الجزائري بمعزل عن المجال الثقافي الذي يتشكل فيه المجتمع.

يرى دنيس كوش أنه "تجب دراسة العلاقات الثقافية إذا ضمن مختلف أطر العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تيسر علاقات الاندماج أو التنافس أو النزاع (....)، ومن الواجب إعادة موضعة ظواهر التآلف الثقافي والتمازج الثقافي، بل الاستيعاب أيضا في أطر بنينتها أو إعادة بنينتها الاجتماعية[21]، لأن الثقافة هي التي تبقى تغذي المجتمع وتدفع به إلى الاستمرار في عجلة التاريخ، إن "علم الاجتماع الحديث يميل من خلال صوره العلمية إلى الإقلاع عن الفكرة القائلة بوجود سبب مهيمن للتغير الاجتماعي، أي أنه يعترف بتعدد وكثرة أنماط التغير"[22] والحال أنه لا يمكن لدراسة سوسيولوجية أن تستوفي بمفردها كل المتغيرات التي تطرأ على المجتمع الجزائري، لأن المقاربات التي يتم تبنيها في هذا

المجال تعد مجرد إسقاط على موضوعات محددة ، وبالتالي يتعذر إيجاد المركب السوسيولوجي الذي يفسر كل المتغيرات التي تحصل في المجتمع.

إن المجتمع الجزائري يبقى بحاجة ملحة إلى تحقيق دور تفاعلي بين الأفراد ، لأن التواصل التفاعلي هو الذي تحقق من خلاله الذوات الاجتماعية كيانها الاجتماعي من خلال الصورة الكلية التي تجعل الذات في حالة مستمرة من التكون والتفاعل الاجتماعي ، والذات التي تبقى حبيسة ذاتها وفي عزلة اجتماعية بسبب تأثير وسائل الاتصال لا يمكنها أن تحقق كيانها الذاتي إلا من خلال الاندماج الاجتماعي [23].

لقد حلت في المجتمع الجزائري بدلا من القيم الفعالة قيما ظرفية مؤقتة سيدة نفسها على العالم الثقافي وأضحت تتحكم في زمام الأمور ، وهذا منذ أن عجز المجتمع عن تمثل مبادئ وقيم العالم الثقافي الأصيل ، فالمجتمع الجزائري يعاني اليوم أكثر من أي وقت مضى من عدم القدرة على تمثل القيم الثقافية التي من شأنها تغيير أوضاعه الاجتماعية ، وهذا ما يفرض على المجتمع الجزائري البحث عن الحصانة الثقافية التي تمنعه من الانحلال في معادلات اجتماعية دخيلة ، لأن الرهان الذي يبقي يفرض نفسه باستمرار على الفكر الجزائري هو كيفية تفعيل المبادئ والقيم في المجال الاجتماعي [24].

إن ضرورة التأسيس لعلم اجتماع جديد في العالم الإسلامي -والمجتمع الجزائري خاصة- تتأتي وفق تصور المفكر الجزائري "مالك بن نبي" من ضرورة التأكيد على أهمية البعد الإسلامي ، لأن المآل الذي انتهى إليه المجتمع الإسلامي عامة والمجتمع الجزائري خاصة هو نتيجة حتمية لانفصال العنصر الروحي عن العنصر الاجتماعي ، أو لأن هناك افتراق بين المبدأ والحياة [25] ، أي أن هناك هوة عميقة بين القيم والمبادئ التي يعتقد بها الإنسان المسلم –الجزائري- وبين حياته العملية الاجتماعية التي تربطه بعالم الآخرين من خلال العلاقات والسلوك ، يعيد مالك بن نبي الأهمية للبعد الروحي في عملية التنمية والبناء الإجتماعي ، فالحاجة ملحة إلى التجديد في المنظومة الثقافية للمجتمع من خلال التركيز على الأدوار الحضارية التي يجب أن تحققها العلوم الإجتماعية [26].

خاتمة

إن هناك حقيقة لابد من الاقتناع بوجودها ، وهي أن لا يمكن أن نعيش بمعزل عن تكنولوجيا الإعلام والاتصال بشكل عام ولا يمكن أن نعزل أنفسنا عنها بشكل مطلق ، لأن العولمة والعالم التكنولوجي التقني في تقدم وتطور دائم ، فهي تفرض نفسها بشكل مستمر يوما بعد يوم ولا سبيل إلى إلغائها أو رفضها ، وإلى جانب السلبيات الناتجة عن استخدام التكنولوجيا ووسائل الاتصال نجد الكثير من الإيجابيات التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل تحديث المجتمع والدفع به للدخول في عجلة الحضارة. ولكن في المقابل لا بد من السعي إلى تفعيل المشروع الثقافي الذي يحصن المجتمع الجزائري من المخاطر التي تنجر عن الإستخدام السلبي والمفرط للتكنولوجيا ولوسائل الإعلام والاتصال وللاستخدامات الناتجة عنها التي أفقدت المجتمع خصوصيته وأفرغت الأفراد من قيمهم الأخلاقية والتربوية.

ولكن تفعيل العالم الثقافي الذي من شأنه معالجة قضايا الإنسان والمجتمع ليس امرأ إراديا وإنما يخضع لشروط ولظروف وعوامل ينتجها المجال الثقافي والحضاري المناسب ، والمجتمع الجزائري شهد عدة محاولات في بناء عالمه الثقافي بما يتوافق مع مستجدات العلم والتكنولوجيا ، ولكن هذه المحاولات تشكل لحظة البدء والانطلاق فقط ، فهي إمكانية حاضرة دائما تحتاج بالضرورة إلى مقومات معينة تخرجها من حيز الإمكان إلى الوجود الفعلي وتحدد في الآن نفسه أبعادها الجوهرية.

الهوامش

1. علي محمد المكاوي، 2007، "الأنتروبولوجيا وقضايا الإنسان المعاصر مدخل إجتماعي وثقافي"، ط1، دار النصر، جامعة القاهرة، ص42.
2. المرجع نفسه، ص39.
3. المرجع نفسه، ص42.
4. المرجع نفسه، ص46.
5. المرجع نفسه، ص171.
6. بيبيون كلثوم، "تصور وممارسة الهوية الثقافية لدى الشباب الجزائري بين الفضاء الالكتروني والممارسة الواقعية دراسة ميدانية لعينة من الشباب الجامعي مستخدمي شبكة التواصل الاجتماع "الفايس بوك" باتنة نموذجا"، (دكتوراه)، علم الإجتماع جامعة الحاج لخضر باتنة الجزائر، (د-س)، ص22.
7. المرجع نفسه، ص24.
8. هواري حمزة، (2012)، "مواقع التواصل الاجتماعي واشكالية الفضاء العمومي"، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة الجزائر، العدد 20، ص225.
9. طاوس وازي، عادل يوسف، (2013)، "وسائل التكنولوجيا وتأثيرها على الاتصال بين الآباء والأبناء (الأنترنت والهاتف النقال نموذجا)، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الاتصال وجودة الحياة في الأسرة"، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 2013، ص5.
10. المرجع نفسه، ص9.
11. توصلت دراسة "عبدالي ريم" الى أن دوافع فتح حساب على شبكات التواصل تختلف من التعارف الى الثقافة، فالمتعة وكذلك التنفيس، وقدمت نسب مئوية كانت كالتالي: بهدف التعارف 23 %، الثقافة 26%، المتعة 55% والتنفيس 40%، كما استفسرت الدراسة عن الشعور بالانتماء داخل المجموعات (الصفحات في شبكة الفايسبوك) كانت استجاباتهم من أصل 102 من العينة، 42% نعم يشعرون بالانتماء في حين 58% لا يشعرون للإطلاع أنظر:
- عبدالي ريم، "العنف على مواقع التواصل الاجتماعي-دراسة انثوغرفية حول مستخدمي الفايسبوك في الجزائر"، (مذكرة الماجستير) تخصص علم الاجتماع، جامعة وهران، ص30 إلى ص34.
12. مريم لمام، "تكنولوجيا الاتصال وثقافة الشباب: الأنترنت أنموذجا"، Insaniyat / إنسانيات [2011 | 54 , En ligne]، mis en ligne le 15 janvier 2015، consulté le 01 février 2017. URL : http://insaniyat.revues.org/13150 ، تاريخ زيارة الصفحة 2017/03/13.
13. طاوس وازي، عادل يوسف، مرجع سابق، ص4.
14. روابحي خيرة، "ثقافة الانترنت دراسة ميدانية لاستعمالات الشبكة بمدينة تيهرت"، (رسالة ماجستير)، علم المكتبات والعلوم الوثائقية كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم علم المكتبات والعلوم الوثائقية، 2009، ص 2.
15. عبد الرزاق أمقران، "إستراتيجية التجديد الثقافي في المجتمعات العربية في ظل العولمة"، (أطروحة دكتوراه)، تخصص علم اجتماع التنمية، جامعة منتوري قسنطينة،2010، ص245.
16. لكحل فيصل، (2015)، "المعوقات الوظيفية في العلوم الإجتماعية-المجتمع الجزائري أنموذجا"، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر، العدد 8، ص258.
17. عبد الرزاق مقري، 2010، "التحول الديمقراطي في الجزائر-رؤية ميدانية"، الجزائر، ص34، ص35.
18. المرجع نفسه، ص36.
19. Mourad Yelles. 2004. «Les Fantomes de l'identitè. Histoire culturelle et imaginaires algèriens». Editions ANEP. P16.
20. يحاول المفكر "على الكنز" من خلال اهتمامه بالمشكلة الثقافية والاجتماعية الجزائرية، أن يرصد أسباب الأزمة التاريخية التي حالت دون الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ومن بينها أن الثقافة لم تعد تؤدي الدور المنوط بها نظرا لبعدها عن الغايات الحضارية المرتبطة بمجال النشاط الاجتماعي الإنساني، أو نظرا لأنها لم تساهم بشكل فعال في تغيير الواقع النفسي والاجتماعي الجزائري بالشكل الذي يحقق القيم الثقافية في الواقع الحضاري. للمزيد من الاطلاع أنظر:
- محمد شوقي الزين، الزين، 2008، "إزاحات فكرية، مقاربات في الحداثة والمثقف"، ط1، منشورات الإختلاف، الجزائر، ص128 ص129.
21. Ali El-kenz. 1989." Au Fil de la crise."4 études sur l'Algérie & le monde arabe. Éditions bouchene. Alger.1.trimestre. p35. p36
22. دنيس كوش، 2007، "مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية"، ترجمة منير السعيداني، ط1، المركز العربي للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ص100.
23. خليل أحمد خليل، 1984، "المفاهيم الأساسية في علم الإجتماع"، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ص74.
24. لكحل فيصل، "المعوقات الوظيفية في العلوم الإجتماعية-المجتمع الجزائري أنموذجا"، مرجع سابق، ص256.
25. المرجع نفسه، ص259.
26. المرجع نفسه، ص260.

مالك بن نبي، 2006، "ميلاد مجتمع"، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط6، دار الفكر دمشق، ص105.

الأدب المقارن بين المدرستين الفرنسية والأمريكية

ياسين بن عبيد*

الملخص

لا تأخذ المواجهة بين المدرستين الأمريكية والفرنسية في الأدب المقارن معناها التاريخي إلا في أضيق الحدود ، ذلك أن مسوّغ وجود كلتا المدرستين ـ ثقافيا وإيديولوجيا ـ هو الأصل الذي قام عليه المشروع المقارني لديهما جميعا. إنْ تكن المدرسة الفرنسية استهلت هذا المراس ونظّرت له ، فإنها ـ بالمنظور الأمريكي ـ لا تحتكر مرجعياته ولا تنفرد بفلسفاته ، لأنه تجربة إنسانية اختارت الأدبَ بوابةً لها ، واختارت المقارنة منهجا كان سيوجد في كل أرضية هيّأتْ له ظروفه. وإن تكن المدرسة الأمريكية ـ بالمنظور الفرنسي ـ امتدّت في الأفق الثقافي العام ، بحيث صار لها متّكآت ومناطق نفوذ ، فإن لها منطلقا أوربيا فاعلا في وجودها ، وفي انتشارها ، يَحُدُّ من إرادة هيمنتها.

الكلمات المفاتيح: الأدب المقارن ؛ المدرسة ؛ المنظور ؛ الفلسفة ؛ المنهج ؛ الإيديولوجيا ؛ المرجعيات ؛ النفوذ.

Résumé

L'affront franco-américain en littérature comparée ne prend sens, historiquement, que dans une mesure strictement restreinte, en ceci que les sous-bassements idéo-culturels des deux écoles ne souffrent pas vraiment de mitoyenneté. Si l'école française a bien entamé la pratique comparatiste et l'a théorisée selon sa vision de la littérature, cela ne lui donne nullement – du point de vue américain – le droit au contrôle du fait comparatiste ni ne l'érige en référent. Pour l'école française, la démarche américaine, même influente pour des raisons pas toujours culturelles, doit rester redevable aux pratiques européennes qui lui ont servi de socle et dont elle tient ses ajouts et certaines de ses influences.

Mots clés : Littérature comparée, Ecole, Vision, philosophie, méthode, idéologie, références, influence.

Summary

The french-american affront in matters of comparative litterature takes on its full meaning, historically speaking, only to a strictly and limited extent in the fact that both ideological and cultural bases of the two schools are not really confronted by convergence.

If the French school has well initiated and theorized its comparative approach, according to its own vision of litterature, this would not give it, from the American point of view, the right to have control over the comparative approach nor reinforce its position as a referent.

For the French school, the American approach although it is influential for reasons that are not always cultural,it should remain indebted to European practices as they served as the bases for its ideology .

Keywords : comparative literature, school, vision, philosophy, method, ideology, references, influences.

* أستاذ محاضر ب، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

تمهيد: في مفهوم المدرسة

يثبت الاستقراء أن هناك تساهلا في استعمال لفظ المدرسة، وفي إسقاطاتها التعميمية التي لا تلتقي على معنى محدد. يعني لفظ المدرسة ــ في عموم الحال ــ التجمع الاعتباطي لمجموعة من المبدعين في مكان واحد[1]. ومن دلائل هذا التساؤل إطلاقات من نحو مدرسة باربيزيو Barbezieux، مدرسة جنيف Genève في النقد الأدبي، مدرسة كونستانس Constance، مدرسة الجزائر[2] أو مدرسة نيس Nice. الأكيد أن مجموع هذه التسميات لا يعدو الاستعراض، وإن كان فيها ما يدل على خلايا تفكير وأرضيات إبداع، حتى وإن لم يكن بين ممثليها صلة خارج الاعتبار الجغرافي.

ما في المعجم الأدبي يأخذ فسحة عن هذا الذي قدمنا، ففيه أن المدرسة تعني المكان الأساسي لتكوين القرّاء وأيضا تكوين المؤلفين والكتّاب. من هنا تأثيرها الواضح في إنتاج وفي استقبال النصوص ودورها في ترقية ذلك[3].

أما الذي استقر في التداول بما يشبه الإجماع، فهو معنى التقليد الذي أصبح لفظ المدرسة يعنيه بعد أن حوّله الاستعمال من المعجم. نلحظ هنا وهناك تناولا يشير إلى التيارات وأصحابها، وإلى الخيارات ومروّجيها، وإلى الأفكار وصُنَّاعها وإلى النظم الفكرية ورعاتها ومُواليها، كل ذلك بغطاء من عبارة "المدرسة" وما هو داخل في حقول دلالاتها. ورغم ما لها من استقلالية وخصوصية، فقد ظلت بعض الجهات تأنف من أن تُسمَّى مدرسة (الأمريكيون على سبيل المثال) لأنها تسمية غير ناجعة، هي إلى الترف أقرب منها إلى الدقة، وظل بعض الباحثين -منهم حسام الخطيب — يفضلون وضع «كلمة مدرسة بين قوسين حيثما كان ذلك ممكنا.»[4]

يُبقِي على هذا اللفظ في مسالك التعبير عن تجربة الفكر والكتابة، ما فيها من حضور الكُتّاب وبريقهم ــ وإن مؤقتا ــ وما لأفكارهم من انتشار بالنظر إلى تأثيرها سلبا وإيجابا. كثير من الشخصيات ظهرت وانتشرت أفكارها ولم يسعفها في البقاء سوى أن صورا لها ولمشاريعها أُطِّرَتْ، بفعلٍ ما، فتجاوزت فرديتَها إلى الإطار العام، واقتحمت الفضاء العام فتنوّع عليها التناول بما حافظ على آنيتها إلى حين.

عملت التاريخانية ــ بمفهوم الأمريكي ريماك ــ في تصنيف كثير من الأفكار، وفي تحييدها عن الواقع النقدي ولكنها لم تفلح في إزاحتها بوصفها منجزا قصاراه الإحالة على وظيفة لم يعد هناك ما يدعو إليها.

وعملت الواقعية ــ بالمفهوم السوسيولوجي للوظيفة الأدبية ــ على فر ض تراتبية الأفكار بحسب من يتلقاها ومن يصوغها وفق عصور إنتاجها وسياقات استقبالها، وإعادة صياغتها انسجاما مع منطق التداول، وبذلك خضعت صور الكُتّاب وتأثيراتهم إلى طبيعة النُّظُم التي تستوعبهم وتستفيد من وجودهم. فلمنطق الجماعات logique des masses دور في إنشاء خطابات تعكس حاجاتها الثقافية والجوع الفكري الذي تكون نوعيةٌ من الشخصيات الثقافية أصداءً له.

واستثمرت سيكولوجية الفعل الأدبي ــ كتابةً واستقبالا ــ في جدلية الحضور الخطابي بمجموع علائقيته وآليات انتقاله بين مختلف الدوائر، مع ما يعني ذلك من قصدية في المواقف ومن غائية في تشكيلها والبقاء من خلالها في خارطة التفكير الإنساني.

هل "من" ينطلي عليهم وصفُ المدرسة على وعي بهذا الفهم؟ تلك مشكلة أخرى على ما يبدو!

1. المدرسة الفرنسية

في غالب الأحوال تذكر المدرسة الفرنسية في مقابل المدرسة الأمريكية[5]. وهي مقابلة تشي بكثير من الخيارات والمواقف المتعارضة، ومن الممارسات المقارنة أيضا.

بين التاريخ والإيديولوجيا

فالمدرسة الفرنسية، في العهود الأخيرة، تتجاوز الوطنية ولغة الكتابة إلى «اتجاه عام ــ يقول سعيد علوش ــ خلق أتباعا ببقاع كثيرة بما فيها أمريكا؛ فهذه المدرسة تقترح أساسا صلبا لكل بحث جاد، هو المدونة الجيدة...ومعرفة ما فوق-وطنية، تعززها ثقافة لغوية، وتجميع لعديد من الأحداث الفرعية، تحيل على الحضارة.»[6]

لا شك أن المدرسة الفرنسية سابقة تاريخيا على غيرها، وأن فضاء فرنسا الاستراتيجي ساعدها على أن تكون مجمعا لتيارات كثيرة. ثم إن لتاريخ فرنسا الاستعماري (التوسعي) دورا في صناعة ميزان قوى كانت لها فيه شبه هيمنة، ورائحة التفاف، أساسهما عقلية التفوق وذهنية

الامتياز وهو ما يسميه سعيد علوش بـ «إطار علاقات الأسباب بالمسببات التاريخية، أي أن علاقات القوى بينها وبين باقي الآداب لعبت دورا أساسيا في بلورة شكل مدرسي، يستلهم مقوماته داخل مفهوم التميز والأمجاد التاريخية. »[7]

واتساعا في هذا المعنى، يضيف حسام الخطيب إلى هذه العوامل عوامل أخرى تتلخص في احتضان فرنسا

« منذ البدء الدراسات الخاصة باللغات الرومانسية وهي لغات أقطار أوربة الجنوبية التي تفرعت عن اللاتينية واستقلت عنها، وأخذت منها بالتدريج امتيازها الخاص، بحيث لم تعد اللاتينية لغة اللاهوت والثقافة والسياسة والطبقات الراقية كما كانت في العصور الوسطى، ونظرا لاهتمام فرنسا بهذه اللغات الرومانسية ونظرا لأن ثورة فرنسا على اللغات اللاتينية تبلورت في شكل اتجاه أدبي فكري [...] فإن الفرنسيين كانوا أول من تنبه إلى قيمة التراث المشترك بينهم وبين المناطق الأوربية الأخرى، مما خلق الأساس الأول للتفكير في الأدب المقارن. »[8]

كما أنه يحصَى للحكام المتعاقبين على فرنسا دورٌ في استتباب الفكر المقارني، أساسه السعي إلى أن يكون بلدهم مركزا للإشعاع الثقافي على قواعد المراس الأدبي المعمّق يتسع إلى أوربا بأكملها، ويكسب ــ طبعا ــ فرنسا المركزية المنتهية إلى الهيمنة وإلى أشكال الأفضلية المختلفة.

تفاعلت هذه العوامل مع غيرها، فنشأ من الكتّاب من تلمس الحاجة إلى تلاقح الفضاء الأوربي ـ بما في ذلك الفرنسي ـ مع بعضه، وانتبه إلى المشترك الجامع بين المجتمعات والثقافات، فدعا إلى ذلك بحماس دعوة أسهمت بقدر كبير في ظهور الأدب المقارن. هذه السيدة دي ستيل Madame de Staël (ت. 1817) تزور ألمانيا، وتنشر حصادا لرحلتها سنة 1810 عن ألمانيا De l'Allemagne تنتقد فيه « أولئك الذين يحتقرون الآداب الأجنبية ولا يهتمون بدراستها، ودعت إلى دراسة آداب الآخرين في لغاتها الأصلية، وألقت نظرة فاحصة على آداب الشمال وآداب الجنوب، وأبانت ما بينها من وجوه الشبه والاختلاف »[9]؛ وما كان لكتاب دي ستيل إلا أن يترك أكبر الأثر في الطبقة الفرنسية المثقفة « لأنه مدّ واحدا من أوائل الجسور الفكرية والاجتماعية بين بلدين متجاورين، لم تكن العلاقة بينهما دائما على ما يرام. »[10]

لا بد من ملاحظة أن الذهنية الفرنسية، في هذا السياق، كانت مدفوعة إلى مقاومة التأثير الأجنبي (الذي حاربته دي ستيل) على نحو ما قدمنا، غير أن فعالية النقاش بين أنصار القديم وأنصار المستقبل في فرنسا انتهت بالجميع إلى بلورة فكرة الأدب العالمي، وإلى الدعوة إلى فكرة تكافؤ الإبداع الفني عند مختلف شعوب الأرض[11] حيثما كانوا زمانا ومكانا.

البنية الفكرية

في صميم هذه النظرة إلى مسألة التفاعل الأوربي، طفح إلى السطح الوعيُ بدراسة عوامل التأثر والتأثير التي لا يمكن لأي طرف النجوةُ منها، بيد أن الأطراف ــ محكومةً بالنظرة الداخلية إلى ذاتها ــ تنظر إلى نفسها بوصفها مؤثرة لا متأثرة، وهي نظرة كثير من الباحثين الفرنسيين، أحدهم آبل فيلمان Abel-François Villemain الذي اشتغل بشكل شبه كلي على قضية التأثير هذه وجعل من مضمونها « فحص الأثر الذي تركه كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر على الآداب الأخرى وعلى العقلية الأوربية عموما »[12]، ثم طبع الكتاب ــ وهو سلسلة محاضرات ألقيت بجامعة السربون طبعة جديدة سنة 1840، أكد فيها فيلمان بأن « محاضراته كانت أول محاولة تتم في جامعة فرنسية لإجراء "تحليل مقارن" لعدة آداب حديثة. »[13]

ثم إن التوجس العلمي، وإحكام الترتيب البيداغوجي، مشفوعَين بإسعاف الظروف الثقافية والسياسية هَيَّآ فرنسا لأن تكون فضاء للأدب المقارن على أساس من درس "علاقات الأسباب بالمسببات بين الآداب الوطنية"، لآجال مديدة، إلا أن المفاهيم المستخرجة من هذا المنظار تأسست واستقرت ضيّقةً حصرت الأدب المقارن في مجالات ومفاهيم لم يثبت بها أمام النقد، ومع الوقت شكلت ردود أفعال في المنظومات المعرفية المغايرة للمنظومة الفرنسية، واتسعت في تحديداتها وتطبيقاتها بما أبعدها كثيرا ــ ما عدا بعض المشتركات ــ عن الرؤية الفرنسية.

تلخص الأداء الفرنسي، في المنظور النقدي العام، والأمريكي على جهة الخصوص، في «التجميع الضخم للأدلة الخاصة بالعلاقات الأدبية خاصة فيما يتعلق بتاريخ مكانة الكتّاب وبالوسطاء ما بين الشعوب»[14]، وليست تلك

بالسبيل المؤدية إلى تسوية النظرة إلى الآداب على أساس من حياد في التناول هو الأمان من الانزلاق إلى الخيارات المحدودة، وإلى المعالجات المنحازة، بل هي طريقة تبتعد عن النقد الذي هو أكثر من فرضية في مثل هذه الدراسات. هو أصل الفرز بين النصوص وبين التقاليد الأدبية التي تقرّب بين الآداب أو تباعد بينها، وعدم اعتماده يفضي في أحسن الأحوال إلى الافتراض حيث يجب اليقين، وإلى محدودية الاستنتاج حيث يطلب سعته وعمقه. فمن العسر بمكان البرهنةُ على أن عملا فنيا تأثر غيره[15] قام على أنقاض غيره، أو امتد منه بأي شكل من الأشكال، وإن وجدت قرائن نصية محيلة على المشابهة أو موهمة بها، إلا إذا دلّ اللاحق بالنص المصرّح على أن أرضيته من السابق عليه بالتعيين.

وفي المحصلة لا يمكن لدرسٍ هذا أساسُه إلاّ أن يكون خارجيا «غالبا ما تعيبه العواطف القومية الضيقة والرغبة في حساب الثروات الثقافية، أي حساب الدائن والمدين في أمور الفكر.»[16]

بداية التحولات

هذه الرؤية الفرنسية لم تقم على إجماع في الواقع، أو لم يصمد حولها الإجماع بظهور مقارنين فرنسيين لم يكونوا يؤمنون بتفاصيلها كلها، من نحو تين Hippolyte Tean (ت. 1893) برينوتيير Ferdinand Brunetière (ت. 1908) وسانت بوف Charles-Augustin Sainte-Beuve (ت. 1869)، وهي مجموعة كان لها حماس غير خافٍ وسعيٌ غير كليل للتأسيس لتاريخ أدبي يتجاوز الحدود الوطنية الفرنسية، وللسعي إلى توسيع الفضاء المعرفي داخل أوربا استجابة إلى مقتضيات عامة كان السياق الأوربي وطبيعة العلاقات الثقافية داخله تدعو إليها.

وحتى هذا المنحى العام لم يكن ليقدم الحلول لمشكلات انغلاق واتساع الآداب في أوربا يومها، فقد ظل البحث يتراوح في دوائر تتواجه بالمفاهيم ولا تخرج من مواجهاتها بطائل، مما أعطى انطباعا بوجود أزمة ضاق بها الأفق وصرف كثيرا من الكتاب إلى البحث في تاريخ الأفكار، والتيارات والمذاهب بأنفاس هي أقرب إلى القلق لأنه لا يقين فيها. نجد شيئا من ذلك ـ وليس هو بالهين ـ في كتاب يصفه ريمون طحان بـ «أبلغ مؤلف أنتجته الدراسات المقارنة في فرنسا»[17] هو كتاب (أزمة الضمير الأوربي في القرن الثامن عشر la crise de la conscience européenne au XVIII[e]) لبول هازار Paul Hazard (ت. 1944) المنشور سنة 1926، وفي (بيبليوغرافيا الأدب المقارن) لفرناند بالدنسبرغر Fernand Baldensperger (ت. 1958)، وغيرهما.

التأسيس الحقيقي

عمليا، ظهرت ملامح المدرسة الفرنسية ـ بوصفها اتجاها ـ «مع ظهور أول كرسي للدراسات المقارنة، وأول مجلة للأدب المقارن، وأول مقال حول (الكلمة والشيء)»[18] le mot et la chose، وهو ظهور تبلورت من خلاله التهيؤات الأولى والحقيقية لأن تكون فرنسا أرض فتح ـ في أول الحال على الأقل ـ للأدب المقارن، مع ما يتبع ذلك. وقد تبعه. من لواحق مكملة من أسماء أثثت جيلا بأكمله، وآثار، ومعالجات ومؤسسات أصبحت مرجعية فيما بعد.

في كل حال، التصق بالمدرسة الفرنسية مبدأ مقارنة أدبين قوميين لأن مقارنةً هذه طبيعتُها «تفضي إلى نتائج محددة ومفيدة، وتخدم العلاقات الأدبية الثنائية، وبذلك فهي تخدم العلاقات الثنائية بين أمّتين»[19]، وفوق هذا فإن فكرة المقارنة، من أي وجه كانت، تزيد بمعرفة الآداب المقارن بينها معرفةً وبتاريخها درايةً، والذي هو فتح يحسب لهذا العلم هو أن الآداب القومية وتاريخها كانت مسألة داخلية، أي أنها لم تكن تعرف إلا من داخلها. فالذي اختلف بدينامية الأدب المقارن، أنه أصبح ينظر إلى أدب أمة ما بمنظار غيرها، ومن هنا اتسعت الإيجابية إلى الإضافة إلى الأدبين المقارن بينهما معا. يقول عبده عبود:

«إن الغرض من دراسة علاقات التأثير والتأثر هو إكمال كتابة تاريخ الآداب القومية. ومن خلال تلك المساهمة يضيف الأدب المقارن إلى تاريخ الآداب جانبا كان مؤرخو الآداب القومية قد أغفلوه. فقد كانوا يؤرخون لكل أدب قومي بمعزل عن الآداب القومية الأخرى، ولكأنه تاريخ التطور الداخلي لذلك الأدب فقط. لم يعر مؤرخو الآداب القومية اهتماما لعلاقة كل أدب بالآداب القومية الأخرى، إلى أن جاء الأدب المقارن في صورته المبكرة [...] فسدّ تلك الثغرة في تاريخ الأدب، وبين أن تاريخ أي أدب قومي ليس مجرد تاريخ

ما يجري ضمن ذلك الأدب من تطورات، بل هو أيضا تاريخ ما يتم بينه وبين الآداب القومية الأخرى من تبادل وتفاعل.»[20]

التجييل

إن المبدأ التاريخي الذي هو أساس المدرسة الفرنسية تكرَّس في فكرة الأجيال التي تعاقبت على سيرورتها، وبها على الأغلب تبلور مفهوم المدرسة[21]. فالتجييل عبَّرَ عن استمرارية وتطوير الآليات والمناهج؛ فبعد المؤسسين الأوائل من أمثال جان جاك أمبير Jean-Jacques Amber (ت. 1864)، وآبل فيلمان وسانت بوف، ظهر جيل ثان منهم مارسل باطايون Marcel Bataillon (ت. 1977)، جان ماري كاريه Jean-Marie Carré (ت. 1958)، جاك فوازين Jacques Voisine (ت. 2001)، روني اتيمبل René Etiemble (ت. 2002)، ماريوس-فرنسوا غويار Marius-François Guyard (ت.2011)، وقد تعاقبوا جميعا على كراسي الدراسات المقارنة وعلى إدارة مجلة "الأدب المقارن" خدمة لأهداف المدرسة وعملا بمبادئها. ثم استمر نسق المدرسة مع جيل ثالث من المؤلفين طبع حضوره بتأليف الكتب التعليمية من أمثال كلود بيشوا Claude Pichois، لوجون Lejeune، إيف شوفريل Yves Chevrel ودانيل-هنري باجو Daniel-Henri Pageaux؛ فتوسيع وتنويع مجالات العمل وتطوير المناهج والمقاربات أكد تاريخية المدرسة الفرنسية.[22]

المراحل

ولئن كان تاريخ الأدب المقارن في فرنسا يعتبر أمبير وفيلمان أبوين حقيقيين للأدب المقارن في هذا البلد فإن جوزيف تكست Joseph Texte (ت. 1900) في دراسته الموجزة (جان جاك روسو وأصول العالمية الأدبية) الصادرة عام 1897 بمعية لويس بتز Louis Paul Betz (ت. 1903) يعد مؤسس المقارنة الفرنسية على نحو علمي[23] التي دشنت جامعيا في السنة نفسها بإنشاء كرسي التاريخ المقارن للآداب بجامعة ليون Lyon[24]. وكان تكست أول من شغل كرسي الأدب بجامعة السربون سنة 1910[25]، وحاضر فيه عن «تأثير الآداب الجرمانية في الأدب الفرنسي منذ عصر النهضة»؛ وبإنشاء الكراسي الثلاثة في ليون (1897)، باريس (1910) وستراسبورغ (1918) تنتهي المرحلة الأولى من الأدب المقارن بفرنسا.[26]

أما المرحلة الثانية فيفتتحها ـ على صعيد التأليف ـ مقال تنظيري شهير لفردناند بالدنسبرجر بعنوان "الكلمة والشيء" le mot et la chose الصادر بمجلة "الأدب المقارن" سنة 1921، يحصي فيه الكاتب بعض المآخذ على سابقيه في اصطلاح الأدب المقارن وفي مضمونه. أعني فهمهم لمضمونه. إذ يرى مثلا أن في إطلاق سانت بوف سنة 1868 للتسمية بعض الإساءة لهذا النوع من الدراسات لنزوعه إلى السهولة والتسطيح، بما لا يساعد في تكوين منهجية خاصة بهذا العلم، وبما لا يبعث على أخذه مأخذ الجد.[27]

واللافت في هذا العمل كذلك إشارة الكاتب إلى دور رحلات الكتّاب الفرنسيين، وأعمال الاستشراق في صناعة مخيال فرنسي تتضخم فيه الأنا بإسراف واضح ليحقّر الآخر ويمتهنه، وفي أحسن الأحوال يختزله فيما لا يشبه حقيقته. وقد التصق هذا المراس بكُتّاب من أمثال جان ماري كاريه.

الملاحظ على تناول بلدنسبرغر أنه كان مدفوعا بدوافع كونية مكنته من إرساء رؤية شاملة وتاريخية أوربية «جعلت من الوعي بالخارج جزءا من وعيها بالذات الوطنية»، ومكنته من رسم فضاء الأدب المقارن من خلال ملاحظته ما انتهجه بعض الكتاب النافذين ـ مثل باري ـ من الاستغلال الحرفي للمعرفة بالخارج القائمة على تجميع مختلف الموضوعات في عناصر بسيطة لا تعمّقها ولا تجددها؛ ومن خلال نشر التداخلات بين السلاسل الوطنية للأعمال الأدبية، وهو مراس يحدّد فضاءات التأثير الخارجية لكبار الكتّاب.

وبقدر ما يقف عند المآخذ، يحصي بالدنسبرغر حسنات سابقيه من أمثال برينوتيير الذي يظل برأيه «المدافع الرئيسي عن هذه الدراسة المقارنة للعصور الأدبية الكبرى، ويشهد عمله النقدي عن رغبة متنامية لربط تاريخ الآداب الخاصة بالتاريخ العام للأدب الأوربي، ويظهر لديه بأن مفهوم الأدب هو واحد بحق، عبر انتشاره المتزايد في الفضاء والزمن.»[28]

يتبنّى بالدنسبرغر، وجناح من المدرسة الفرنسية معه، فكرة قيام الأدب المقارن على الانتشار وتجاوز الحدود الوطنية واللغوية، بناء على علاقات خلفها التاريخ الأدبي بعمقه وسياقاته، لا يمكن القفز عليها، فتأسيسا عليها تتمثل أهمية الأدب المقارن في المساهمة في استعادة الماضي

بحمولته لا في مجرد رصد الأنظمة والأطر العامة، أو في إحصاء الامتداد الافتراضي للموضوعات، والوسائط والميثات mythes.[29]

يتسم دخول المدرسة الفرنسية في ثاني مراحله بتجاوز بالدنسبرغر لآراء أسلافه جوزيف تكست، جاستون باري وفرناند برينوتيير لأنها بتصوره قديمة. وناقش بعمق فكرة "الغائية في التطور" وآلية إفضائها من السبب إلى النتيجة. يقول بها برينوتيير، لأنها تلغي مبدأ العفوية في الإبداع وتفرض على الأجناس الأدبية حتمية تخضع الماضي لغائية لا تنسجم مع الواقع.

وبقدر ما يستبعد بالدنسبرغر تاريخ الموضوعات، والموازنات، والمصادر والرؤية الاجتماعية، من الأدب المقارن، وهو ما يقول به تين، فهو يرفض التأكيد على العوامل المناخية لأنها تؤدي إلى تهوين غيرها، ولا يستبقي من عوامل الدرس المهمة، أو يكاد، سوى للبواعث والمناهج ذات المرونة التطبيقية في نظره.

جاء فان تيغم، أعظم المقارنين الفرنسيين، بعد بالدنسبرغر، ليقدم أشمل دراسة للأدب المقارن في كتابه الموجز "الأدب المقارن"[30] وأكثرها تأثيرا في مسار البحث المقارن، يعلن فيه أن

La littérature comparée est une science en grande partie française[31]

وفيه يقول

On emploie concurremment à "littérature comparée" d'autres termes plus exacts et plus clairs, mais moins brefs et moins commodes.[32]

وتأكيدا لعمق أطروحته، ظل فان تيغم يواصل نشاطه في التأليف، فقد أسهم منذ عام 1911 في "مجلة الدراسات التاريخية" واقفا على كل جديد ومنبها عليه، وأبرز ما يحسب له، بعد كتابه سابق الذكر، مقاله سنة 1912 بمجلة "الأدب المقارن" المذكورة قريبا، بعنوان " التأليف في تاريخ الأدب: الأدب المقارن والأدب العام".

جاء أحد أبرز تلاميذ فان تيغم، بول هازار، بتغذية النقاش وإذابة التفرقة بين الأدب المقارن والأدب العام، لأنها تفرقة مصطنعة كما يرى ويرى معه كثيرون، وعالج ذلك بكثير من الحماس في كتابه "أزمة الضمير الأوربي" المنشور سنة 1935، بمقدمة موجزة تحيل على مجمل آرائه في الموضوع.

توقف نشاط المدرسة الفرنسية أثناء الحرب الكونية الثانية، تدريسا وتأليفا، ولم يعد، كما يلاحظ الطاهر مكي، إلا بعدها، حيث استؤنف تدريسه بجامعة ديجون Dijon سنة 1949، وجامعة بوردو Bordeaux سنة 1951، وجامعة تولوز Toulouseسنة 1952 وجامعتي غرونوبل Grenoble وإيكس Aix-en-Provence منذ عام 1966.[33]

كما أن أبرز فعل تأليفي فرنسي، بعد الحرب، هو كتاب فرنسوا ماريوس غويار الصادر سنة 1951، وهو كتاب موجز تبدو فيه آثار فان تيغم، معروف في الأوساط العربية لأنه ترجم مرتين، ترجمة مصرية أولى بعناية محمد غلاب سنة 1956، وهي ترجمة رديئة بطبعتها إلى حد بعيد، وترجمة لبنانية بعناية هنري زغيب صدرت ببيروت سنة 1978 .[34]

لا شك أن المدرسة الفرنسية، بالطابع المؤسساتي الذي اتخذت عبر السنين، وبناء على التقاليد المقارنية التي اتسعت على يد أجيال من كتّابها، قد اكتسبت شرعية تاريخية وفرضت توجهات في الدراسة لم تنازَع الكثيرَ منها، إلا أنها تعرضت ـ ابتداء من خمسينات القرن الماضي ـ إلى نقد لا يخلو من حدة آتٍ على جهة الخصوص من الأمريكيين، على رأسهم رينيه ويليك وأوستين وارين كما سنرى. أحدث هذا النقد هزة في الضمير المقارن الفرنسي، وأدى إلى مراجعة كثير من مسلماته.

نشأ التوجه إلى إعادة تشكيل النظام المقارن الفرنسي نهاية ستينيات القرن الماضي، مع المقارنَيْن كلود بيشوا وأندريه ميشيل روسو، إذ

Dès lors, la littérature comparée vise, dans le domaine proprement littéraire, plus que l'étude des sources ; celle des genres à l'échelon de leurs réalisations en plusieurs pays, celle des thèmes ou des mythes, mais aussi la comparaison de la littérature avec d'autres arts, comme également elle se combine avec la littérature générale[35].

أنسل هذا التشكيل الجديد خارطة أعم للتقاليد المقارنة بفرنسا، ألمّ بها ـ أو كاد ـ كتاب للثلاثي بشوا، روسو وبرونيل "ما الأدب المقارن؟"[36] وهو نسخة موسعة لكتاب

الأوَّلَيْن "الأدب المقارن"[37]، في فصله الأول استعراض للجانب التاريخي ولإجراءات المقارنة التقليدية، وفي بقية الفصول دعوات ضمنية إلى إعادة التفكير في كثير من ثوابت المقارنة وإلى مراجعات يقتضيها تطور هذا العلم.

مراجعات التأليف الثلاثي ــ وإن مبقية على الطرق التقليدية ــ تأخذ في الاعتبار، بل تشرعن الممارسات التي غدت خيار المقارنين الجدد بانضمامها إلى مجال دراساتهم. تلك حالة المقاربات متعددة الاختصاصات؛ فافتراضا لوجود علاقات بين المجال الأدبي والإنتاجات الفنية أو العلمية، يفترض أن هناك تطورات في الأفق النقدي وأيضا وخصوصا على مستوى تعاريف الأدب المقارن ذاته.

إن مراس المؤلفين، من ناحية أخرى، وهو أمر لافت له أهميته، يحدث توازنا بين التحقيقات السلالية وبين الدراسات الموضوعية أو الاشتغال على ظاهرة التناص، بالرجوع إلى التعددية اللغوية[38] والتعددية الثقافية، مراهنين على تعددية المعنى الأخير للوصول إلى الجماعات اللغوية المختلفة في بلدان متعددة اللغات، وإلى إنتاج جماعات يختلف بعضها عن بعض أو جماعات تتحدث لغة واحدة ولكن لا تنتمي إلى حيّز جغرافي وسياسي واحد.[39]

إن هذه المرحلة من تاريخ الأدب المقارن تؤكد ما أثبته تطور هذا العلم، بما يعني أنه، من جهة مناهج دراسته ومن جهة تعاريف الفعل الأدبي التي تقف وراءها، علم لا ينفصل عن مجال "الأدب العام."[40]

2. المدرسة الأمريكية

المدرسة الأمريكية هي في ظاهر حالها المعادل الجغرافي للمدرسة الفرنسية، ولسائر المدارس المعروفة في الأدب المقارن، كالمدرسة السلافية. أكيد أن اختلاف التسمية يقوم على اختلاف كثير في الأسس وفي المنطلقات، كما لا يلغي المشتركات التي تقرّب المبادئ وتدني مسافات النظر، على أن ما بين هذه التوجهات من تباعد يسوّغ وجود المدارس من أساسه، كما يوسّع من أفق الدراسة، وهو ما نحاول أن نفعله.

إشكالية التسمية

يصحب تسمية المدرسة بعض الإشكالات التقنية منها، على نحو ما قدمنا ونحن نتحدث عن المدرسة الفرنسية وعلى نحو ما ذكرنا أثناء التأصيل للمفهوم، غياب الإجماع المطلق على مبادئها وشذوذ قسم ــ وإن يسيرا ــ على أصولها. الأمر الذي يبعث على مراجعة مصطلح "المدرسة" حتى مع الأمريكيين.

هذا روني ويليك (ت. 1995) في عز استغراقه في الدفاع عن الأصول التي سوّغت التسمية، يذكر ــ بعد ذكر تجاوز بعض المقارنين الفرنسيين لمقتضيات المدرسة الفرنسية ــ يذكر أنّ لما يعرف بالمدرسة الأمريكية شُذَاذًا لا يؤمنون بالأصل الأمريكي الجديد المعارض للمدرسة التقليدية، ورغم وجودهم على التراب الأمريكي فهم يسبحون ضد تيار مدارسها. يقول: « وأعرف أيضا أن العديد من الباحثين الأمريكيين لا يتفقون ووجهة نظري.»[41] برغم ذلك، شاع استعمال اصطلاح "المدرسة" ودرجت عليه الإطلاقات هنا وهناك، وهو في الأغلب يعني الخيارات في أساسياتها لا الإجماع حولها.

الإرهاصات

ربما حسن التذكير بإرهاصات المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن، وبمقدمات تاريخية انتهت إلى ما انتهى إليه الدرس الأمريكي على يد أعلامه وفي أبرز محطاته كما سنتحدث.

تلخيصا من كتاب الطاهر مكي[42]، يظهر أن للأمريكيين اهتماما بالأدب المقارن سابقا على المدرسة التي عرفت به، وأن له حضورا في الفضاء الأمريكي مشابها لمعادله في الفضاء الغربي وإن اختلف التناول وتباينت المحطات.

أوشكت الفواتح أن تظهر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر على يد إمرسون Ralph Waldo Emerson (ت. 1882) الذي بدأ بالدعوة إلى ربط الأدب الأمريكي بالآداب الأوربية؛ وجورج كورتيس George William Curtis (ت. 1892) الذي أسهم كثيرا في إذكاء الحماس للعالمية؛ وجامعة هارفارد في كمبريدج التي أدخلت ثقافة أوربا وفنها إلى العالم الأمريكي؛ وإدوارد إفريت Edward Everett (ت. 1865) الذي أدخل النقد الألماني ببراعة إلى أمريكا؛ وهنري لونجفيلو Henry Wadsworth Longfellow (ت. 1882) الذي فتح الأبواب الأمريكية على التيارات الجديدة الوافدة من أوربا. كل هؤلاء ممهّدون، إلا أن خطوة التأصيل الأولى خطاها شاكفورد

Charles Chauncy Shackford (ت. 1891) إذ كان أول من ألقى محاضرة عن الأدب المقارن أو الأدب العام في جامعة كورنيل Cornell Univsersity سنة 1871.

ثم بدأ الأمر يتسع في أمريكا بالمفهوم المؤسساتي ؛ ففي سنة 1927 أنشئ قسم للأدب المقارن يرأسه لين كوبر Lane Cooper (ت. 1959)؛ أما في سنة 1912 فقد أنشأ غيلي Mill Gayley Charles (ت. 1932) بجامعة كاليفورنيا قسما للأدب المقارن وقد كان قبلها يحاضر عن "النقد الأدبي المقارن" في جامعة متشجان Michigan ؛ وفي العام الجامعي (1890-1891) أنشأت جامعة هارفارد Harvard أول كرسي للأدب المقارن في الولايات المتحدة شغله مارش Arthur Richmond Marsh (ت. 1937) لأول مرة. على أن القسم الحقيقي للأدب المقارن في أمريكا أنشأته جامعة هارفارد سنة 1904 ، وتولى رئاسته سكوفيلد William Henry Schofield (ت. 1920) بمعية مؤسس "الإنسية الجديدة new-humanism" إرفنغ بيبيت Irving Babbitt (ت. 1933)، ثم تولى رئاسته هاري ليفن Harry Levin (ت. 1994) سنة 1946 ، ليخلفه عليه والتر كايزر Walter Kaiser [43]. وترتيبا بحسب الاهتمام بالأدب المقارن ، تقع جامعة كولومبيا Columbia University ثانيا بعد جامعة هارفارد ، فقد أنشأت قسما للأدب المقارن عام 1899 ، رأسه وود بري ثم ضم إلى قسم اللغة الإنجليزية بعد سنوات. وفي بداية العقد الثاني من القرن العشرين ، أنشأت جامعة كالفورنيا California Univesity قسما للأدب المقارن سنة 1912 لم يعمر أكثر من أربع سنوات ؛ كما أنشأت جامعة تكساس Texas Universityسنة 1919 قسما للأدب المقارن عمر إلى سنة 1926 ؛ كما ضمت جامعة الدولة بكارولينا الشمالية the University of north Carolina قسما للأدب المقارن منذ عام 1925 درّس به المقارن فريديرك فرنر آتي الذكر.

سكون ثم نهوض

أوشك الأدب المقارن أن ينسى بأمريكا ، إذ أخذ منحنى تنازليا انتهى به إلى ما يشبه التوقف ، خصوصا أثناء الحرب الكونية الثانية ، وما عاد إلى الحياة إلا عندما فتحت جامعة ييل Yale أبوابها عام 1948 وجامعة إنديانا Indiana سنة 1954 وكانتا أغلقتا أثناء وبعد الحرب بسنوات.

وتنويعا في المنابر ، كانت الخطوة الحاسمة في تاريخ المقارنة الأمريكية إنشاء "مجلة الأدب المقارن" سنة 1903 ، وكانت أول مجلة متخصصة في اللغة الإنجليزية ، صدر منها أربعة أعداد ثم توقفت عن الصدور. وفي سنة 1942 أنشأ آرثر كريستي Arthur.E. Christy (ت. 1944) أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب المقارن بجامعة كولومبيا مجلة "الأدب المقارن" لتعبر عن نشاط جمعية الأدب المقارن وقد عمّرت المجلة أربعة أعوام ، أي إلى سنة 1946 وصدر منها ثلاثون عددا وتوقفت بوفاة مؤسسها. وفي عام 1949 أنشأت جامعة أوريجون Oregon العدد الأول من مجلتها "الأدب المقارن" ؛ أما جامعة كارولينا الشمالية فأصدرت سنة 1950 كتاب "مصادر الأدب المقارن" من تأليف بالدنسبرغر وفرنر فريديريش Friedrich Paul Werner ، وحوليات "الأدب المقارن والأدب العام" ، وظهر المجلد الأول منها سنة 1952 ، وكانت مجلة "أخبار الأدب" منبرا ينشر أفكار الجمعية الوطنية رغم أن صدورها لم يكن منتظما ؛ وفي سنة 1963 أصدرت جامعة ميرلاند University of Maryland مجلة "دراسات في الأدب المقارن" فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر ؛ وظهرت سنة 1967 في شيكاغو Chicago University مجلة "النوع الأدبي" متجهة إلى دراسة الأنواع الأدبية ؛ وعن جامعة فرجينيا University of Virginia صدرت مجلة "التاريخ الأدبي الحديث".

شهد الاهتمام الأمريكي بالأدب المقارن تنويعا تجلى في نشأة الجمعيات وانتشارها في الفضاء الأكاديمي. ففي سنة 1942 ، وبجهد من آرثر كريستي قرر المجلس القومي لأساتذة اللغة الإنجليزية إنشاء "جمعية الأدب المقارن" ؛ وفي سنة 1952 ظهرت "الرابطة الدولية للأدب المقارن" association international litterature بجامعة أوكسفورد ، عقدت مؤتمرها الأول عام 1958 في شابل هيل Chapel Hill بكارولينا الشمالية ؛ وظهرت عام 1960 جمعية وطنية من المتخصصين في الدراسات المقارنة ، وهي فرع عن المنظمة العالمية للأدب المقارن ، تضم عددا هائلا من المقارنين الأمريكيين.

أصالة أم امتداد ؟

بدءا ، يبدو للناظر من الخارج ــ كما يقول سعيد علوش ــ أن هناك اختلافات بين المدرسة الأمريكية والمدرسة

الفرنسية، غير أن الحقيقة، بنظره، هي أن هناك استمرارية للمدرسة الفرنسية في المدرسة الأمريكية، على أن الفارق يتمثل في المنحى الجمالي الذي تحويه المدرسة الأمريكية تحت عنوان ما يسميه رينيه ويليك بالأدب العام.

الذي يبدو واضحا أن الاختلاف موجود، وهو الذي يفسّر تسمية المدرستين. فقد قامت الرؤية الأمريكية على مناقضة الفرنسيين في جملة من الأصول. ظاهر الأمر هو هذا، غير أن رونيه ويليك يأباه، إذ يصرح أن أصوله الأوربية لا تجيز له الإجهاز على ما هو أوربي أو فرنسي؛ وجملة اعتراضاته موجهة ضد منهج لا ضد أمة. يقول: «فأنا أوربي المولد ولا أستسيغ دور المناهض لفرنسا أو لأوربا.»[44]كما قامت الرؤية الأمريكية على نقد المدرسة الفرنسية في حصرها الأدب المقارن في المنهج التاريخي، في حين يربط الأمريكيون المنهج التاريخي والمنهج النقدي باعتبارهما عاملين ضروريين في الدراسة المقارنة.

رد الفعل هذا هو الذي كان وراء نشأة المدرسة الأمريكية، إثر بحث قدمه الأمريكي من أصول تشيكية رونيه ويليك في ثاني دورات "الجمعية العالمية للأدب المقارن" بمدينة شابل هيل Chapel Hill بكاليفورنيا الشمالية سنة 1958 تحت عنوان " أزمة الأدب المقارن" the crisis of comparative literature. المؤتمر المذكور كان من تنظيم البروفسور فرنر فريدريك أمريكي من أصول سويسرية وأستاذ بجامعة شابل هيل. كانت غاية فرنر أن يجمع في لقاء علمي، في مكان واحد، زملاءه الأمريكيين بمقارني البلدان الأوربية المحررة عام 1945، وهو ما استطاع التوصل إليه بإعانة من مؤسسة فورد Ford[45].

القطيعة والتأصيل

كان تدخل ويليك أمام الجمعية المذكورة النقطة الحاسمة في مجريات الأشغال، لاتسامه بالانتفاضة ضد الخيارات الفرنسية في الأدب المقارن، بشكل حاد لم يخفَ. فبوصفه ثمرة لحلقة براغ الألسنية، ومتأثرا بالشكلانية الروسية، ندّد ويليك بالتوجه التاريخي للمدرسة الفرنسية، ودعا إلى أدب مقارن بنيوي، لثبوت محدودية بل عقم دراسة التأثر والتأثير المعروفة إلى ذلك الحين[46]. يقول ويليك في المقال المذكور: «وأنا أعتقد أن برامج العمل التي نشرها بلدنسبرجر، وفان تيغم، وكاريه، وغويار قد فشلت في هذه المهمة الأساسية. فقد أثقلوا الأدب المقارن بمنهجية عفا عليها الزمن، ووضعوا عليه أحمال القرن التاسع عشر الميتة من ولع بالحقائق والعلوم والنسبية التاريخية.»[47]

اللافت، قبل التحليل، أن جملة من أفكار ويليك اعتنقها غير الأمريكيين، فيهم فرنسيون أمثال رونيه إيتيمبل René Etiemble في كتيّب يشبه عنوانه عنوان محاضرة ويليك. فأخذا من الترجمة الإنجليزية لهذا المؤلَّف، يهاجم إيتيمبل مواطنَه فرنسوا غويار، ويراه متعصبا إقليميا وقوميا لأنه يركز كل الأضواء على الأدب الفرنسي وتأثيراته، مستغربا وحتى ساخرا من إعادة غويار طباعة كتابه (الأدب المقارن) من غير التفات إلى التطورات الحاصلة في مفهوم الأدب المقارن في كل أوربا، ومن غير أن يغيّر في طبعة الكتاب حرفا واحدا[48]. والموقف نفسه من الاحتفاظ بأفكار بالية ومن الاستمرار في الاحتفاء بأفكار غويار في كتابه المذكور، من طرف جان ماري كاري J-M. Carré الذي كتب مقدمة موجزة له أعيد نشرها سنة 1952 في أول كتاب سنوي للأدب المقارن. الموقف نفسه ـ أقول ـ الساخر والمتهجم لرونيه ويليك سجله في مقالته (الأدب المقارن اليوم) في كتابه مفاهيم نقدية[49].

هذا وإن إيتيمبل ظل على إيمانه بأهمية دراسة العلاقات المباشرة والتأثيرات الواضحة بين مدوّنتين أو أديبين. يقول:

Mon comparatiste je le veux donc rompu au dépouillement des archives, des collections de petites revues. Outre une formation d'historien, je lui en souhaite une aussi de sociologue. Je ne lui interdirais même pas la culture générale.[50]

فإتيمبل يثمن بهذا التجاذبات والتوازنات غير التاريخية، مؤكدا على شرعية المقارنة وإن بعيدا عن بؤر التأثر والتأثير. وعلى هذا الأساس فهو يشايع المدرسة الأمريكية لأنها هي التي

[...] considère que, lors même que deux littératures n'ont pas eu de rapports historiques, il est légitime de comparer les genres littéraires qu'elles ont, chacune pour soi, élaborés]….[La littérature

comparée reste non seulement possible, mais singulièrement stimulante.[51]

فإيتيمبل ، وإن بدا لرونيه ويليك في هذه النشرة ، محقا «من حيث المبدأ حين يطالب ببويطيقا (بفن الشعر) مقارنة ، وبدراسة شاملة حقا للأدب العالمي» ، فقد بدا له «متطرفا حين عبر عن رغبته في تغيير اتجاه الأدب المقارن ، وحين قال إن علينا جميعا أن ندرس اللغات الصينية والبنغالية والعربية... »[52]

إن المدرسة الأمريكية ــ في ملامحها العامة ــ تهتم بالأدب العام بما هو دراسة الحركات والأنواع الأدبية التي تتجاوز الحدود الوطنية. تفرغ للتأويل الفعلي للنص ، تُعنى بالأشكال والتوجهات الجمالية وبمعالجة المواضيع ، تشدّد على المنهج وعلى النظرية وتحدث تقريبات موضوعية بين الأدب وبين أشكال تعبيرية أخرى. يقول ويليك: «...أرى أن المفهوم الوحيد الصحيح هو المفهوم الذي لا يتهاون في شموليته ، وأرى أن العمل الفني هو كل من عناصر مختلفة ، بنية تتشكل من رموز ، تتطلب المعاني والقيم وتعطيها. أما الميل للتنقيب في ركام الماضي عن أشياء ننسب العمل الأدبي لها ، أو للتركيز على الأمور الشكلية الخارجية فلا يؤدي إلا إلى تجريد الدراسة الأدبية من محتواها الإنساني. »[53]

فمشكلة هذا الفهم مع المنحى التاريخي الذي هو مركزية المدرسة الفرنسية آتٍ من أن « التاريخ طلاء زائف وأن الناقد الحق يلفظ أحكاما صادرة من صميم الوجدان ومن أعماق القوى النفسية»[54] ، ولذلك مضت المدرسة الأمريكية على فكرة أن « الأغراض والمواضيع هي مادة لاأدبية alittéraire بحد ذاتها ، فالأديب الفذ هو الذي يحوّل ما ورث من مواضيع ويتمثلها لكي يؤثر على قرّائه ، بفضل الشكل والتعبير والإنشاء.»[55] وهذا الفهم المؤسس لخصوصية المدرسة الأمريكية بمسافاتها عن غيرها وبأثرها على منحى الدراسات الجديدة في الأدب المقارن ، هو الذي يقف وراء التصنيفات المغايرة للشخص المقارن الذي يلبس لبوس الناقد الحق « الذي يصنف ما يقرأ حسب فصائل وزمر تقوم على وشائج يحس بها ذوقه المرهف ، وقد يؤيّدها التاريخ أو ينقضها فذلك سيّان عنده.»[56]

لم يتراجع هذا الفهم في المنظور الأمريكي ، فقد ظل أعلام المدرسة الأمريكية ــ خلال المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للأدب المقارن المنعقد سنة 1976 ببودابست Budapest ــ يطالبون «بأن تتوسع نظرة الأدب المقارن لتشمل البحث عن المشابهات في الأفكار الأدبية وفي الذوق الجمالي »[57] ، وظلوا يتجاوزون شرط العلاقة التاريخية وما تفترضه من تأثر وتأثير في منطقة الأدب المقارن ، فالتشابهات الجمالية وحدها كفيلة بالكشف عن العناصر المشتركة في الأدب الإنساني.

الخيارات الفاصلة

لقد حاولت المدرسة الأمريكية ــ في جوهر فلسفتها في الأدب المقارن ــ أن تتكئ على مبدأين رئيسيين هما: الأصل الأخلاقي والأصل الثقافي:

1. الأصل الأخلاقي: يعكس الوعي الأمريكي بحجم أمته المنفتحة على الكون ، المتجهة إلى إعطاء كل أمة من الأمم قدرا من الاحترام ومن فرص التناغم والتقارب ، كل هذا في إطار خصوصيتها وانتماءاتها الغربية ؛
2. الأصل الثقافي: يمكن الأمريكيين من الإبقاء على المسافات المطلوبة والضرورية بينهم وبين المنظومات البعيدة ، مما قبل التاريخ إلى حدود القرن العشرين ، ومن التشدد في الحفاظ على القيم الجمالية والإنسانية المعدودة أصلا في الوجود ثم في الاتساع في النسيج الحضاري وفق النموذج الأمريكي في الأدب ، وأصلا دافعا إلى إنشاء تجارب ومناهج وتفسيرات موضوعية واقية من الخلط وما يؤدي إليه.[58]

صيغ هذا البناء المبدئي صيغة مختلفة في شرح منطلقات الرؤية الأمريكية ، إذ رأى بعض الدارسين قيامها على مقولات ثلاث:

1. المقولة الأخلاقية وهي على نحو ما قدمنا ؛
2. المقولة السياسية ، تنادي بالانفتاح على الآداب المختلفة قصد إدراك التراكم الثقافي والأدبي الحاصل في سيرورة ومنجزات الأمم المرافقة لتاريخها البعيد ؛
3. المقولة النقدية التي ترى أن الظاهرة الأدبية واحدة ، وإن اختلفت فضاءاتها في الزمان وتعددت في المكان ، وتنوعت تشكيلاتها اللغوية وتباعدت حدودها القومية واتسعت أطرافها الإتنية والجغرافية.[59]

فمن أجل فهم الأدب في شموليته ، وإدراكه في كليته لا بد من استجماع هذه المقولات لأنها الطريق إلى الغوص الرأسي في مكامن الظاهرة الأدبية ، ولأنها الأداة التي تمكن من رصد بانوراما ملتمّة على الخصوصيات البعيدة للمنجز

الأدبي بعيدا عن اللف حوله والتحليق بعيدا عن خصائصه العميقة.

انطلاقا من هذا ، كان للدراسة الأدبية عند الأمريكيين ثلاثة فروع هي: النظرية ، النقد والتاريخ.[60]

تتظافر هذه الفروع على تمكين الدرس من وظيفته الأساس وهي وصف العمل الفني وتفسيره ، فليس بإمكان الأدب المقارن أن ينفصل عن الدراسة الجمالية للأدب ، وليس له الاستغناء عن الخبرة بتاريخ أدبه طبيعةً ومفهوما ، وليس له بحال تجاوز نظرية الأدب لدورها الموجّه في الوقوف على مفاصل التجربة الأدبية ، وليس له أن يتخطى النقد بوصفه مراسا لتقنية ينشأ عليها الأدب ولا تكاد تعرف إلا به.[61]

فإذا كان من ناتج لهذا التغيير أن أُعيدَ النظر «في موضوع النظرية ، والنقد والتاريخ النقدي فإن مشكلة الدوافع ستحلّ نفسها بنفسها. وسنحتفظ بوطنيتنا ومشاعرنا القومية. ولكن نظام الدائن والمدين سيفقد معناه. وقد تختفي الأوهام المتعلقة بالتوسع الثقافي مثلما قد تختفي الأوهام المتعلقة بإصلاح العالم عن طريق البعث الأدبي.»[62]

وأخذا بمفهوم المخالفة ، ينسحب من هذا الإطار ـ آليا ـ من كان له تصور نقيض للأدب المقارن ولإجرائيات ممارسته. يقول ويليك: «أما الأدب المقارن الذي أعرض ، على أيدي منظريه الرسميين ، عن هذا التعاون وتمسك بالعلاقات الحقيقية والمصادر والتأثيرات ووسائط انتقال الأفكار والمؤثرات وشهرة الكتاب باعتبارها مواضيع البحث الوحيدة فيه ، فلا بد من أن يعود إلى المجرى الرئيس للبحث الأدبي والنقد المعاصرين. »[63]

هذا هو الحد الإنساني الذي عمل ويليك على الوصول إليه ، من خلال إلغاء الحدود الجنسية والحواجز السياسية ، وهذا هو جوهر ما تسميه المدرسة الأمريكية إنسانية الأدب المقارن بعيدا عمّا يظن أنه فوقية أو تجاوز. يقول ويليك: «ليس هناك أيّ ادّعاء أو استعلاء في الدعوة إلى قدر أكبر من حرية الحركة وإلى عالمية مثالية في دراستنا. »[64]

وفوق تجاوزها القومي والإقليمي أحيانا ، تستثمر المدرسة الأمريكية في الآليات النقدية الموسعة للرؤيا الشاملة والذاهبة بالدرس النقدي إلى الآفاق التي يتأخاها هذا المشروع ، ولعل ذلك ما وفّره

«كروتشه وأتباعه في إيطاليا ؛ الشكلية الروسية وتفرعاتها وتطوراتها في بولندية وتشكوسلوفاكيا ؛ مؤرخو الأفكار والأسلوبيون الألمان الذين وجدوا لهم مقلدين في الأقطار المتكلمة بالإسبانية ؛ النقد الوجودي الألماني والفرنسي ؛ النقد الجديد في أمريكا ؛ النقد الأسطوري الذي استوحى أفكار ينغ حول الأنماط العليا ، وحتى التحليل النفسي الفرويدي ، والماركسية. كل هذه الحركات والتجمعات ، مهما كانت حدودها وعيوبها يجمعها رد فعل مشترك ضد الحقائق الخارجية والنزعة التجزيئية التي لا تزال تقيد دراسة الأدب المقارن. »[65]

التنوع أساسا خطابيا

كل هذا يفسّر التنوع الذي تعرفه المدرسة الأمريكية ، كما تفسر الخصوبة المعروفة لها الآتية من انفتاح الأفق على انتماءات المقارنين الأمريكيين الإتنية ، إذ نجد من أكثرهم تأثيرا رونيه ويليك وهو من أصول تشيكية (جامعة ييل Yale)؛ هورست فرانتز Horst Frantz وهو ألماني الأصل (جامعة إنديانا Indiana University)؛ جيان أورسيني Gian Orsini وهو إيطالي الأصل (جامعة فسكنسن Wisconsin)؛ زبيغنييف فوكجفسكي Zbigniew Fokjowski وهو بولندي الأصل (جامعة بنسلفانيا Pensylvaniya University)؛ غلب ستروف Gleb Struve وهو روسي الأصل(جامعة بركلي Berkeley University) وفرنر فريديرك السويسري الأصل.

فشدة عناية الأمريكيين بالأدب المقارن أدت بهم إلى تمحيص المفهوم ، وكثرة مراجعاتهم أثمرت تحديدات أكثر دقة وأحسن ملاءمة للثقافة الكونية التي يدافعون عنها. فكثير من كتّابهم ، في أحدث توقيعاتهم يسعون إلى تحقيق التوازنات وإلى إعادة النظام للدراسات المقارنة ، بعد الفوضى التي أدّى إليها حماس الدراسات في الجامعة الأمريكية. فوضى يشهد عليها الإلحاح مرّة على ضرورة ممارسة التعددية اللغوية ، ومرة على عكس ذلك يطغى الميل إلى نظرية الأدب. ولعل الأدب المقارن يتراوح ـ في نهاية الأمر ـ بين هذه التقنية وهذا التقعيد العام.[66]

إن الثقل الذي يظهر به الأداء الأمريكي آتٍ ـ في جزء منه ـ من «مكتبة الأدب المقارن في أمريكا شديدة الغنى والتنوع. ويساعد على ذلك طبعا تنوع معرفة اللغات بسبب

الطبيعة الأممية (الكوزموبوليتانية) للمجتمع الأمريكي، وهجرة العقول المستمرة، وسهولة الوصول إلى المعلومات والمراجع نتيجة التسهيلات المكتبية الفائقة. »[67]

انتهت الرؤية الأمريكية في ثورتها إلى وجوب إضافة بعد جديد في الدراسة الأدبية، وتحقيقا للأصل الجمالي الذي هو غايتها، يتمثل في قياس الأدب بشتى الفعاليات الإنسانية الأخرى، كقياس الفن في العمل الأدبي على الفن في لوحة مرسومة، أو منظومة موسيقية وسائر ما في الفن المعماري، والنحت، والسينما وما إلى ذلك..لتنتهي المقارنة بصاحبها إلى إدراك فنية العمل الأدبي من خلال مقابلته بغيره[68].

تجلى هذا التوجه في الدراسات المقارنة وفق الرؤية الأمريكية، في تقعيدات أحد أهم المقارنين الأمريكيين بعد رونيه ويليك، هو هنري.هـ. ريماك Henry.H. Remak (ت. 2009)، فقد كتب مقالة سنة 1961 وأعاد نشرها منقحة ومضافا إليها سنة 1971 بعنوان "الأدب المقارن، تعريفه ووظيفته" comparative literature its definition and function، تعد بمثابة مانفستو المدرسة النقدية الجديدة. يقول فيها:

«الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معيّن، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى، وذلك من مثل الفنون (كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى) والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية (كالسياسة والاقتصاد والاجتماع)، والعلوم والديانة، وغير ذلك. وباختصار هو مقارنة أدب معيّن مع أدب آخر أو آداب أخرى، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني.»[69]

حتى مع ريماك يسكن التوجه الأمريكي مخالفة الأساس الفرنسي، على جهة الخصوص في الجانب العملي، وفي عدم اشتراط ثبوت التأثر والتأثير أساسا للدراسة المقارنة. وفي المجازفة بالتقريب بين الأدب المقارن والنقد الأدبي التي هي مركزية التوجه الأمريكي. ولا يبعد عن هذه المركزية كثيرا مبدأ الصلة بين الأدب وباقي حقول المعرفة، على أن تتمّ المقارنة من خلال اختلاف جنسيات الآداب.

اللافت أن رؤية ريماك تُدخِل في الاعتبار ما يمكن أن يطال النظرة الأمريكية من نقد، فهو يقبل مثلا فكرة «أن مجرد دراسة الأدب القومي خارج حدوده ترتب على الباحث المقارني عبئا مضاعفا، فما بالك إذن بالتصدي لعلاقة الأدب نفسه بما هو خارج حدوده الأدبية »[70]، ويعترف في السياق نفسه بأن «إدخال هذا الموضوع في نطاق الأدب المقارن، لا بد من أن يسوق إلى الخوض في موضوعات أخرى كثيرة، ربما ينضوي بعضها تحت عنوان (الأدب العام) »[71]

آراء وآراء

من الآراء الوجيهة في تأصيلات ريماك إخراج التيارات والحركات الأدبية ضمن أدب قومي واحد من الأدب المقارن، لأن توسعة الأدب المقارن إلى كل ما له رائحة أدبية يفقد مصطلح الأدب المقارن معناه، وفي طيّ ذلك شيء من مخالفة مواطنه رونيه ويليك في مسألة توسيع الأدب المقارن إلى التاريخ الأدبي والنقد.

يبدو ريماك على درجة من الوعي بمخاطر انزلاقات النسق العام للدراسات الأدبية التي قد تنتج عن التوسع في تحديد مجال الأدب المقارن، فتناوله واضح الحذر في تحديد مقارنية المواضيع، ويشترط نسقية المقارنات بين الأدب وبين الحقول غير الأدبية الأخرى كما يشترط قابليتها للانفصال. وفي المحصلة، يدعو ريماك ـ تأكيدا للخيار الأمريكي في الأدب المقارن ـ إلى حد أدنى من ترابط المعايير وصولا إلى حدود واضحة لحقول الدراسة.

وضعا للأمور في إطارها النسبي، نسجّل أن الرؤيا الأمريكية مع تحقيقها جدةً واختلافا في الدراسات المقارنة، ظلت تتّسم بمعارضها البعيدة عن الإجماع، فقد لحقها ما لحق باقي المدارس من نقد، فإن تركيزها على الأدب من الداخل كاد يحصر الدراسة النقدية المقارنة في حدود الشكلية المحضة المنصرفة عن المجتمع وقضاياه، بالإضافة إلى تفسيرها من قبل نقّادها على أنها ذات توجه استعماري يكرّس الهيمنة الأمريكية المتجاوزة لطموحات غيرها من الأمم، وإلى تفسير التوجه الإنساني الجديد بأنه في حقيقته خادم لنزعة أمريكا الاستعلائية تحت شعار إنسانية الأدب.

ثم، بمنطق الإحصاء، يحسن التساؤل هل جاءت الإجراءات المعلن عنها بالنتائج المنتظرة، وإلى أي حد زادتنا فهما للظاهرة الأدبية؟ وهل هناك شيء فوق الخطوط العريضة والمبدئية التي لم تؤد بحال من الأحوال إلى صلب الحقيقة الأدبية؟!

الخلاصة

بدا مهمّا عرضُ الخلافات بين المدرستين الفرنسية والأمريكية، لأن المشتركات بينهما لا تُفهَم إلا في ضوء ما يفرقهما. وقبلها، اتّضح أن معالجة ملفوظ "المدرسة"، في رحلته من المعجم إلى الاصطلاح، يساهم في قراءة المنجز موضوع الدراسة، والذي انتهينا إليه هو استشفاف السهولة التي يدور بها هذا الملفوظ في مطارحات الدارسين.

لم ننفرد بهذا الاستشفاف، فقد صرّح أكثر من واحد من الباحثين، أن الذي توصّل إليه الدرس إلى اليوم، لم يبلغ من النضج، ولم ينتهِ بحالٍ إلى صيغةٍ نهائيةٍ تشبه الفصلَ في قضايا الأدب المقارن؛ ثم هناك معطى آخر يؤكد على هذا التساهل في الإطلاق، يتمثل في وجود خياراتِ مدرسةٍ في برامج مدرسةٍ أخرى، وفي موافقةِ أفرادٍ من الباحثين مدرسةً غير مدرستهم، كما هو حال اتيمبل الفرنسي في مشايعته بعض أفكار المدرسة الأمريكية، وفي ترك باحثين بلدانَهم ومنظوماتهم الثقافية إلى غيرها، كانضمام رونيه ويليك و هنري ريماك إلى المدرسة الأمريكية وهما على التوالي من أصول تشيكية وألمانية.

عموديا، تَمَّ النظر في البنية الفكرية للمدرستين، وكانت الوقفة مع مرحلية المدرسة الفرنسية لمرورها بعدة أطوار مع ما يتبع ذلك من تحول في المضامين، وتغير في التوجهات وتنويع في الآفاق؛ وكان من الدواعي ما دعا إلى ما يمكن اعتباره عامل نضج، بخصوص الانفتاح الذي أضاف إلى موروث الجيل المؤسس من جهة، ووسّع الأفق الفرنسي إلى الشريك الإنساني، الأمريكي وغيره.

كما كانت الوقفة مع الرؤيا الأمريكية من الداخل، ومساءلتها في بعض المطارحات التي شكّلت نسيجها وساعدت على انتشارها، من ذلك الاقتراب مما كان الألماني غوته يسميه الأدب العالمي، مضافا إلى الإقبال على التعابير الفنية من غير الأدب، مما يعني شموليةَ الأدب المقارن عند البعض، وخروجَه عن الإطار المقارناتي عند البعض الآخر.

تَستلفت كلَّ باحث فكرةُ الانفتاح على الكوني، التي هي شعار الأمريكيين، ولكن الذي يدرك الخلفية الأمريكية في التواصل مع باقي مكوّنات المجتمع الإنساني والنظرة الأمريكية إلى كل ما ليس أمريكيا، يجد ـ ألا يجد؟ ـ بعض الرغبة المشروعة في افتراض أن وراء هذا الشعار شيئا شرّعت له إرادة هيمنة النموذج الأمريكي على غيره، على كل صعيد حتى على صعيد الأدب. لأن الانفتاح يؤدي إلى التقاطع، ومن التقاطع ما هو خلافي ترفض العقليةُ الأمريكية التعايشَ معه، لأنها تراه دُونِيًّا.

كما تستلفت فكرةُ التأثير والتأثر، التي هي شعار الفرنسيين، وتنبه على ذهنية الاستعلاء التي ورثتها هذه المدرسة من سابقها الكولونيالي؛ ومن هنا اشتراطها اللغةَ في دخول نسيجها المقارناتي، عملا على ترقية كيانها الحضاري على حساب من يقبل الوقوع تحت تأثيرها.

في الأخير، انتهى النظر إلى أن الدرس المقارن ــ في سيرورته وفي صيرورته ــ استفاد من الخلاف، فذابت كثير من الحواجز بين المدارس، وبقي الذي بقي منها يحيل على إمكان التلاقح والتكامل، مع هامش معتبر للخصوصيات.

الهوامش

1. Cf. Alain et Odette Virmaux, *Dictionnaire mondial des mouvements littéraires*, Editions du Rocher, 1992, p. 108

2. المراد بمدرسة الجزائر ، هنا ، l'école d'Alger ملتقى مجموعة من أدباء العهد الكولونيالي ، من ضمنهم غابريل أوديزيو Gabriel Audisio ، ألبير كامو Albert Camus ، إيمانويل روبليس Emmanuel Roblès ، جان بليغري Jean Pelegri...

3. Cf. Max Roy, *Ecole* dans *Le Dictionnaire du littéraire*, Paul Aron, Denis saint-Jacques et Alain Viala (sous la direction -), Deuxième édition revue et augmentée, Presses Universitaires de France, 2002, p. 167

4. حسام الخطيب ، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت / دار الفكر ، دمشق ، ط 2 ، 1999 ، ص. 67

5. Cf. P. Brunel, C. Pichois, A-M. Rousseau, *Qu'est-ce que la littérature comparée*, Paris, Armand Colin, 2000, p. 27

6. سعيد علوش ، مدارس الأدب المقارن. دراسة منهجية ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ، 1987 ، ص. 55

7. سعيد علوش ، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي ، الشركة العالمية للكتاب/ دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب العالمي ، بيروت ، سوشرس ، الدار البياء ، ط 1 ، 1987 ، ص. 81

8. حسام الخطيب ، آفاق الأدب المقارن ، سابق ، ص ص. 93-94

9. الطاهر أحمد مكي ، الأدب المقارن ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 1 ، 1987 ، ص. 63

10. حسام الخطيب ، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا ، سابق ، ص. 94

11. ينظر: الطاهر أحمد مكي ، الأدب المقارن ، سابق ، ص. 63

12. حسام الخطيب ، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا ، سابق ، ص. 95

13. رينيه ويليك ، الأدب المقارن: اسمه وطبيعته ، ضمن كتاب (مفاهيم نقدية) ، ترجمة محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة / 110 ، 1990 ، ص. 256

14. نفسه ، ص. 273

15. ينظر: الطاهر أحمد مكي ، الأدب المقارن ، سابق ، ص. 62

16. رينيه ويليك ، رينيه ويليك ، الأدب المقارن: اسمه وطبيعته ، ضمن كتاب (مفاهيم نقدية) ، سابق ، ص. 273

17. ريمون طحان ، الأدب المقارن والأدب العام ، دار الكتاب اللبنانبي ، بيروت ، ط 1 ، 1972 ، ص. 20

18. سعيد علوش ، مدارس الأدب المقارن ، سابق ، ص. 56

19. عبده عبود ، الأدب المقارن. مشكلات وآفاق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1999 ، ص. 25

20. نفسه ، ص. 27

21. Cf. P. Brunel, C. Pichois et A-M. Rousseau, *Qu'est-ce que la littérature comparée*, op. cit., p. 82

22. ينظر: سعيد علوش ، مكونات الأدب المقارن ، سابق ، ص. 82

23. في علمية وموضوعية المقارنة الفرنسية ؛ ينظر: ريمون طحان ، الأدب المقارن والأدب العام ، سابق ، ص. 17

24. Cf. P. Brunel, C. Pichois et A-M. Rousseau, *Qu'est-ce que la littérature comparée*, op. cit., p. 22

25. ينظر: الطاهر أحمد مكي ، الأدب المقارن ، سابق ، ص. 70

26. نفسه ، ص. 73

27. ينظر: السعيد علوش ، مدارس الأدب المقارن ، سابق ، ص ص. 56-57

28. Cf. F.Baldensperger, op. cit., pp. 20-21(الترجمة لسعيد علوش)

29. ينظر: السعيد علوش ، مدارس الأدب المقارن ، سابق ، ص. 59

30. Cf. Paul Van Tieghem, *La littérature comparée*, Paris, Armand Colin, 1931

31. Ibid. op.cit., p. 6. نترجم: «الأدب المقارن ، في أغلب الحال ، علم فرنسي»

32. Ibid. op. cit., p. 20.

نترجم: «تستعمل في الأدب المقارن ، بشكل تنافسي ، تعابير أخرى أكثر دقة وأكثر وضوحا ، ولكنها أقل اختصارا.»

33. ينظر: الطاهر أحمد مكي ، الأدب المقارن ، سابق ، ص. 76

34. ينظر: ماريوس فرنسوا غويار ، الأدب المقارن ، ترجمة هنري زغيب ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط 1 ، 1978

35. Daniel Maggettti, *Littérature comparée*, dans : *Le Dictionnaire du littéraire*, op.cit., p. 352.

نترجم: «حينها بدأ الأدب المقارن يستهدف ، في المجال الأدبي الصرف ، أكثر من دراسة المنابع ، والأجناس في مستوى إنجازاتها في بلدان مختلفة ، والمواضيع والأساطير متجاوزا ذلك إلى مقارنة الأدب بفنون أخرى ، وإلى اندماج الأدب المقارن بالأدب العام.»

36. Cf. P. Brunel, C. Pichois et A-M. Rousseau, *Qu'est-ce que la littérature comparée*, op. cit.

37. Cf. C.Pichois et A-M. Rousseau, *La littérature comparée*, Paris, Armand Colin, 1967

38. Cf. P. Brunel, C. Pichois et A-M. Rousseau, *Qu'est-ce que la littérature comparée*, op. cit., p. 33

39. Cf. Daniel Maggettti, *Littérature comparée*, dans : *Le Dictionnaire du littéraire*, op.cit., p. 352

40. Ibid., op.cit.,

41. روني ويليك ، الأدب المقارن اليوم ، ضمن كتاب (مفاهيم نقدية) ، سابق ، ص. 286

42. ينظر: الطاهر أحمد مكي ، الأدب المقارن ، سابق ، ص [96-110]

43. الأعلام غير المصحوبة بتواريخ وفاتها ، لم نعثر لها في المصادر على ما يحدد ذلك ، إما لأنها لا تزال على قيد الحياة ، وإما للخلاف حول وفاتها وإما لعدم وجود ذلك أصلا.

44. رونيه ويليك ، الأدب المقارن اليوم ، ضمن كتاب (مفاهيم نقدية)، سابق ، ص. 286

45. Cf. Patricia Godbot, *D.G. JONES, poète, comparatiste et traducteur*, dans *ÉRUDIT*, volume 22, numéro 2, 2e semestre 2009, p.23

46. Ibid., p. 24

47. رينيه ويليك ، أزمة الأدب المقارن ، ضمن كتاب مفاهيم نقدية ، سابق ، ص ص. 297-298

48. René Etiemble, *The crisis in comparative literature*, Michigan State University Press, 1966, p. 5

49. رونيه ويليك ، الأدب المقارن اليوم ، ضمن كتاب (مفاهيم نقدية)، سابق ، ص. 285

50. René Etiemble, *Comparaison n'est pas raison. La crise de la littérature comparée*, Paris, Gallimard, col. « Les Essais », 1963, pp. 82-83

نترجم: «أريد مقارني مبتعدا عن التنقيب في الأرشيف وفي مختارات المجلات الصغيرة. بالإضافة إلى تكوين المؤرخ ، أتمنى له تكوين عالم اجتماع. لن أمنعه حتى من الثقافة العامة.»

51. Ibid., pp. 65-66

نترجم:» [...] تعتبر ، حتى في حالة عدم وجود علاقات تاريخية بين أدبين ، أنه يجوز المقارنة بين الأجناس الأدبية التي يكون كل أدب أنشأها من جهته. [...] ليس الأدب المقارن ممكنا فقط ، بل هو على الأخص مثير «

52. .رونيه ويليك ، الأدب المقارن اليوم ، ضمن كتاب (مفاهيم نقدية)، سابق ، ص. 294

53. .رونيه ويليك ، أزمة الأدب المقارن ، ضمن كتاب (مفاهيم نقدية)، سابق ، ص ص. 307-308

54. .ريمون طحان ، الأدب المقارن والأدب العام ، سابق ، ص. 14

55. .نفسه.

56. .نفسه.

57. .حسام الخطيب ، آفاق الأدب المقارن ، سابق ، ص. 42

58. Cf. P. Brunel, C. Pichois, A-M. Rousseau, *Qu'est-ce que la littérature comparée*, op.cit., p. 28

59. .ينظر: أحمد شوقي رضوان ، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن ، دار العلوم العربية ، بيروت ، ط1 ، 1990 ، ص ص. 20-21

60. .ينظر: رونيه ويليك ، أزمة الأدب المقارن ، ضمن كتاب (مفاهيم نقدية)، سابق ، ص. 305

61. .نفسه

62. .نفسه ، ص. 308

63. .نفسه ، ص. 306

64. .نفسه ، ص. 305

65. .نفسه ، ص. 306

66. Cf. P. Brunel, C. Pichois, A-M. Rousseau, *Qu'est-ce que la littérature comparée*, op.cit., p. 28

67. حسام الخطيب ، آفاق الأدب المقارن ، سابق ، ص. 114

68. .ينظر: أحمد شوقي رضوان ، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن ، سابق ، ص. 22

69. نقلنا الفقرة مترجمة عن حسام الخطيب ، آفاق الأدب المقارن ، سابق ، ص. 50

70. .نفسه ، ص. 52

71. .نفسه ، ص ص. 52-53

أسباب الإرهاب حسب الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن "دراسة سوسيو- تحليلية لتفجير مانشستر أرينا"

نصر الدين نواري*

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة فهم أسباب الإرهاب حسب الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن ، ومن أجل ذلك تم تحليل المادة الإعلامية لثلاث صحف هي: العرب ، والقدس العربي ، والعربي الجديد ، والتي قامت بتغطية التفجير الإرهابي الذي استهدف قاعة الحفلات "مانشستر أرينا" بمدينة مانشستر الإنجليزية يوم 22 ماي 2017. وقد تم استخدام منهج تحليل المحتوى للإجابة على التساؤل الرئيس: ما هي أسباب الإرهاب حسب الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن ، من خلال تغطيتها لتفجير "مانشستر أرينا"؟

الكلمات المفاتيح: أسباب الإرهاب ، الصحافة العربية المكتوبة ، تفجير مانشستر أرينا ، العنف ، التطرف ، تحليل المحتوى.

Résumé

Cette étude vise à comprendre les causes du terrorisme comme l'a souligné la presse arabe écrite publiée à Londres. Et pour cela, en analysant la substance informationnelle de trois journaux: Alarab, Alquds Alarabi, Al Araby Al Jadeed, qui ont couvert l'attentat terroriste ayant ciblé une salle de concert "Manchester Arena" dans la ville de Manchester en Angleterre le 22 mai 2017.

Dans cette étude, en utilisant l'analyse du contenu pour répondre à la question principale:

Quelles sont les causes du terrorisme selon la presse écrite arabe publiée à Londres, à travers sa couverture de l'attentat de Manchester Arena?

Mots Clés : Causes du terrorisme, Presse arabe écrite, Attentat de Manchester Arena, Violence, Extrémisme, Analyse du contenu.

Summary

This study aims to understand the causes of terrorism as highlighted in the written Arab press published in London, by analyzing the informational contents of three newspapers: Alarab, Alquds Alarabi, Al Araby Al Jadeed, who covered the terrorist attack targeting a concert hall "Manchester Arena" in the city of Manchester in England on May 22, 2017. Using content analysis, the study intends to answer the main question: What are the causes of terrorism according to the Arabic press published in London, through its coverage of the Manchester Arena's burst?

Keywords: Causes of terrorism, Arabic press written, Manchester Arena Attack, Violence, Extremism, Content analysis.

* طالب دكتوراه، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

مقدمة

تُلقي ظاهرة الإرهاب بحمولتها "السوسيو-بنيوية" على المشهد العالمي الراهن، وتُشكّل إحدى أهم وأكثر الظواهر المجتمعية تعقيدا وتشابكا وخطورة، من حيث مساهمتها في ظهور ما يسميه السوسيولوجي الألماني أولريخ بيك (Ulrich Beck) "مجتمع المخاطر العالمي"، إذ لا يكاد يخلو خطاب الحياة اليومية من الحديث عن تلك الظاهرة، وكذلك الشأن بالنسبة لوسائل الإعلام المختلفة التي تواكب باهتمام كبير مستجدات وأبعاد الحدث الإرهابي، إضافة إلى السياسيين الذين يحاولون استغلال تلك الظاهرة لخدمة أجنداتهم، وغير ذلك.

هذا الحضور الكثيف لظاهرة الإرهاب في الفضاء العام المحلي والدولي جعل منها "التيمة/Thème" الأكثر بروزا في العقود الأخيرة على المستوى الدولي، وهذا ما أثار تساؤلات المهتمين والباحثين في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، الذين أعطوا لموضوع الإرهاب بالغ الأهمية، من أجل محاولة معرفة ماهيته وأسبابه وأهدافه وإستراتيجياته وأجنداته. وتأتي هذه الدراسة في إطار الجهود البحثية المبذولة لفهم وتفسير البُنى الظاهرة والخفية التي تُشكّل الإرهاب كـ"بروفايل سوسيولوجي"؛ إذ سيتم من خلال براديغم سوسيو-اتصالي متعدد العوامل، محاولة معرفة، أسباب الإرهاب حسب ما تبرزه الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن، وذلك بالقيام بدراسة لعينة من الصحف؛ وهي العرب، القدس العربي، والعربي الجديد، التي قامت بتغطية التفجير الإرهابي الذي استهدف قاعة الحفلات "مانشستر أرينا" بمدينة مانشستر الإنجليزية يوم 22 ماي 2017.

1. إشكالية الدراسة

تُعتبر ظاهرة الإرهاب من أعقد الظواهر الاجتماعية وأكثرها تشابكا وغموضا وحضورا في المشهد العالمي؛ فمنذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة الأمريكية، وما تبعها من عمليات مختلفة في شتى بقاع العالم، عُقدت الكثير من الملتقيات والمؤتمرات العلمية وأنجزت الكثير من المقالات والدراسات والكتب، لمحاولة فهم تلك الظاهرة التي أصبحت تهدد استقرار الدول والمجتمعات.

ولقد اختلفت آراء الباحثين والخبراء وتعددت براديغمات الفهم وتشعبت المقاربات النظرية التي تؤصل لمفهوم الإرهاب وأسبابه وأهدافه، فمنهم من يرى أنّه عنّف مؤدلج يسعى إلى إقامة بديل سياسي، ومنهم من يعتبره ردة فعل على مشاريع اقتصادية واجتماعية "فاشلة"، وعلى قرارات سياسية وطنية ودولية "جائرة"، فيما يراه باحثون آخرون على أنه ترجمة مشوّهة وفهم مغلوط للنصوص الدينية، وغيرها من المفهومات المتباينة التي تُشكّلها الخلفية المعرفية والأكاديمية والسياسية للباحثين.

وتفصيلا لذلك يرى جاك دريدا (Jacques Derrida) أنّ هذا التشوّش في الحقل الدلالي لمفهوم الإرهاب؛ "هو تشوش غير قابل للاختزال في الحدود بين المفاهيم كما في التردد المتعلق بمفهوم الحدود نفسها، وكل هذه الأشياء لا يجب التعامل معها باعتبارها مجرد خلل في التنظير أو فوضى في المفاهيم أو منطقة للاضطرابات المتخبطة في لغة الحديث العامة والسياسية، فعلى العكس من ذلك، يجب أن نرى فيها استراتيجيات وعلاقات القوى. فالقوى المهيمنة هي القوى التي تتمكن في ظروف معينة من فرض تسمياتها، ومن ثم فرض التأويل الذي يناسبها؛ وبالتالي إضفاء الشرعية على هذه التسميات بل وتقنينها (لأن الأمر دائما ما يتعلق بالقانون) على المسرح القومي أو العالمي".[1] من جانبه، وفي ذات المعنى الذي ساقه جاك دريدا، يقول جان بودريار (Jean Baudrillard): "الإرهاب كالفيروس ماثل في كل مكان، هناك حقن عالمي متواصل للإرهاب الذي هو كالظل الملازم لكل سستام سيطرة (..) الإرهاب لا أخلاقي، وحدث المركز العالمي للتجارة، هذا التحدي الرمزي، هو لا أخلاقي، ويرد على عولمة هي الأخرى لا أخلاقية".[2]

هذه العولمة غير الأخلاقية بمفهوم بودريار، ذات النزعة الاستعمارية والاستعلائية، ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في تشكل الظاهرة الإرهابية، إذ يحمّل معتز الخطيب، في هذا الخصوص، الاستعمار الغربي للبلاد العربية مسؤولية نشوء الجماعات الإرهابية موضحا ذلك بالقول: "يبرز الغرب هنا كمتهم أول، بدءًا من الاستعمار الذي قسم العالم العربي بما يتلاءم والمصالح الغربية، وتعويقه لمشاريع التنمية والنهوض السياسي والاقتصادي، واستغلاله ثروات المنطقة لتعزيز نموه الخاص، وحتى يستمر له ذلك حرص على الإضعاف المستمر لمن يمده بالطاقة، كما أنه بسط جنوده في المنطقة، وهكذا يبدو الأميركيون كامتداد للاستعمار البريطاني والفرنسي، فضلاً عن مساندة الأنظمة الاستبدادية الجاثمة على صدر الأمة لأنها تحفظ له الأمن والاستقرار لضمان

مصالحه. وفي قلب كل ذلك تأتي فلسطين، إذ يبدو الغرب وأمريكا المسئولين الأوائل عن القتل والتشريد والإذلال المستمر الذي يتعرض له الفلسطينيون".[3]

وبما أنّ الإرهاب، أصبح كثيف الحضور في المشهد العالمي ودائم الظهور والتجدد، ومثيرا للكثير من الأسئلة، فالواجب العلمي يفرض على الباحثين إخضاعه إلى المزيد من الدراسة والبحث من أجل فهم تشابكاته وتعقيداته بعيدا عن كل المواقف الدوكسية المتعالية، السطحية، الساذجة والمتعجّلة، بما يسهم ربما في إيجاد حلول لهذه الظاهرة التي تهدد بتفتيت كل الأبنية الاجتماعية.

ومن أجل فهم تلك التعقيدات المصاحبة للظاهرة الإرهابية، ترتكز هذه الدراسة على مدخل نظري يسمّى "المدخل متعدد العوامل"، الذي ينطلق بحسب عبد الله بن عبد العزيز اليوسف "من رؤية السلوك الإرهابي نتيجة عوامل متعددة، منها العوامل النفسية والاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية، ولأنّ الإرهاب متعدد الأسباب فإن تحليله من وجهة نظر فردية أو من مدخل فردي يعتبر تبسيطا للظاهرة الإرهابية وإخراجها من محاورها العلمية".[4]

وفي سياق التأكيد على أنّ الظاهرة الإرهابية محكومة بعدة عوامل، يرى علي حرب أنّ المتسبب الرئيس في نشوء الإرهاب، هو ثالوث "المرشد والطاغية والمثقف"، الذين يصفهم بـ"ملاك الله والأوطان والحقيقة"، موضّحا أنّ كل فاعل منهم "قد أسهم في صناعة ما نشكو منه، بأدواته وعلى طريقته:

- المرشد الذي يسخر اسم الله لسلطته وأهوائه أو لأحقاده ومغامراته، بقدر ما يتعامل مع كل من لا يفكر على شاكلته، بلغة التفكير والإقصاء أو الإرهاب والاستئصال.

- الطاغية الذي يتعامل مع بلده كمالك الملك، كي يتصرف في ملكه كما يشاء، والحصيلة هي الاستبداد والفساد والإرهاب، والإطاحة بمكتسبات الدولة الحديثة، فيما يخص مفاهيم المواطنة، والعلمانية، والديمقراطية.

- المثقف الذي لم يحسن طرح أفكاره، ولم ينجح بالعمل عليها لإعادة ابتكارها وتحويلها، بحيث تترجم إلى منجز حضاري، سياسي أو اقتصادي أو مجتمعي".[5]

بناء على ما سبق، تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ:"أسباب الإرهاب حسب الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن: دراسة سوسيو-تحليلية لتفجير مانشستر أرينا"، كمحاولة لإثراء البحوث السوسيو اتصالية ذات الصلة، والمساهمة بالتالي في فهم الأسباب الرئيسة التي تجعل الجماعات الإرهابية تستهدف بالقتل والترويع والتشريد المئات والآلاف من الأفراد، بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والإثنية والجغرافية والجندرية، وتعمل على تسويق ذلك إعلاميا لإثارة المزيد من الرعب والخوف. فالجماعات الإرهابية، بحسب ألكسندر سبنسر (Alexander Spencer) توفّر للصحافة الأخبار الدموية المثيرة التي تساعدها في الحصول على مبيعات أكبر.[6] كما أن الصحافة أصبحت من جهتها محكومة بما يسميه بيير بورديو (Pierre Bourdieu) "العقلية الأوديماتية، بحيث أضحت تعرف الأخبار التي تلاقي قبولا، وتلك التي لا تلاقي قبولا لدى الجماهير، وفقا لاعتبار الربح التجاري".[7] ولذلك فهي تسارع في نقل وتغطية الأحداث الكبرى التي تُخلّف صدى إعلاميا كبيرا وهذا ما توفره لها العمليات الإرهابية.

وعليه سيكون التساؤل الرئيس لهذه الدراسة كما يلي: ما هي أسباب الإرهاب حسب الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن من خلال تغطيتها لهجوم مانشستر أرينا؟

2. أهداف الدراسة

- تحدد هذه الدراسة هدفا رئيسا لها يتمثل في محاولة معرفة الأسباب التي تدفع إلى تشكل الظاهرة الإرهابية، بحسب ما تبرزه الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن.

- تحاول هذه الدراسة كذلك؛ المساهمة في إثراء البحوث حول ظاهرة الإرهاب، وخصوصا البحوث التي تنتمي لسوسيولوجيا الإعلام والاتصال.

- محاولة معرفة التطورات الكبيرة الحاصلة في الظاهرة الإرهابية، من خلال إخضاع عملية إرهابية حديثة (تفجير مانشستر أرينا 2017) للتحليل العلمي، للتوصل إلى نتائج موضوعية، بعيدا عن كل الأحكام المسبقة التي من شأنها مصادرة وتشويه الحقيقة الاجتماعية للظاهرة موضوع الدراسة.

3.تحديد مصطلحات الدراسة

1.3الإرهاب

- **لغويا:** يقال في اللغة (رَهِبهُ)، رَهَباً، ورَهْبَةً، ورُهْباً: أي خَافَهُ. و(أرْهَبَ) فلانا: أي خَوَّفَهُ وفَزّعَهُ.[8]

أما في الصحاح للجوهري، فتقول أرهَبَهُ، واسترْهَبَهُ، إذا أخَافَهُ.[9]

- **اصطلاحيا:** يُعد مفهوم الإرهاب من أعقد المفاهيم وأشدّها غموضا وإثارة للخلاف والجدل بين الباحثين والأكاديميين والسياسيين، وقد أدت هذه الاختلافات إلى انتشار المقولة "إنّ من يراه البعض إرهابيًا، يراه آخرون مقاتلا من أجل الحرية، وتُعتبر هذه النسبية محورًا أساسيا في استحالة إيجاد تعريف غير خلافي".[10]

وفي هذا الإطار يتساءل تشارلز تاونزند (Charles Townshend) عن صعوبة إيجاد تعريف واضح ودقيق للإرهاب، ليجيب أن الإرهاب توصيف؛ "نظرًا لأنّ لفظة "إرهابي" هي وصف لم يتبناه فرد أو جماعة على الإطلاق طوعًا؛ وإنما يصفهم به الآخرون، وبالدرجة الأولى من قبل حكومات الدول التي يهاجمها هؤلاء. لم تتوانَ الدول على الإطلاق في وسم خصومها الذين يمارسون أعمال عنف بهذا اللقب، بما ينطوي عليه من معانٍ ضمنية من غياب الإنسانية والإجرام، وربما الأكثر أهمية من ذلك هو غياب الدعم السياسي الحقيقي. بالمثل، ترى الدول أنه من السهولة بمكان وضع تعريفات للإرهاب".[11]

بدوره يرجع إبراهيم الحيدري صعوبة تحديد مفهوم الإرهاب إلى عدة أسباب في مقدمتها: الخلافات الإيديولوجية والسياسية والطابع الدولي للإرهاب الذي يجعل وجهات النظر تختلف باختلاف المصالح والأهداف وكذلك الطابع السياسي للإرهاب وتنوع أشكاله وأساليبه.[12]

وهذا ما يؤكده كذلك معتز الخطيب الذي يرى أنّ عدم وجود تعريف موحد للإرهاب، هو محاولة "إخضاعه للحسابات السياسية ومصالح الأطراف الأقوى في المعادلة الدولية، التي تصوغ المفاهيم والتعريفات والرؤى بحسب بوصلة مصالحها الأمنية والإستراتيجية والقومية، بعيدا عن أي إطار معياري وقيمي، فكلما ازداد المفهوم غموضا أصبح أكثر عرضة للتطويع الانتهازي. فليس من قبيل المنسيّ أنه تم الإشادة بإرهابيين باعتبارهم مكافحين من أجل الحرية في سياق المقاومة ضد الاحتلال السوفياتي في أفغانستان على سبيل المثال، وجرى التنديد بهم باعتبارهم إرهابيين في سياق آخر".[13]

ولقد ظهر أول تعريف علمي وأكاديمي للإرهاب على يد هاردمان (Hardman) عام 1930، إذ يرى أنّ الإرهاب يمثل منهجا أو نظرية كامنة ويهدف من خلال جماعة منظمة أو حزب لتحقيق أهداف معلنة باستخدام العنف.[14]

وقد عرّف إريك موريس (Eric Morris) الإرهاب بأنه "استخدام أو التهديد باستخدام العنف بصورة غير اعتيادية أو غير مألوفة لتحقيق غايات سياسية أو أفعال إرهاب عادة ما تكون رمزية لتحقيق تأثير نفسي أكثر منه مادي".[15] أمّا وزارة الدفاع الأمريكية فعرفته على أنه "الاستخدام الممنهج للعنف أو التهديد به، لغرس الخوف، من أجل تحقيق أهداف تكون في الغالب سياسية، دينية أو إيديولوجية".[16]

أما محمد فتحي عيد فقد عرّف الإرهاب بأنه "عمل غير مشروع من أعمال العنف يهدف إلى بث الرعب والفزع داخل مجتمع ما أو شريحة منه بقصد تحقيق هدف سياسي، ولا يعد إرهابا الكفاح المسلح للشعوب الخاضعة للاحتلال الأجنبي من أجل تحرير أراضيها المحتلة والحصول على حقها في تقرير مصيرها واستقلاله وفقا لميثاق وقرارات الأمم المتحدة التي تحرم إيذاء الأبرياء".[17]

من جانبه يعرفه المجمع الفقهي الإسلامي كالآتي: "الإرهاب هو عدوان يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغيا على الإنسان دينه، ودمه، وعقله، وماله، وعرضه. ويشمل صنوف التخويف والأذى، والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصورة الحرابة وإخافة السبل، وقطع الطريق، وكلّ فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم، أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية، أو الطبيعية للخطر. فكلّ هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها".[18]

- **إجرائيا:** بالرغم من الخلافات الكبيرة والمتباينة والمتعارضة في مفهوم الإرهاب، إلا أنّه ومن المتعارف عليه منهجيا، وجب صياغة تعريف إجرائي ينزع كل لبس مفاهيمي، ويحدد المقصود والمعنى الدقيق الذي يضفيه الباحث على مفاهيمه، وعليه فالإرهاب في هذا الدراسة هو: فعلٌ عنفيٌّ يصدر من جماعات مهيكلة تبرر أعمالها باسم الدين، وتسعى إلى إلحاق الأذى بالحكومات والشعوب على حد سواء، من أجل تحقيق أهداف وطموحات سياسية ودينية واجتماعية وثقافية واقتصادية.

2.3الصحافة المكتوبة

- **لغويا:** صحَّف ، يُصحِّف ، تصفيحاً ، فهو مصحِّف ، والمفعول مُصحَّف. والصَحافة/ الصِحافة: مهنة من يجمع الأخبار والآراء وينشرها في جريدة أو مجلة.[19] والصحيفة: إضمامة من الصفحات تصدر يوميا أو في مواعيد منتظمة بأخبار السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة وما يتصل بذلك.[20]

- **اصطلاحيا:** "هي إضمامة من الصفحات أو مجموعة منها تصدر في مواعيد منتظمة وتحمل في طياتها مادة خبرية وثقافية في السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والثقافة والفنون والرياضة ، والذي يعمل بهذه المهنة يسمى صحفيا وصحافيا. والصحافة هي المهنة التي تقوم على جمع وتحليل الأخبار والتحقق من مصداقيتها وتقديمها للجمهور ، وغالبا ما تكون هذه الأخبار متعلقة بمستجدات الأحداث على الساحة السياسية أو المحلية أو الثقافية أو الرياضية أو الاجتماعية وغيرها".[21] أمّا التعريف التقليدي للصحافة فهي "فن رواية الأخبار ونشرها على الناس".[22] أما إذا تم النظر إلى الصحافة من زاوية تأخذ بعين الاعتبار مرجعيتها الإيديولوجية ، فيمكن القول إنه توجد صحافة تعمل على تزويد قرائها بمختلف المعلومات والمعارف والحقائق وتؤدي دورها الإخباري بموضوعية واحترافية ، وأخرى لا تعبّر إلا على مصالح ملاّكها ولا تتحرك إلا في الحدود التي تم رسمها وصياغتها لتحقيق المصلحة العليا لهؤلاء الملاك ، بغض النظر عن مصلحة قرائها في الحصول على المعلومات والتعبير عن الآراء.[23]

- **إجرائيا:** يقصد الباحث بالصحافة العربية المكتوبة في هذه الدراسة: تلك الصحف التي تصدر بشكل يومي باللغة العربية ، وموجهة خصوصا للقارئ العربي ، تحتوي على مادة إخبارية وتحليلية متزنة وموضوعية ، بحيث تشكّل مصدرا لإعلامه بمختلف الأحداث العربية والدولية.

.4الإجراءات المنهجية للدراسة

تشكل المناهج في العلوم الاجتماعية مجموعا متناسقا من العمليات المستعملة لبلوغ هدف أو مجموعة من الأهداف ، إنها تشكّل ، بحسب مادلين غراويتز (Madeleine Grawitz)، "جملة من المبادئ التي توجّه كل بحث منظم ، وجملة من المعايير التي تتيح اختيار التقنيات وتنسيقها ، وتشكل بطريقة متفاوتة التجريد أو الحسية ، والدقة أو الغموض ؛ إنها مخطط عملٍ تبعا لهدف".[24]

وباعتبار أنّ موضوع هذه الدراسة يتعلق بالبحث عن أسباب الإرهاب حسبما تبرزه الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن ؛ فإنّ الممارسة البحثية تستدعي استخدام منهج يوجّه ويساعد على تحقيق الأهداف والنتائج المرجوة. لذا فقد تم الاعتماد على منهج تحليل المحتوى ، الذي يعرّفه كل من بيرلسون (Berelson) وكارترايت (Cartwright) بأنّه "تقنية بحثية تسعى إلى تقديم وصف موضوعي ومنهجي وكمي للمحتوى الظاهر للاتصال".[25]

وتسير باردن (Bardin) بدورها في ذات الاتجاه التعريفي ؛ حينما تقول إنّ تحليل المحتوى يشير إلى "مجموع تقنيات تحليل الاتصال التي تهدف من خلال إجراءات منتظمة وموضوعية ، إلى وصف مضمون البيانات".[26] أما كريستيان لوراي (Christian Leray) فيقول إنّ: "تحليل المحتوى يسمح بتتبع وقياس وتقييم ، الأفكار أو الموضوعات ، التي تحتويها الوثائق المدوّنة".[27]

وقد تم استخدام منهج تحليل المحتوى في هذه الدراسة كما يلي:

1.4تشكيل المدونة

يعتبر تشكيل المدونة في بحوث تحليل المحتوى شرطا بالغ الأهمية ، وبالغ التعقيد كذلك ، لأنّ نجاح العملية التحليلية يتوقف على حسن تشكيلها ، بما يتماشى ويخدم موضوع الدراسة المرتكز على متغيرين أساسيين هما الإرهاب والصحافة العربية المكتوبة. ولتحقيق الأهداف البحثية ، تم تشكيل المدونة كالآتي:

1.1.4 مجتمع الدراسة: يتشكل في هذه الدراسة من كل الأحداث الإرهابية التي تقع على المستوى الدولي في كل مكان وفي كل زمان ، ويتشكل كذلك من كل الصحف العربية المكتوبة الصادرة بلندن ، ولأنّه يصعب دراسة كل الأحداث الإرهابية (قديما وحديثا) وتتبع تناول أحداثها في كل الصحف العربية المكتوبة الصادرة بلندن (قديما وحديثا) فقد تم تشكيل عيّنة تمثيلية تحاول أنّ تحقق النتائج البحثية.

2.1.4 العينة والمعاينة

1.2.1.4 بخصوص الأحداث الإرهابية: تم (قصديا) اختيار التفجير الإرهابي الذي وقع في مدينة مانشستر

الإنجليزية يوم 22 ماي 2017، لأسباب تتعلق بحداثة الهجوم، وللصدى الإعلامي والسياسي الكبير الذي أحدثه على الصعيد الدولي، وللخسائر البشرية والمادية التي خلّفها.

واستهدف التفجير الإرهابي حفلا موسيقيا أحيته مغنية بوب أمريكية بقاعة الحفلات "مانشستر أرينا" يوم الاثنين 22 ماي 2017 على الساعة 22:33 بتوقيت إنجلترا الصيفي، مخلفا 22 قتيلا وأكثر من 50 جريحا، وقد تبنى تنظيم "الدولة الإسلامية" المعروف إعلاميا بـ(داعش)؛ مسؤوليته عن ذلك الهجوم الانتحاري الذي نفّذه شابٌ يبلغ من العمر 22 سنة وهو من مواليد مدينة مانشستر لأبوين ليبيين. ويعتبر هذا التفجير الأكثر دموية في بريطانيا منذ التفجيرات التي هزت العاصمة الإنجليزية لندن في 7 جويلية 2005. [28]

2.2.1.4 بخصوص الصحف العربية المكتوبة: تم اختيار عينة تمثيلية تم تحديدها من خلال ثلاثة مستويات، وفق ما يشترطه بيرلسون وهي: تحديد وسيلة الاتصال، تحديد الأعداد المختارة، تحديد مادة التحليل.[29]

- **تحديد وسيلة الاتصال:** وقع الاختيار قصديا على ثلاث صحف عربية مكتوبة تصدر من لندن وهي: العرب، القدس العربي، والعربي الجديد. لأسباب تتعلق بقرب تلك الصحف من مكان التفجير الإرهابي، ولتمتعها بهامش كبير من حرية التعبير يسمح به القانون الإنجليزي في تغطية مثل تلك الأحداث الخطيرة، وكذا لسهولة الحصول على كل الأعداد الخاضعة للتحليل، وأيضا للسمعة الكبيرة التي تحظى بها تلك الصحف في الساحة الإعلامية العربية والأجنبية. وفيما يلي تعريف موجز بالصحف المختارة:

"العرب": أسّسها وزير الإعلام الليبي الأسبق الراحل أحمد الصالحين الهوني في جويلية 1977، وهي أول صحيفة عربية يومية تصدر من لندن، يرأس تحريرها الدكتور هيثم الزبيدي، وتوزع في الدول العربية والأوروبية. وتركز في مادتها على المقالات التحليلية لنخبة من الأكاديميين والباحثين والكتاب الصحفيين العرب.[30]

"القدس العربي": تأسست في لندن شهر جوان 1989 برئاسة الإعلامي الفلسطيني الأستاذ عبد الباري عطوان، وهي صحيفة عربية يومية مستقلة ترأس تحريرها حاليا الأستاذة سناء العالول، تطبع في الوقت نفسه في لندن ونيويورك وفرانكفورت، وتوزع في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وأوروبا وأمريكا. اكتسبت الصحيفة سمعة عربية ودولية كبيرة، بسبب مواكبتها للأحداث العربية والعالمية، معتمدة في ذلك على مجموعة من المراسلين والكتاب المميزين.[31]

العربي الجديد: تأسست في لندن شهر مارس 2014، يرأس تحريرها الأستاذ بشير البكر، تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد، وتنشر مقالات لأهم كتاب الرأي في الوطن العربي والعالم.[32]

ووجب الإشارة والتوضيح، أنّ الصحف الثلاثة المدروسة تتبنى خطابا إيديولوجيا وسطيا معتدلا يرتكز على هوية وبعد حضاري عربي إسلامي، يستهدف الوصول إلى أكبر قدر من القراء في ديار المهجر وفي الدول العربية والإسلامية، ويرتكز كذلك على احترام الثقافة الغربية التي تكفل لتلك الصحف الحق القانوني في ممارسة نشاطها الإعلامي بكل حرية.

- **تحديد الأعداد المختارة:** تم تحليل ثلاثة (3) أعداد من كل صحيفة بمجموع تسعة (9) أعداد، وهي الأعداد التي أعقبت التفجير مباشرة، وبما أنّ الهجوم الانتحاري وقع في الساعة 22:33 من يوم الاثنين 22 ماي 2017 وهي ساعة متأخرة، فقد تعذّر على الصحف المدروسة تغطية التفجير في عدد يوم الثلاثاء 23 ماي 2017، لذا تم استبعاده من التحليل لأنه لا يحتوي على أيّة مادة تشير من قريب أو من بعيد للتفجير، وبناء على ذلك تقرر إخضاع عدد الأربعاء 24 ماي 2017، وعدد الخميس 25 ماي 2017، وعدد الجمعة 26 ماي 2017 من كل صحيفة للتحليل، ويمكن توضيح ذلك حسب كل صحيفة كالتالي:

الجدول رقم 1: يوضح الأعداد المختارة للتحليل

الصحف	اليوم	العدد
العرب	الأربعاء 24 ماي 2017	10642
	الخميس 25 ماي 2017	10643
	الجمعة 26 ماي 2017	10644
القدس العربي	الأربعاء 24 ماي 2017	8834
	الخميس 25 ماي 2017	8835
	الجمعة 26 ماي 2017	8836
العربي الجديد	الأربعاء 24 ماي 2017	996
	الخميس 25 ماي 2017	997
	الجمعة 26 ماي 2017	998

- **تحديد مادة التحليل:** تم على ثلاث مرات قراءة الأعداد التسعة المختارة من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة، دون استثناء أي موضوع، لإخراج المادة الصحفية التي تناولت بشكل رئيس تفجير "مانشستر أرينا"، وقد كان عددها 35 موضوعا؛ 8 مواضيع في صحيفة العرب، و16 موضوعا في صحيفة القدس العربي و11 موضوعا في صحيفة العربي الجديد، ليتم إخضاعها للتحليل العلمي وفق المبادئ والأساسيات التي يفرضها منهج تحليل المحتوى.

وقد تم تسجيل أكبر نسبة نشر في عدد يوم الخميس 25 ماي 2017 مقدرة بـ42.86 بالمائة ما يمثل 15 موضوعا، أما ثاني نسبة نشر فقد تم تسجيلها في عدد يوم الأربعاء 25 ماي 2017 بمقدار 40 بالمائة ما يمثل 14 موضوعا، وقد سجلت أدنى نسبة نشر في عدد يوم الجمعة 26 ماي 2017 بنسبة قدرها 17.14 بالمائة ما يمثل 6 مواضيع.

2.4فئات التحليل

يقصد بفئة التحليل مجموعة من الكلمات ذات المعنى المتشابه وتعرف أيضا بأنها العناصر الرئيسة أو الثانوية التي يتم وضع وحدات التحليل فيها والتي يمكن وضع كل صفة من صفات المحتوى فيها، وتصنف على أساسها.[33]

وقد تمت التفيئة في هذه الدراسة عن طريق الاتصال مباشرة بمدونة البحث دون الانطلاق من افتراضات مسبقة، بحيث تقرر إجراء قراءة استطلاعية أولية للأعداد التسعة المختارة، تلتها قراءة ثانية تم على أساسها استخراج كل الموضوعات التي تناولت تفجير مانشستر وكان عددها 35 موضوعا إجماليا، ثم قراءة ثالثة تمت على مستوى المادة المستخرجة، ليتم بعدها وضع تفيئة أولية تستند على مجموعة من الكلمات التي تحمل دلالات مشتركة تم استخراجها من المادة الخاضعة للتحليل، وقد تمت مراجعة تلك الفئات وتدقيقها، بعد إخضاعها لتحكيم خبيرين، ليتم اعتمادها بشكل نهائي في هذه الدراسة. ويمكن توضيح عملية التفيئة المعتمدة من خلال المثال العملي التالي:

(صحيفة العرب: عدد الأربعاء 2017/05/24 الصفحة 1)

عنوان الموضوع: صدمة في مانشستر... من يقتل الأطفال

الموضوع: (طرح الهجوم على قاعة مخصصة لإقامة الحفلات في مدينة مانشستر شمالي إنكلترا قضية أيديولوجيا متطرفة، صعدت وتيرتها في أوروبا، وصولا إلى قتل الأطفال. وأخذت هذه الأيديولوجيا تنمو بهدوء طوال عقود، وتبنت جماعات الإسلام السياسي، خططا طويلة المدى من أجل الهيمنة على الجاليات المسلمة، ونشر أفكار متشددة شكلت لاحقا حاضنة فكرية للجهاديين. وتوعدت رئيسة الوزراء البريطانية تيريزا ماي الثلاثاء بأن" الإرهابيين لن ينتصروا"بعد مقتل 22 شخصا بينهم أطفال وإصابة العشرات في اعتداء استهدف حفلا موسيقيا كانت تحييه المغنية الأميركية أريانا غراندي مساء الاثنين في شمال غرب إنكلترا، وتبناه تنظيم الدولة الإسلامية الثلاثاء. وأعلن قائد شرطة مانشستر إيان هوبكنز أن منفذ الاعتداء قتل بينما كان يحاول تفجير" عبوة ناسفة يدوية"، مشيرا إلى أن الشرطة تسعى إلى معرفة ما إذا كان قام بالاعتداء" بمفرده أو إذا كان مدعوما من شبكة"معينة).

من خلال هذا الموضوع يمكن عمل التفيئة التالية وهي خاصة بهذا المثال فقط:

- **الفئة الرئيسة:** الأسباب الدينية.

تنبثق منها **الفئة الثانوية:** التطرف الديني.

ويمكن شرحها **بالكلمات الدالة**: التطرف-التشدد-الجهاديين.

- **الفئة الرئيسة:** الأسباب السياسية.

تنبثق منها **الفئة الثانوية:** إيديولوجيا سياسية.

ويمكن شرحها **بالكلمات الدالة:** الإسلام السياسي.

- **الفئة الرئيسة:** الأسباب الاجتماعية.

تنبثق منها **الفئة الثانوية:** مشاكل الهجرة.

ويمكن شرحها **بالكلمات الدالة:** الجاليات المسلمة.

وبناء على التوضيح الوارد في المثال السابق تم تفيئة كل الموضوعات الـ35 المدروسة، ويمكن شرح ذلك تفصيلا في الجدول التالي:

الجدول رقم 2: يوضح التفيئة المستخدمة في هذه الدراسة

الفئات الرئيسة	الفئات الثانوية	الكلمات المتشابهة الدلالة الواردة في الصحف المدروسة
الأسباب الدينية	التطرف الديني	التشدد – التطرف – نمط الحياة الغربية المنحلة – الصليبيين-الجهاديين-الحفلات الموسيقية الماجنة
الأسباب السياسية	الإيديولوجيا السياسية	الإسلام السياسي-نظام الخلافة العالمية
	الأزمات السياسية	الأزمة السورية والليبية والعراقية واليمنية والفلسطينية والمصرية ومخلفات الربيع العربي
	الاستبداد السياسي	الهروب من أنظمة الحكم العربية
	رد فعل انتقامي	رد فعل انتقامي على التدخل الأجنبي في العراق ولبنان واليمن وأفغانستان وسوريا وفلسطين
	صناعة غربية	الغرب يدفع المسلمين للتطرف
الأسباب الاجتماعية	الفشل الدراسي	فشل منفذ الهجوم في دراسته الجامعية
	التنشئة الاجتماعية السيئة	فشل العائلة في تربية ابنها منفذ الهجوم
	مشاكل الهجرة	مشاكل الجاليات المهاجرة التي فشل بعض أفرادها في الاندماج والتي تعاني التهميش والفقر والعنصرية
الأسباب النفسية	الاضطرابات النفسية	نوبات الجنون والأمزجة النفسية المضطربة للإرهابيين
الأسباب الثقافية	البيئة الثقافية	العقلية القبلية العربية التي ترفض التدخل الأجنبي
	الانتماء الثقافي	المفاهيم الثقافية الراديكالية التي يتبناها الإرهابيون

3.4وحدات التحليل

يفرق بيرلسون بين عدة أنواع من وحدات التحليل، فهو يفرّق بين وحدة التسجيل ووحدة السياق، فقد تكون الكلمة هي وحدة التسجيل، إلاّ أن الجملة التي وردت فيها هذه الكلمة تعتبر وحدة السياق. ويذكر بيرلسون أنّ وحدات التسجيل خمسة وهي: الكلمة، الموضوع، الشخصية، والمفردة، ومقاييس المساحة والزمن، فالموضوع مثلا يُعتبر من أهم وحدات التحليل، وقد يكون جملة بسيطة أو فكرة تدور حول قضية محددة سياسية كانت أو اجتماعية أو غيرها.[34]

وفي هذه الدراسة تم استخدام الموضوع ممثلا في الجملة التي تحمل دلالة تشير إلى إحدى الأسباب الموضحة في التفيئة، كوحدة للتسجيل والعد، فيما تم اعتماد الفقرة التي جاءت فيها تلك الجملة ذات الدلالة السببية كوحدة للقياس. ويمكن توضيح ذلك من خلال المثال التالي:

(وأخذت هذه الأيديولوجيا تنمو بهدوء طوال عقود، وتبنت جماعات الإسلام السياسي، خططا طويلة المدى من أجل الهيمنة على الجاليات المسلمة، ونشر أفكار متشددة شكّلت لاحقا حاضنة فكرية للجهاديين).

- **وحدة التسجيل**: الجملة "جماعات الإسلام السياسي" تمثل وحدة للتسجيل.

- **وحدة القياس:** قراءة الفقرة التي وردت فيها وحدة التسجيل والتي تؤكد وجود علاقة موجبة بين جماعات الإسلام السياسي والجالية المسلمة من خلال نشر الأفكار المتشددة وتشكيل حاضنة للإرهاب.

- **وحدة العد:** بناء على وحدة التسجيل والقياس، يتم إحصاء الجملة "جماعات الإسلام السياسي" كوحدة للعد وإعطائها تكرارا واحدا في كل موضوع تذكر فيه، وتصنّف ضمن الفئة الثانوية "إيديولوجيا سياسية" التي تنتمي إلى الفئة الرئيسة "الأسباب السياسية"، وبالطريقة نفسها تم التعامل مع كل الجمل التي تحمل دلالات سببية في المواضيع الـ35 الخاضعة للتحليل.

4.4أداة التحليل

من أجل جمع البيانات ورصد القيم التكرارية للمادة موضوع التحليل، تم تصميم استمارة تحليل كأداة رئيسة في هذه الدراسة، تم تحكيمها من قبل خبيرين اثنين وقد تم اعتمادها كما هو موضّح في الشكل أدناه:

الجدول قم 3: يوضح استمارة تحليل المحتوى المستخدمة في هذه الدراسة

عدد المواضيع المنشورة					
العرب	القدس العربي	العربي الجديد			
أيام النشر					
الأربعاء	الخميس	الجمعة			
أسباب الإرهاب					
الأسباب الدينية	الأسباب السياسية	الأسباب الاجتماعية	الأسباب النفسية	الأسباب الثقافية	
الأسباب الدينية					
التطرف الديني					
التشدد	التطرف	معاداة الحياة الغربية	الصليبيين	الجهاديين	الحفلات الماجنة
الأسباب السياسية					
الإيديولوجيا السياسية	الأزمات السياسية	الاستبداد السياسي	رد فعل انتقامي	صناعة غربية	
الإيديولوجيا السياسية					
الإسلام السياسي	نظام الخلافة العالمية				
الأزمات السياسية					
السورية	الليبية	العراقية	اليمنية	الفلسطينية	المصرية	الربيع العربي
الاستبداد السياسي					
الهروب من أنظمة الحكم العربية					
رد فعل انتقامي					
العراق	لبنان	اليمن	أفغانستان	سوريا	فلسطين
صناعة غربية					
الغرب يدفع المسلمين إلى التطرف					
الأسباب الاجتماعية					
الفشل الدراسي	التنشئة الاجتماعية السيئة	مشاكل الهجرة			
الفشل الدراسي					
فشل منفذ الهجوم في دراسته الجامعية					
التنشئة الاجتماعية السيئة					
فشل العائلة في تربية ابنها منفذ الهجوم					
مشاكل الهجرة					
الاندماج	التهميش	الفقر	العنصرية		
الأسباب النفسية					
الاضطرابات النفسية					
نوبات جنون	أمراض نفسية				
الأسباب الثقافية					
البيئة الثقافية	الانتماء الثقافي				
البيئة الثقافية					
العقلية القبلية العربية					
الانتماء الثقافي					
الثقافة الراديكالية					

5.4الصدق والثبات

1.5.4 الصدق: بحثا عن صدقية العملية التحليلية، تم الاعتماد على ما يسميه باد (budd) صدق المحكمين الذين يمكن أن يستشاروا فيما يلي:

- الحكم على بعض جوانب المنهجية في تحليل المحتوى.
- اختيار المتغيرات الأساسية في الدراسة وتعريفاتها كالفئات والوحدات.
- أساليب القياس ومدى مناسبتها لأهداف الدراسة.[35]

وبناء على ذلك، تم عرض استمارة تحليل المحتوى وتقديم شرح للتفيئة وطريقة التسجيل والعد والقياس على محكمين اثنين؛ أستاذ بقسم علم الاجتماع بجامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 يحمل شهادة الدكتوراه، وأستاذ

بقسم علوم الإعلام والاتصال بالجامعة نفسها يحمل شهادة الدكتوراه، وقد تم اختيار خبيرين من حقلين معرفيين اثنين، لتكون الرؤية متكاملة والملاحظات أشمل وأدق؛ لأنّ هذه الدراسة تنتمي لسوسيولوجيا الإعلام والاتصال؛ الذي يعد نقطة التقاء معرفي بين علم الاجتماع وعلوم الإعلام والاتصال. وقد وجّه الخبيران مجموعة من الملاحظات والتوجيهات وطالبا بإجراء بعض التعديلات، تم التقيّد والعمل بها، وقد كانت نسبة التوافق بين الخبيرين والباحث في حدود 92 بالمائة وهذا ما يؤكد صدق الإجراءات التحليلية.

2.5.4 الثبات: للتأكد من ثبات التحليل تم استخدام معيار الاختبار-إعادة الاختبار test-retest)) "والذي يستعمل أساسا لقياس الثبات الكلي، ويتمثل في تكرار الاختبار في فترتين زمنيتين مختلفتين وتحت الظروف نفسها قدر الإمكان، وتكون الفترة المقترحة بين التطبيقين من أسبوعين إلى أربعة أسابيع في الغالب".[36] وقد تم عمليا، إعادة الاختبار للمادة المحللة والمقدرة بـ35 موضوعا بعد ثلاثة أسابيع من أول اختبار، وقد تم التوصل إلى ثبات كلي بنسبة 90 بالمائة بين الاختبار الأول والثاني، وهي نسبة مرتفعة توحي بثبات التحليل.

5. عرض البيانات وتحليلها وتفسيرها

1.5 أسباب الإرهاب حسب الصحف المدروسة

الجدول رقم 4: يبين أسباب الإرهاب كما وردت في الصحف المدروسة

الصحف / الأسباب	العرب		القدس العربي		العربي الجديد		المجموع	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
السياسية	9	%20.45	25	%56.82	10	22.73%	44	100%
								42.31%
الدينية	9	29.03%	15	%48.39	7	22.58%	31	100%
								29.81%
الاجتماعية	7	28%	14	56%	4	16%	25	100%
								24.04%
النفسية	00	00%	2	100%	00	%00	2	100%
								1.92%
الثقافية	00	00%	2	100%	00	%00	2	100%
								1.92%
المجموع	25	24.04%	58	55.77%	21	20.19%	104	100%
								100%

يتبين من الجدول رقم (04) أنّ الصحف الخاضعة للتحليل أفردت في فترة الدراسة 104 تكرارات تمثل أسبابا مفترضة للإرهاب، وقد جاءت الأسباب السياسية في المرتبة الأولى، تليها الأسباب الدينية في المرتبة الثانية، ثم الأسباب الاجتماعية في المرتبة الثالثة، ثم الأسباب النفسية والأسباب الثقافية في المرتبة الرابعة بالتساوي.

- **الأسباب السياسية:** جاءت الأسباب السياسية في المرتبة الأولى بنسبة قدرها 42.31 بالمائة ما يمثل 44 تكرارا، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 56.82 بالمائة ما يمثل 25 تكرارا، تليها صحيفة العربي الجديد بنسبة 22.73 بالمائة ما يمثل 10 تكرارات، ثم صحيفة العرب بأدنى نسبة مقدارها 20.45 بالمائة ما يمثل 9 تكرارات.

- **الأسباب الدينية:** جاءت الأسباب الدينية في المرتبة الثانية بنسبة 29.81 بالمائة ما يمثل 31 تكرارا، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 48.39 بالمائة ما يمثل 15 تكرارا، ثم صحيفة العرب بنسبة 29.03 بالمائة ما يمثل 9 تكرارات، وأخيرا صحيفة العربي الجديد بـ 22.58 بالمائة ما يمثل 7 تكرارات.

- **الأسباب الاجتماعية:** حلت الأسباب الاجتماعية في المرتبة الثالثة بنسبة 24.04 بالمائة ما يمثل 25 تكرارا، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 56 بالمائة ما يمثل 14 تكرارا، ثم صحيفة العرب بنسبة 28 بالمائة ما يمثل 7 تكرارات، فصحيفة العربي الجديد بنسبة 16 بالمائة ما يمثل 4 تكرارات.

- **الأسباب النفسية:** جاءت الأسباب النفسية في المرتبة الرابعة بنسبة 1.92 بالمائة ما يمثل تكرارين اثنين، انفردت صحيفة القدس العربي بذكرهما بنسبة 100 بالمائة.

- **الأسباب الثقافية:** حلت الأسباب الثقافية في المرتبة الرابعة كذلك بنسبة 1.92 بالمائة ما يمثل تكرارين اثنين، انفردت صحيفة القدس العربي كذلك بذكرهما بنسبة 100 بالمائة.

يتضح من البيانات الإحصائية السابقة؛ أنّ الإرهاب غير محصور في سبب واحد، وإنما هو نتيجة لمجموعة من الأسباب المتعددة، السياسية والدينية والاجتماعية... وغيرها، لذا فمحاولة حصره في نطاق معين هي مغالطة دوكسية بالأساس، قد يراد بها تحقيق مكاسب سياسية وإيديولوجية معينة، ويؤكد أرثور باييشت (Arthur Paecht) في هذا المعنى أنه: "لا يوجد سبب واحد وراء الأعمال الإرهابية، بل هنالك عدة أسباب متباعدة، وغير متناسقة، تغطي حقائق لا يمكن حصرها".[37] وبالرغم من أنّ "الإرهابيين يجمعهم تاريخ اجتماعي مشترك، ويمتلكون نفس التركيب النفسي".[38] بحسب مارك ساجمان (Marc Sageman)، إلا أنّ ذلك لا يعني أنّ تشكل الظاهرة الإرهابية، ناتج لعوامل سوسيو- سيكولوجية وفقط، بل يتعدى ذلك إلى مجموعة من الأسباب الظاهرة والخفية والمتشابكة بين الاجتماعي والسياسي والديني والثقافي والإثني والإيديولوجي والاقتصادي والسيكولوجي.

وفي هذه الدراسة ومن خلال العملية التحليلية للمادة الصحفية، تبين أنّ الأسباب التي تدفع الإرهابيين إلى ممارسة أعمالهم تنحصر في الأسباب السياسية، والدينية، والاجتماعية، والنفسية والثقافية، ولا يعني هذا بأي شكل من الأشكال أنّ هذه الأسباب هي الأسباب الكلية والوحيدة لتشكّل الظاهرة الإرهابية، بل هي الأسباب الظاهرة والبيّنة التي دفعت بالإرهابيين إلى ارتكاب تفجير "مانشستر أرينا"، فمثلا لا تظهر الأسباب الاقتصادية في هذه الدراسة، لسبب يتعلق ربما بالمناخ الاقتصادي الجيد في إنجلترا الذي يوفر دخلا فرديا كبيرا لمواطنيها وللمقيمين بها، إلا أنّ الأسباب الاقتصادية قد تكون في بلد آخر من أهم الأسباب الدافعة لتشكل العمل الإرهابي، والأمر نفسه ينطبق على بعض الأسباب الأخرى التي لم تظهر في هذه الدراسة كالأسباب الأمنية والإثنية مثلا.

2.5 قراءة في الأسباب السياسية للإرهاب

الجدول رقم 5: يبين الأسباب السياسية للإرهاب كما وردت في الصحف المدروسة

الصحف / الأسباب	العرب		القدس العربي		العربي الجديد		المجموع	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
الأزمات السياسية	1	8.33%	6	50%	5	41.66%	12	100% / 27.27%
الاستبداد السياسي	2	16.66%	7	58.33%	3	25%	12	100% / 27.27%
الإيديولوجيا السياسية	6	%54.54	5	45.45%	00	00%	11	100% / 25%
رد فعل انتقامي	00	00%	5	83.33%	1	16.66%	6	100% / 13.64%
صناعة غربية	00	00%	2	66.66%	1	33.33%	3	100% / 6.82%
المجموع	9	20.45%	25	56.82%	10	22.73%	44	100% / 100%

يتضح من الجدول رقم (05) أنّ الصحف المدروسة ذكرت 44 سببا سياسيا مكررا لظاهرة الإرهاب، وقد حلت الأزمات السياسية في المرتبة الأولى مع الاستبداد السياسي، وجاءت الإيديولوجيا السياسية في المرتبة الثالثة، بينما حل رد الفعل الانتقامي في المرتبة الرابعة، وأخيرا الإرهاب صناعة غربية في المرتبة الخامسة.

- **الأزمات السياسية:** سجلت الأزمات السياسية أعلى نسبة بمقدار 27.27 بالمائة ما يمثل 12 تكرارا، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 50 بالمائة ما يمثل 6 تكرارات، تليها صحيفة العربي الجديد بنسبة 41.66 بالمائة

ما يمثل 5 تكرارات، ثم صحيفة العرب بأدنى نسبة مقدارها 8.33 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا.

- **الاستبداد السياسي:** سجل أعلى نسبة كذلك بمقدار 27.27 بالمائة ما يمثل 12 تكرارا، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 58.33 بالمائة ما يمثل 7 تكرارات، ثم صحيفة العربي الجديد بنسبة 25 بالمائة ما يمثل 3 تكرارات، وأخيرا صحيفة العرب ب16.66 بالمائة ما يمثل تكرارين اثنين.

- **الإيديولوجيا السياسية:** جاءت في المرتبة الثالثة بنسبة 25 بالمائة ما يمثل 11 تكرارا، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة العرب بنسبة 54.54 بالمائة ما يمثل 6 تكرارات، ثم القدس العربي بنسبة 45.45 بالمائة ما يمثل 5 تكرارات، فصحيفة العربي الجديد بنسبة 00 بالمائة.

- **رد فعل انتقامي**: حل في المرتبة الرابعة بنسبة 13.64 بالمائة ما يمثل 6 تكرارات، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 83.83 بالمائة ما يمثل 5 تكرارات، ثم صحيفة العربي الجديد بنسبة 16.66 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا، فصحيفة العرب بنسبة 00 بالمائة.

- **صناعة غربية**: جاءت في المرتبة الخامسة والأخيرة بنسبة 6.82 بالمائة ما يمثل 3 تكرارات، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 66.66 بالمائة ما يمثل تكراران، ثم صحيفة العربي الجديد بنسبة 33.33 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا، فصحيفة العرب بنسبة 00 بالمائة.

بناء على البيانات الإحصائية السابقة، فإنه لا يبدو مفاجئا مجيء الأسباب السياسية في المرتبة الأولى في هذه الدراسة، ذلك لأنّ الإرهاب في طبيعته يحمل مشروعا سياسيا بديلا يريد أن يفرضه بالعنف والقوة، ويلاحظ أنّ الأزمات السياسية تشكل أهم عامل مؤدي إلى العمل الإرهابي، فالأزمة السورية والليبية والعراقية واليمنية والفلسطينية والمصرية ومخلفات الربيع العربي، قد ساهمت في انفلات الأوضاع الأمنية في تلك الدول.

فالتنظيمات الإرهابية، بحسب فضالي موغدام (Moghaddam Fathali) تعمد إلى "تشكيل عالم مواز، مؤثث بخطاب (أخلاقي) بديل يبرر لها النضال من أجل تحقيق مجتمع مثالي، بأي وسيلة ممكنة".[39] فتنظيم "الدولة الإسلامية" المعروف إعلاميا بـ"داعش" والذي تبنّى تفجير "مانشستر أرينا"، لم يكن له أن يظهر لو لم يحدث ذلك الانفلات الأمني الكبير في سوريا والعراق، كما أنّ الأوضاع السياسية غير المستقرة في أكثر من دولة عربية دفعت بالكثير من حاملي جنسية تلك الدول إلى الانضمام إلى ذلك التنظيم، بما في ذلك بعض اللاجئين والمهاجرين في أوروبا، لصعوبة تعقبهم لأنهم يواصلون "العيش كأفراد عاديين في مجتمعاتهم، فيما يبقى هدفهم الرئيس هو تنمية حياتهم الموازية في عزلة وسرية تامة، بحيث يتم تدريبهم للحفاظ على حياتهم الموازية سرا وإخفاء ذلك حتى على زوجاتهم وأولياء أمورهم، وأقرب أصدقائهم".[40]

كما أنّ الاستبداد السياسي وفشل التجارب الديمقراطية في أكثر من بلد عربي، ووأد أصوات المعارضة السلمية، يعتبر سببا بالغ الأهمية في تشكل بؤر الفكر المتطرف، الذي يحس معتنقوه بالغبن السياسي، وبعدم الانتماء للدولة الوطنية، مما يجعلهم يفكرون في الرد على تلك الحكومات بالارتماء في أحضان الجماعات الإرهابية التي تحمل مشروعا سياسيا بديلا يكفر بالممارسة الديمقراطية وبمؤسساتها.

ويؤكد الباحث محمد مسعود قيراط في هذا السياق أن "الإقصاء السياسي وضعف الحريات السياسية وعدم المشاركة السياسية من قبل فئات عريضة من المجتمع والناجم عن انتشار وسيادة النظم السياسية العربية السلطوية أديا إلى فجوة كبيرة جدا بين الحاكم والمحكوم (..) فانعدام المشاركة السياسية للغالبية العظمى للجماهير يؤدي إلى الإقصاء والتهميش ويفتح المجال أمام المؤسسات الحكومية للتلاعب في الفضاء السياسي كما تشاء ومن أجل خدمة حفنة من السياسيين والعسكريين".[41]

وفي السياق ذاته يقدم فواز جرجس مثالا عن جماعة "داعش" التي استغلت حالة الاستبداد السياسي في المنطقة العربية لتقديم بديل سياسي عملي موضحا ذلك بالقول: "إن ميل الأنظمة العربية إلى الاعتماد على الاستبداد والفساد المستشري والقيود الكثيرة أدت كلها إلى انهيار علاقة المجتمع بالدولة، واستغلت جماعات مثل داعش الاستبداد السياسي ذاك والظروف الاجتماعية والاقتصادية المزرية السائدة بتحدي إيديولوجية الدولة وتقديم بديل عملي مدمر من خلال تأسيس الخلافة أو الدولة الإسلامية".[42]

وبخصوص الإيديولوجيا السياسية، فالجماعات الإرهابية تسعى إلى إقامة ما تسميه "نظام الخلافة العالمية"، كبديل سياسي للنظام الدولي الحالي، لأنها لا تؤمن بالدولة الحديثة وترفض الاعتراف بالحدود الجغرافية وتقسم دول العالم إلى قسمين: دول الكفر ودول الإسلام استنادا على عقيدة "الولاء والبراء"، لذا تجد أن الإرهابيين لا يحسّون بالانتماء إلى الدول التي ولدوا وتربوا فيها، بقدر انتمائهم وولائهم لكل جماعة تزعم أنها قادرة على إحياء "نظام الخلافة"، لذا فهم مستعدون لإلحاق الأذى بكل مخالف لمشروعهم مهما كان دينه وعرقه ووطنه.

كما أنّ التدخلات الأجنبية، سياسيا وعسكريا، في أكثر من دولة عربية دفعت بالكثير من الأفراد إلى الالتحاق بالجماعات الإرهابية كرد فعل انتقامي من القوى العظمى، التي تسببت، بمقتل الآلاف وتجويع وتشريد الملايين من الناس، لذا تستغل تلك الجماعات هذه النقطة وتجعل منها منطلقا لتبرير أعمالها. وفي هذا المعنى يحمّل حميد بوزارسلان واشنطن مسؤولية نشوء التطرف والإرهاب في الشرق الأوسط، "لأن الحكومة الأمريكية تتعاطف بشكل علني ومبالغ فيه مع السلطات الإسرائيلية".[43]

ويؤكد ديفيد كين(David Keen) هذا الكلام بقوله إن "كل ما نعرفه يشير بدلالته إلى أن انتهاكات القوة الأمريكية بما فيها الهجمات على أفغانستان والعراق قد ساعدت على دفع عدد كبير من الناس إلى طريق الغضب والعداء الذي قد يؤدي إلى إنتاج الإرهابيين".[44]

وفي هذه الدراسة، تذهب الصحف المدروسة إلى أنّ تفجير "مانشستر أرينا" جاء كردة فعل محتملة للتدخل الغربي، سياسيا وعسكريا، في أكثر من بلد عربي ومسلم. كما أدرجت سببا سياسيا آخر للإرهاب، وهو أنه صناعة غربية ومنتوج استخباراتي، وهذه نقطة مهمة لأنّ بعض الدول الغربية قد تعمد من منظور براغماتي يخدم توازنات جيو-سياسية معينة، إلى خلق (بطريقة خفية غير مباشرة)، جماعات إرهابية تستقطب المتطرفين من كل مكان، بحيث تسهل لهم عملية التسلّح والتدريب وتترك لهم الحرية في الحركة، وتخترقهم استخباراتيا من الداخل، ليسهل لها لاحقا وفي وقت تحدده بدقة، تبرير تدخلاتها السياسية والعسكرية في بعض الدول من أجل إخضاعها وإبقائها في حالة تبعية سياسية واقتصادية، وإفشال أي مشروع تنموي لا يصب في مصلحتها.

وتأكيدا لذلك، يتهم نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) الولايات المتحدة الأمريكية بأنها أكبر دولة إرهابية في العالم، حينما يوضح قائلا: "هنالك العديد من الدول الإرهابية في العالم إلا أن الولايات المتحدة تعد حالة غير عادية في ذلك، لأنها تعهدت رسميا بالإرهاب الدولي وبمستوى يطرح بمنافسيها خجلا".[45]

كما يرى روبرت دريفوس (Robert Dreyfuss) أنّ الولايات المتحدة أسست "للتطرف الإسلامي ليكون شريكا مربحا لها خلال فترات مشروع الإمبراطورية الأمريكية في الشرق الأوسط منذ دخولها المبكر في المنطقة حتى سيطرتها العسكرية التدريجية، انتهاء بتوسعها بالوجود العسكري على أرض المنطقة وأخيرا تحول الولايات المتحدة إلى ذراع احتلال عسكري في العراق وأفغانستان".[46]

3.5 قراءة في الأسباب الدينية للإرهاب

الجدول رقم 6: يبين الأسباب الدينية للإرهاب كما وردت في الصحف المدروسة

الصحف / الأسباب	العرب		القدس العربي		العربي الجديد		المجموع	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
التطرف الديني	9	29.03%	15	48.39%	7	22.58%	31	100%
								%100
المجموع	9	29.03%	15	48.39%	7	22.58%	31	100%
								100%

يتبين من الجدول رقم (06) أن الصحف المدروسة ذكرت 31 سببا دينيا مكررا للإرهاب، ولقد أجمعت على أنّ التطرف الديني هو السبب الأوحد المؤدي للقيام بالأعمال الإرهابية.

- **التطرف الديني:** جاء في المرتبة الأولى بمفرده بنسبة 100 بالمائة ما يمثل 31 تكرارا، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 48.39 بالمائة ما يمثل 15 تكرارا، متبوعة بصحيفة العرب بنسبة 29.03 بالمائة ما يمثل 9 تكرارات، وأخيرا صحيفة العربي الجديد بنسبة 22.58 بالمائة ما يمثل 7 تكرارات.

تعتبر القراءة المغلوطة للنص الديني المقدّس من الأسباب الرئيسة الدافعة لاعتناق أفكار التطرف والإرهاب، فمفهوم الجهاد مثلا، يخرجه الإرهابيون من سياقاته الألسنية والتاريخية والأنثروبولوجية؛ ليقحموه عنوة في عمليات تبريرية لا متناهية تضفي القداسة والمشروعية على أعمالهم. والتطرف الديني بهذا المفهوم يأتي نتيجة لعجز الكثير من المنتسبين للجماعات الإرهابية في فهم رسالة الإسلام الحضارية المتسامية الداعية إلى التعايش السلمي بين الشعوب والثقافات، كما أنّ تبنيهم لخطابات التطرف ناتج كذلك عن خطابات الكراهية والحقد التي يقوم بترويجها بعض المنتسبين للعلوم الدينية، الذين يلوون أعناق النصوص الدينية، ليستخرجوا منها ما يخدم مشروعهم في إقامة ما يسمونه في أبجدياتهم "دولة الخلافة".

وفي هذا الخصوص يقول ميشال بونر (Micheal Bonner): "إن جميع هؤلاء الإرهابيين المستقلين يمتلكون معرفة سطحية بالقرآن، ولذا فمن العبث أن نحاول مناقشة تأويلهم للنص أو أن نلوم الإسلام عن جرائمهم".[47]

ومن القراءات المفهومية المغلوطة للنص المقدّس تأتي قضية الولاء والبراء في مقدمة المسائل الفقهية التي استشكل فهمها على منظري الفكر الإرهابي وراحوا يستغلونها في إخراج فتاوى التكفير والعنف التي تشرعن للعمل الإرهابي، ويؤكد حسن محسن رمضان في هذا السياق أنّ قضية الولاء والبراء هي أصل ومحور كل الكتابات المتطرفة وما يتلوها من أعمال ومواقف، موضحا بالقول: "فمن وجهة نظر هذه الجماعات فإن موالاة من يتم الحكم عليهم بأنهم كفار أو مشركون أو حتى موالون لأهل الكفر والشرك، وإن كانوا مسلمين هو كفر أكبر مخرج من ملة الإسلام، وبالتالي فإن مبدأ البراء يجب أن ينطبق عليهم وبصوره العملية المختلفة".[48]

وفي سياق متصل، يلفت عبد الله بن عبد العزيز اليوسف، النظر إلى نقطة مهمة يراها من الأسباب التي تؤدي إلى اعتناق أفكار التطرف والإرهاب وهي "استفزاز المشاعر الدينية من خلال تسفيه القيم أو الأخلاق أو المعتقدات أو الشعائر بالقول أو الفعل، واتهام المراكز التربوية الإسلامية والمدارس القرآنية ومناهج التعليم ومنابر الدعوة كلها بالانحراف، والتنفير من الدين وتشويه أهله، وإظهار شيوخ المسلمين وعلماء الإسلام بصورة ساخرة منفرة، فإن هذا كله يسبب التطرف والغليان".[49]

4.5 قراءة في الأسباب الاجتماعية للإرهاب:

الجدول رقم 7: يبين الأسباب الاجتماعية للإرهاب كما وردت في الصحف المدروسة

الصحف / الأسباب	العرب		القدس العربي		العربي الجديد		المجموع	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
مشاكل الهجرة	5	27.78%	10	55.55%	3	16.66%	18	100% 72%
الفشل الدراسي	1	25%	2	50%	1	25%	4	100% 16%
التنشئة الاجتماعية السيئة	1	33.33%	2	66.66%	00	00%	3	100% 12%
المجموع	7	28%	14	56%	4	16%	25	100% 100%

يتضح من الجدول رقم (07) أنّ الصحف المدروسة ذكرت 25 سببا اجتماعيا مكررا لظاهرة الإرهاب، وقد جاءت المشاكل المترتبة على الهجرة في المرتبة الأولى، متبوعة بالفشل الدراسي في المرتبة الثانية، وأخيرا التنشئة الاجتماعية السيئة في المرتبة الثالثة والأخيرة.

- **مشاكل الهجرة:** سجلت أعلى نسبة بمقدار 72 بالمائة ما يمثل 18 تكرارا، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 55.55 بالمائة ما يمثل 10 تكرارات، تليها صحيفة العرب بنسبة 27.78 بالمائة ما يمثل 5 تكرارات، ثم صحيفة العربي الجديد بأدنى نسبة مقدارها 16.66 بالمائة ما يمثل 3 تكرارات.

- **الفشل الدراسي:** جاء في المرتبة الثانية بنسبة 16 بالمائة ما يمثل 4 تكرارات، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 50 بالمائة ما يمثل تكرارين اثنين، ثم العربي الجديد بنسبة 25 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا، بالتساوي مع صحيفة العرب بنسبة 25 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا.

- **التنشئة الاجتماعية السيئة:** حلت في المرتبة الثالثة بنسبة 12 بالمائة ما يمثل 3 تكرارات، كان النصيب الأكبر منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 66.66 بالمائة ما يمثل تكرارين اثنين، ثم صحيفة العرب بنسبة 33.33 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا، فصحيفة العربي الجديد بنسبة 00 بالمائة.

تستثمر الجماعات الإرهابية قدرات كبيرة في تجنيد منتسبين جدد، مركزة كل جهودها على استقطاب الفئات الهشة التي تعاني مشاكل اجتماعية لا حدود لها، وفي هذا السياق يقول فضالي موغدام: "إنّ الأعمال الإرهابية ترتكب بشكل أكبر من أفقر الأفراد الذين يعيشون في أفقر المناطق".[50] فالجماعات الإرهابية، تستغل تلك الأوضاع لصالحها وتوهم المنتسبين لها بأنهم ضحية لسياسات حكومية فشلت في توفير الحماية والرعاية الاجتماعية لأفرادها، وأنها، أي الجماعات الإرهابية، تمتلك البديل الجاهز والوصفة السحرية لتغيير تلك الأوضاع إلى الأحسن باستعمال القوة المسلحة.

ويلاحظ من خلال نتائج هذه الدراسة، أنّ جنوح الأفراد إلى الأعمال الإرهابية واعتناق أفكار متطرفة، يرجع إلى المشاكل الناجمة عن الهجرة إلى الدول الغربية، حيث يفشل بعض أفراد الجالية المسلمة في الاندماج في تلك المجتمعات، كما أنّ القليل أو الكثير منهم قد يكونوا ضحية للتهميش والتمييز العنصري، وقد يعانون الحرمان والفقر. هذه الأسباب مجتمعة أو متفرقة؛ تشكّل حاضنة للجماعات الإرهابية التي تحاول استغلال هكذا أوضاع اجتماعية لتعزيز صفوفها.

وفي هذا المعنى يؤكد ألان غريش (Alain Gresh) أنّ تنامي الأعمال الإرهابية في فرنسا خصوصا، يرجع إلى التهاون في حل المشاكل التي تعاني منها الأحياء الشعبية الفقيرة التي يعتبر أنها "غيتوهات" يحتجز فيها السكان الأكثر فقرا وخصوصا المهاجرين المسلمين.[51]

هذا التهاون في حل مشاكل المهاجرين المسلمين، يغذيه خطاب اليمين المتطرف في فرنسا، إذ يؤكد ستيفن غراهام (Stephen Graham) في هذا الاتجاه أنّ "اليمين المعاصر يخلط بين الإرهاب والهجرة، ويرى أي هجرة بسيطة أكثر بقليل من أعمال حرب، ووصف هذا التبديل الاستطرادي بتسليح الهجرة، يحوّل التركيز من الواجبات الأخلاقية في تقديم الضيافة والملجأ؛ نحو تجريم المهاجرين وتجريدهم من إنسانيتهم كأنهم أسلحة مناهضة للقواعد المتجانسة والإثنية- الوطنية المزعومة للسلطة الوطنية".[52]

وفيما يخص مسألة الفقر والشعور بالإهانة وانعدام العدالة الاجتماعية كأسباب اجتماعية دافعة لتشكل الظاهرة الإرهابية يؤكد يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) على أهميتها، إذ عندما سأله أحد الصحفيين عن رأيه في الإرهاب والحرب أجاب قائلا: "قوام الإرهاب هو الفقر والشعور بالإهانة (..) وانعدام العدالة الاجتماعية وعدم المساواة وكذلك انعدام وسائل تحقيقها".[53]

كما أن الفشل الدراسي، يعد سببا دافعا للانخراط في تلك الجماعات، لتغطية تلك الخيبة وذلك الانكسار الاجتماعي، ويلاحظ مثلا أن منفذ هجوم "مانشستر أرينا" فشل في إكمال دراسة تخصص الأعمال بجامعة مانشستر، حيث غادرها بعد سنتين فقط من الالتحاق بها، نفس الشيء يقال على التنشئة الاجتماعية السيئة، وما تلحقه بأضرار على الأفراد والمجتمعات، فالفرد الذي ينشأ في أسرة مفككة ولا يتلقّى أيّة قيمة تدعو إلى التحلي بمكارم الأخلاق والفضيلة ومحبة الآخر وحل المشاكل بالحوار والهدوء، سيسهل تجنيده مستقبلا من طرف الجماعات الإرهابية التي تستثمر في الأفراد ضحايا التفكك الأسري، كما أنّ الأفراد الذين يعيشون في أسر لديها ميول للتطرف، سيكونون أقرب من غيرهم إلى الالتحاق بالجماعات الإرهابية.

5.5 قراءة في الأسباب النفسية للإرهاب

الجدول رقم 8: يبين الأسباب النفسية للإرهاب كما وردت في الصحف المدروسة

الصحف / الأسباب	العرب		القدس العربي		العربي الجديد		المجموع	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
الاضطرابات النفسية	00	00%	02	100%	00	00%	02	%100
								%100
المجموع	00	%00	02	100%	00	00%	02	100%
								100%

يتضح من الجدول رقم (08) أنّ اثنتين من الصحف المدروسة وهما العرب والعربي الجديد لم تذكرا أي سبب نفسي للإرهاب، باستثناء صحيفة القدس العربي التي أفردت تكرارين اثنين يتحدثان عن الاضطرابات النفسية.

- **الاضطرابات النفسية:** حلت في المرتبة الأولى بمفردها بنسبة 100 بالمائة ما يمثل تكرارين اثنين ، كان النصيب الأوحد منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 100 بالمائة ما يمثل تكرارين اثنين.

يتبين من التحليل الإحصائي السابق ، أنّ الصحف المدروسة وبخاصة القدس العربي تذهب إلى أن الاضطرابات النفسية تُعدّ من الأسباب التي تدفع بالبعض إلى الالتحاق بالجماعات الإرهابية لإشباع نفسياتهم المريضة بمشاهد القتل والتفجير. وفي هذا الخصوص يرى ماجد موريس إبراهيم أنّ السمة الشخصية المشتركة عند الإرهابيين القياديين تتسم بالعظمة المرضية "البرانويا" ، إضافة إلى سمة الاضطهاد المرضي وأنهم وراثيا يولدون لوالدين يكون أحدهما على الأقل عنيفا قاسيا. [54]

وتعقيبا على قول ماجد موريس إبراهيم ، بخصوص أنّ الإرهابيين يولدون لوالدين يكون أحدهما عنيفا ، فإنه يسجل من خلال العملية التحليلية أنّ والد منفّذ هجوم "مانشستر أرينا" كان متهما بالانخراط في جماعة إرهابية ليبية في تسعينيات القرن الماضي ، وقد هاجر إلى إنجلترا هروبا من الأمن الليبي.

كما يؤكد عدد آخر من الباحثين أنّ الإرهابيين يعانون مشكلات سيكولوجية عميقة ، وأنهم عدوانيون ، وجامحون ، ومختلون ، وأيضًا سيكوبائيون ؛ والسيكوبائي شخص متبلد المشاعر يقوم بسلوكيات عدائية ضد المجتمع ولا يستفيد من خبراته ومنغلق التفكير ، بعيد عن المرونة شديد التصلب. [55]

ويؤكد شاكر عبد الحميد ، في ذات المعنى أنّ المنحى الأكثر قبولاً هو ذلك الذي يرى أنّ الإرهابيين يعانون من مزيج من السيكوبائية والسوسيوبائية ، وقد وصف كتاب التشخيص الإحصائي الرابع الخاص بجمعية الطب النفسي الأمريكية ، وصنف الأفراد الذين يعانون من مثل هذا الاضطراب ، على أنهم يعانون من اضطرابات شخصية معادية للمجتمع ، وأنهم يميلون إلى الانتهاك والاستيلاء على حقوق الآخرين بالقوة وأنهم يفشلون في الشعور بالتعاطف مع ضحاياهم. [56]

ومن الكتاب الذين اعتمدوا على التفسيرات السيكولوجية للإرهاب ، يعطينا فرايزر إيغرتون (Fraser Egerton)مثالا عن الباحثين الإيطاليين برونو ((F.Brunoوفيراتشوتي (F.Ferracuti) اللذان قاما بدراسة مجموعات إرهابية يمينية في إيطاليا ، واستنتجا أن هؤلاء الإرهابيين يعانون عوارض بسيكوباتية ، ويدلل إيغرتون عن ذلك بقول لوالتر لاكور Walter Laqueur)) الذي يؤكد بالقول: "إنّ للجنون خصوصا جنون الشك والاضطهاد دور في الإرهاب ، وليس كل الشكاكين أو المذعورين إرهابيين ، لكن جميع الإرهابيين يعتقدون أن قوى عظيمة ومعادية تحوك مؤامرات ضدهم ، وهم يعانون بعض أشكال الوهم وهوس الاضطهاد ، وإن تردد كثيرون في الاعتراف بذلك". [57]

تعليقا على ما سبق ، يمكن القول إنّ الحكم على كل الإرهابيين بأنهم مرضى نفسيا لا ينطبق بالضرورة على الكثير من الأفراد الذين التحقوا بالجماعات الإرهابية نتيجة لظروف اجتماعية متأزمة ، أو لتحقيق طموحات سياسية ، أو دينية أو غير ذلك ، فبن لادن مثلا لم يعرف عنه قبل تأسيسه لتنظيم القاعدة وبعد ذلك إصابته بأي مرض نفسي ، ولم توجّه له أية تهمة بكونه شخصية سيكوبائية ، بل تم تصنيفه على أنّه شخص سويّ يحمل مشروعا سياسيا بديلا شحنه بأفكار دينية مغلوطة تؤسس لقتال المخالف بأي طريقة كانت ، أي أن دوافعه كانت ذات بعد سياسي ارتكزت على مفاهيم متطرفة ورؤى دينية باطلة ، بمعنى أنّ مشكلة بن لادن ليست نفسية بقدر ما هي مشكلة في فهم النص الديني المقدس.

6.5 قراءة في الأسباب الثقافية للإرهاب

الجدول رقم 9: يبين الأسباب الثقافية للإرهاب كما وردت في الصحف المدروسة

الصحف / الأسباب	العرب		القدس العربي		العربي الجديد		المجموع	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
البيئة الثقافية	00	00%	01	100%	00	%00	01	100% 50%
الانتماء الثقافي	00	00%	01	100%	00	%00	01	100% 50%
المجموع	00	00%	02	100%	00	00%	02	%100 100%

يتضح من الجدول رقم (09) أنّ اثنتين من الصحف المدروسة وهما العرب والعربي الجديد لم تذكرا أي سبب ثقافي للإرهاب، باستثناء صحيفة القدس العربي التي أوردت تكرارين اثنين، جاءا في المرتبة الأولى بالتساوي وهما البيئة الثقافية، والانتماء الثقافي.

- **البيئة الثقافية:** جاءت في المرتبة الأولى بنسبة 50 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا، كان النصيب الأوحد منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 100 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا.

- **الانتماء الثقافي:** جاء في المرتبة الأولى كذلك بنسبة 50 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا، كان النصيب الأوحد منها لصحيفة القدس العربي بنسبة 100 بالمائة ما يمثل تكرارا واحدا.

تحليلا لما سبق رصده إحصائيا، يمكن القول إنّ أفراد الجالية من الذين لديهم القابلية للالتحاق بالجماعات الإرهابية؛ يعانون من حالة اغتراب ثقافي بحكم عيشهم في بيئة غربية لا تشبه البيئة العربية الإسلامية التي ينحدرون منها، فهم بحكم تركيبتهم الثقافية يعتقدون أنّ الغرب يستهدفهم حضاريا ويعمل على تغريب الدول العربية والإسلامية بشتى الوسائل السياسية والثقافية والعسكرية، لذا يرون أنّ واجب الرد عليه يستدعي استعداؤه ومقاومته بالقوة، لثنيه على تحقيق أهدافه، وقريبا من هذا المعنى يقول محمد المدني بوساق أنّ الهجرة على المستويين المحلي والدولي وما تولده من صراع في العادات والثقافات وعدم التجانس والاندماج سواء كانت من الريف إلى المدينة أو من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية تمهد الطريق لظهور جماعات إرهابية.[58]

كما أن الإرهابيين يعتنقون أفكارا ثقافية راديكالية لا تعترف بعادات وتقاليد الآخر وتصنفها في خانة البدع والخرافات والأساطير التي يجب محاربتها، منطلقين من فهم إثنو-مركزي يجعل منّ ثقافتهم "حقيقة/مركزية" وثقافة غيرهم "خرافة/ هامشية"، هذا الفهم تبرره تلك الجماعات بتفاسير دينية "ميتا- تاريخية" (Méta-Historique) منزوعة من سياقاتها، تعمل على تمريره لأفراد الجالية المهاجرة تحت مسميات الحفاظ على الأصول الثقافية وعدم الذوبان في الثقافة الغربية، لكن الأخطر من كل هذا، ليس الدعوة إلى المحافظة على ذلك الانتماء الثقافي للحضارة العربية الإسلامية، بل هو التحريض على ممارسة العنف لطمس المعالم الثقافية للآخر وعدم الانخراط في مدارسه ومسارحه ونواديه الثقافية، التي يجب العمل على زرع الرعب في صفوف مرتاديها، وهذا ما حدث بالضبط في تفجير مانشستر الذي استهدف حفلا موسيقيا بأكبر قاعة للحفلات في أوروبا "مانشستر أرينا".

ويقدّم أمين معلوف جوابا لذلك التقوقع الثقافي الرافض لثقافة الآخر، مرجعا إياه إلى "العولمة المتسارعة التي تولّد استجابة تتمثل في

تعزيز الحاجة إلى تأكيد الهوية ، وكذلك تعزيز الحاجة الروحية بسبب القلق الوجودي الذي يصاحب هذه التحولات المباغتة ، والجدير ذكره أن الانتماء الديني وحده يقدم جوابا عن هاتين الحاجتين أو يسعى أقله لتقديم هذا الجواب".[59]

على النقيض من ذلك ، يعتقد تزيفتان تودوروف (Tzvetan Todorov) أنّ الحكومة الأمريكية وبعض حلفائها ، تنقل بعض قيمها إلى شعوب الشرق الأوسط حتى وإن استدعى الأمر احتلالها ، من أجل السيطرة على الموارد النفطية أو إقامة القواعد العسكرية ، ويبدي تودوروف اعتراضه على ذلك موضحا بالقول: إنه لمن السذاجة أن نعتقد أنه بإمكاننا لصق قواعد حياة غربية في أي بلد كان ، ذلك أن حياة مجتمع هي كلّ متكامل ، وإجراء تغيير هنا غالبا ما ينجم عنه هنالك مفاعيل غير مرغوب فيها.[60]

هذه المفاعيل غير المرغوب فيها بتعبير تودوروف تُترجَم على شكل أعمال إرهابية ، يقوم بها أفراد ومنظمات أعطت لنفسها حق التكلم باسم الضمير الجمعي للرد على منظومة القيم الغربية التي تريد قوى الهيمنة فرضها ولو بالقوة على المجتمعات العربية والإسلامية بغرض إخضاعها وإبقائها في حالة من التخلف المستديم.

6. النتائج النهائية للدراسة

توصلت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج أجابت عن التساؤل الرئيس: ما هي أسباب الإرهاب حسب الصحافة العربية المكتوبة الصادرة بلندن من خلال تغطيتها لهجوم مانشستر ؟

يمكن عرضها كاملة ومرتبة بحسب أهميتها في الصحف المدروسة على النحو التالي:

- **الأسباب السياسية:** وتتفرع منها الأسباب الفرعية التالية: الأزمات السياسية ، الاستبداد السياسي ، الإيديولوجيا السياسية ، الإرهاب رد فعل انتقامي ، الإرهاب صناعة غربية.

- **الأسباب الدينية:** ويتفرع منها السبب الثانوي الآتي: التطرف الديني.

- **الأسباب الاجتماعية:** وتتفرع منها الأسباب الثانوية التالية: مشاكل الهجرة ، الفشل الدراسي ، التنشئة الاجتماعية السيئة.

- **الأسباب النفسية:** ويتفرع منها السبب الثانوي التالي: الاضطرابات النفسية.

- **الأسباب الثقافية:** ويتفرع منها السببان الثانويان الآتيان: البيئة الثقافية ، الانتماء الثقافي.

خاتمة

يتضح من هذه الدراسة أنّ الإرهاب ليس نتاج لسبب واحد أو نتاج لسببين اثنين ، بل هو حصيلة لمجموعة كبيرة من الأسباب المتداخلة ، السياسية والدينية والاجتماعية والنفسية والثقافية ، التي تشكّل بيئة حاضنة قد تدفع ببعض الأفراد إلى اعتناق أفكار التطرف والإرهاب ، لذا وجب التعامل بحذر إزاء مسببات هذه الظاهرة ، والوقوف بحزم أمام كل فهم دوغمائي يجزم بأنّ المسبب الأول للإرهاب هو الفهم المغلوط للنصوص المقدسة ، أو يدّعي بأن المسبب الأوحد للإرهاب هو الفساد السياسي.. وغير ذلك من اليقينيات التي لا تقدّم إجابات واضحة ودقيقة لظاهرة خطيرة تحتاج إلى فهم أعمق وأسلم.

إذاً ، يمكن القول ختاما أنّ الإرهاب وليد مجموعة من الأسباب المتعددة والمتداخلة ، والمختلف ظهورها مكانيا وزمنيا ، بحيث قد تكون الأسباب السياسية في بعض الدول وفي بعض الأوقات أهم مسبّب للإرهاب مع ثانوية المسببات الأخرى ، كما قد تكون الأسباب الدينية في بعض الدول الأخرى أهم مسبب مع ثانوية المسببات الأخرى ، والشيء نفسه يقال على الأسباب الاجتماعية والنفسية والثقافية... وغيرها.

الهوامش

1. جاك دريدا: **ما الذي حَدَثَ في "حَدَثِ" 11 سبتمبر**، ترجمة: صفاء فتحي، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003، ص 86.

2. جان بودريار وآخرون: **ذهنية الإرهاب – لماذا يقاتلون بموتهم**، ترجمة بسام حجّار، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص 21، ص 23.

3. معتز الخطيب: **الإسلام والإرهاب في الفكر الغربي-النماذج التفسيرية وخلفياتها**، ط 1، سلسلة مراصد كراسات علمية 09، وحدة الدراسات المستقبلية، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2012، ص 45.

4. عبد الله بن عبد العزيز اليوسف: **الأنساق الاجتماعية ودورها في مقاومة الإرهاب والتطرف** -دراسة **تحليلية للمجتمع السعودي**، ط 1، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، 2006، ص 66.

5. علي حرب: **الإرهاب وصناعه-المرشد الطاغية المثقف**، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2015، ص10.

6. Alexander Spencer: **The Tabloid Terrorist - The Predicative Construction of New Terrorism in the Media**. Palgrave Macmillan, London, England, 2010. P5.

7. Pierre Bourdieu : **Sur la télévision - suivi de l'emprise du journalisme**. Liber-Raisons d'agir. Paris, France, 1996, P 28.

8. مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 2004، ص 376.

9. إسماعيل بن حماد الجوهري: **الصحاح**. ط 1، حققه محمد محمد تامر وآخرون، دار الحديث القاهرة، مصر، 2009، ص470.

10. تشارلز تاونزند: **الإرهاب**، ترجمة محمد سعد طنطاوي، ط 1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014، ص10.

11. المرجع السابق، ص 9.

12. إبراهيم الحيدري: **سوسيولوجيا العنف والإرهاب**، ط 1، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2015، ص ص 31-31.

13. معتز الخطيب: مرجع سبق ذكره، ص 8.

14. أحمد فلاح العموش: **أسباب انتشار ظاهرة الإرهاب**، ط 1، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، 1999، ص 72.

15. إبراهيم الحيدري: مرجع سبق ذكره، ص 32.

16. Jean-Paul Ney, Laurent Touchard : **Le livre noir du terrorisme**. Editions de la Pieuvre noire, Paris, France, 2004, P4.

17. محمد فتحي عيد: **الإجرام المعاصر**، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، 1999، ص 141.

18. محمد قيراط: "شاهد أم متواطئ... تعاطي الإعلام مع الإرهاب"، **مجلة الإذاعات العربية**، إتحاد إذاعات الدول العربية، العدد 4، تونس، 2014، ص ص 10-11.

19. أحمد مختار عمر وآخرون: **معجم اللغة العربية المعاصرة**. المجلد الثاني، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2008، ص1272.

20. مجمع اللغة العربية: مرجع سبق ذكره، ص 508.

21. عيسى محمود الحسن: **الصحافة المدرسية المنبر الإعلامي التربوي**، ط 1، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2013، ص 19.

22. محمد عبد المولى الزعبي: **عصر الصحافة العملاقة**، ط 1، دار الصياد، بيروت، لبنان، 1991، ص 33.

23. خالد صلاح: **حرية الصحافة**، ط 1، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة، مصر، 2007، ص 9-10.

24. مادلين غراويتز: **مناهج العلوم الاجتماعية-منطق البحث في العلوم الاجتماعية**، ترجمة سام عمار، ط 1، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمشق، سوريا، 1993. ص ص 10-11.

25. René L'Écuyer : **Méthodologie de l'analyse développementale de contenu- Méthode GPS et Concept de soi.** Presses de l'Université du Québec, Canada, 1990. P7.

26. Ibid. P12.

27. Christian Leray : **L'analyse de contenu - De la théorie à la pratique - la méthode Morin-Chartier**. Presses de l'Université du Québec, Canada, 2008, P5.

28. Kevin Rawlinson and Alice Ross:"What happened in Manchester? What we know so far about the attack", Viewed on: 10 June 2017: https://www.theguardian.com/uk-news/2017/may/23/manchester-arena-attack-what-we-know-so-far

29. رشدي أحمد طعيمة: **تحليل المحتوى في العلوم الإنسانية** ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، 2004 ، ص 242.

30. معلومات تم استرجاعها من الموقع الرسمي لصحيفة العرب بتاريخ: 10 جوان 2017:
http://www.alarab.co.uk/?action=reset .

31. معلومات تم استرجاعها من الموقع الرسمي لصحيفة القدس العربي بتاريخ: 10 جوان 2017:
http://www.alquds.co.uk/?page_id=521704

32. معلومات تم استرجاعها من الموقع الرسمي لصحيفة العربي الجديد بتاريخ: 10 جوان 2017:
https://www.alaraby.co.uk/portal

33. رشدي أحمد طعيمة: مرجع سبق ذكره ، ص 272.

34. المرجع السابق ، ص 322.

35. المرجع السابق ، ص 215.

36. فضيل دليو: "معايير الصدق والثبات في البحوث الكمية والكيفية" ، **مجلة العلوم الاجتماعية** ، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 ، العدد 19 ، ديسمبر 2014 ، **ص** 85.

37. Arthur Paecht: Allocution d'ouverture du colloque: "L'Europe face au terrorisme", **Institut de Relations Internationales et Stratégiques**, Paris, France, 8 mars 2005, p 2.

38. CIEM : "Jihad militant : Radicalisation, conversion, recrutement", **Tendances en terrorisme,** Université Carleton, Volume 4, Canada, 2006, p8.

39. Fathali Moghaddam: "The Staircase to Terrorism - A Psychological Exploration". **American Psychologist**, the American Psychological Association, Vol 60, No 2, USA, February–March 2005, p 165.

40. Ibid, p 165.

41. محمد مسعود قيراط: **الإرهاب: دراسة في البرامج الوطنية وإستراتيجيات مكافحته-مقاربة إعلامية** ، ط 1 ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض ، السعودية ، 2011 ، ص 68.

42. فواز جرجس: "في جحر الأرنب: بحثا عن تاريخ داعش" ، ضمن كتاب: **بين السلفية وإرهاب التكفير أفكار في التفسير،** مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 2016 ، ص 13.

43. حميد بوزارسلان: **قراءة في تاريخ العنف في الشرق الأوسط – من نهاية السلطة العثمانية إلى تنظيم القاعدة،** ترجمة هدى مقنّص ، ط 1 ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، لبنان ، 2015 ، ص 423.

44. ديفيد كين: **حرب بلا نهاية-وظائف خفية للحرب على الإرهاب،** ترجمة معين الإمام ، ط 1 ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، السعودية ، 2008 ، ص 60.

45. ناعوم تشومسكي: **إرهاب القراصنة وإرهاب الأباطرة قديما وحديثا،** ترجمة أحمد عبد الوهاب ، ط 1 ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، مصر ، 2005 ، ص 143.

46. روبرت دريفوس: **لعبة الشيطان-دور الولايات المتحدة في نشأة التطرف الإسلامي،** ترجمة مصطفى عبد الرزاق ، ط 1 ، مركز دراسات الإسلام والغرب ، القاهرة ، مصر ، 2010 ، ص 11.

47. كارين آرمسترونغ: **حقول الدم – الدين وتاريخ العنف،** ترجمة أسامة غاوجي ، ط 1 ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت ، لبنان ، 2016 ، ص 582.

48. حسن محسن رمضان: **تشريح الفكر السلفي المتطرف،** ط 1 ، دار الحصاد ، دمشق ، سوريا ، 2009 ، ص 257.

49. عبد الله بن عبد العزيز اليوسف: مرجع سبق ذكره ، ص 87.

50. Fathali Moghaddam: Op cit, p 163.

51. ألان غريش: **الإسلام والجمهورية والعالم** ، ترجمة جلال بدلة ، ط 1 ، دار الساقي ، بيروت ، لبنان ، 2016 ، ص 9.

52. ستيفن غراهام: **مدن تحت الحصار – فضائح العنف السياسي وعسكرة التنظيم المدني** ، ترجمة ميراي يونس ، ط 1 ، دار المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان ، 2013 ، ص 28.

53. إبراهيم الحيدري: مرجع سبق ذكره ، ص 84.

54. ماجد موريس إبراهيم: **الإرهاب الظاهرة وأبعادها النفسية** ، ط 1 ، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار ، الجزائر ، 2005 ، ص 234.

55. شاكر عبد الحميد: **التفسير النفسي للتطرف والإرهاب** ، ط 1 ، مكتبة الإسكندرية ، مصر ، 2017 ، ص 15.

56. المرجع السابق ، ص 15.

57. فرايزر إيغرتون: **الجهاد في الغرب – صعود السلفية المقاتلة**، ترجمة فادي ملحم ، ط 1 ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، الدوحة ، قطر ، 2017 ، ص 41.

58. محمد المدني بوساق: "الإرهاب وأخطاره والعوامل المؤدية إليه وأساليب مكافحته"، ورقة مقدمة لندوة نظمتها جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الدوحة ، قطر ، 11 أكتوبر 2004، ص 25.

59. أمين معلوف: **الهويات القاتلة**، ترجمة: نهلة بيضون ، ط 3 ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، 2015 ، ص 112.

60. تزفيتان تودوروف: **الخوف من البرابرة – ما وراء صدام الحضارات** ، ترجمة جان ماجد جبور ، ط 1 ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، 2009 ، ص 117.

أمثولة* التضحية والإيمان في فلسفة سورين كيركغارد

كمال طيرشي*

الملخص

إن مسعانا في هذا المقال بيان أرموزة التضحية وعلاقتها الغريبة بالمحبة والإيمان ، منطلقًا من عرض بعض المقولات اللاهوتية العميقة التي تكتنف المسرح الثيولوجي الكيركغاردي مثل مقولة "الرجعى" و"المتوحد" و"الإيمان بالرب" المتعالق مع "المحبة الدنيانية للمعشوقة البشرية" التي جسرت له السبيل نحو التولّه القلبي بالرب في قيوميته ، فكانت بمثابة القربان الإنسي المقدم ، بغية الحصول على المطلقية ، بحكم أن الفنائية تغالب الذات البشرية الطامحة إلى بلوغ المطلقية المفارقة والكامنة في العالم الملكوتي الآفاقي ، واستشهدت في المقال ببعض الشخصيات ك "النبي أيوب ومحنته" و"النبي إبراهيم الذي ينعته كيركغارد بفارس الإيمان" ، هذين النبيين اللذين اقتدرا على إثبات محبتهما الربانية عن طريق التضحية فكانت الصحة والأصدقاء قربان النبي أيوب في إثبات محبوبيته للرب ، وكان الابن إسحاق قربان النبي إبراهيم في سبيل البرهنة على إيمانه الصادق الذي يغيب عن الفهم البشري الفاني ، وواشجت بين هذين النبيين وما حصل مع سورين كيركغارد في علاقته برجين أولسن.

الكلمات المفاتيح: الرجعى ، التضحية ، الإيمان ، فارس الإيمان ، المحبة.

Résumé

Dans cet article, l'auteur cherche à montrer, le symbolisme du sacrifice et sa relation bizarre et inattendue avec l'amour et la foi. Basé sur les arguments théologiques profonds utilisés dans les textes théologiques de Kierkegaard, tels que les catégories de « la reprise », de « l'individu solitaire», de « la foi en Dieu » qui est étroitement liée à « l'amour temporel du prochain». L'amour humain, selon Kierkegaard, permet la transition vers la foi en Dieu qui «est la plus haute passion de tout être humain» dans son éternité. Kierkegaard voit que la foi transcende l'amour humain qui, pour atteindre l'absolu, s'offre en sacrifice au divin. L'amour absolu porté à Dieu domine l'être humain qui aspire à l'absolu paradoxe et intrinsèque. L'auteur se réfère également à quelques-uns des personnages religieux dont Kierkegaard parle, y compris « le prophète Job et sa souffrance » et le prophète Abraham que Kierkegaard qualifie comme «chevalier de la foi», ces deux prophètes qui prouveront leur amour divin à travers leur sacrifice de soi. Job offrît sa santé et ses amis, alors qu'Abraham donna son fils Isaac comme offrande à Dieu. Enfin, l'auteur tente d'établir des parallèles entre les sacrifices de ces deux prophètes bibliques et les tribulations amoureuses de Kierkegaard avec Régine Olsen.

Mots-clés : Reprise, sacrifice, foi, Régine Olsen, Kierkegaard, chevalier de la foi, l'amour.

Summary

In this article, the author intends to describe the symbolism of sacrifice and its strange, unexpected relationship with love and faith. The paper is rooted in allusions contained within Kierkegaardian theological texts, and specifically as Kierkegaard's theology relates to the individual, the theory of eternal return, faith in God and the relation of these to human love. In Kierkegaard's writings, it is these theological concepts, which allow humans to find the divine within themselves, by offering the human a self-sacrifice in an effort to achieve the absolute. The author also refers to some of the religious figures who Kierkegaard writes about, including the Biblical Prophet Job, and the Patriarch Abraham, described as the "Knight of Faith". Kierkegaard had focused on these two prophets because of their self-sacrifice in expressing their faith in God. Finally, the author attempts to draw parallels between the sacrifices of these two biblical prophets and Kierkegaard's own tribulations through his relationship to Regine Olsen.

Keywords: Repetition, the sacrifice, Faith, Knight of Faith, love.

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالدوحة

مقدمة

سنح لمفهوم التضحية أن يجد منزلة كبيرة في حياة سورين كيركغارد الدينية ، وتلاحم تلاحمًا مثيرًا بكتاباته التي تتابعت فور سفره إلى برلين ، حيث استطاع في عام واحد أن يصدر كتابين مهمَّين على إثر الانفصال الغامض عن **رجين أولسن** عشيقة وخطيبة الفيلسوف سورن كيركجارد أو شمس النساء كما يحبذ نعتها ، وهي ابنة مستشار الدولة تركل أولسن وهو واحد من كبار الشخصيات في وزارة المالية بالدنمارك وكان عمرها آنذاك لما طلب يدها أربعة عشر عامًا وكان هو في الرابعة والعشرين من العمر ؛ حمل الأول عنوان **الرجعى** ، وتناول فيه دلالات الرجعى الدينية وإمكانات التضحية ، أما الكتاب الثاني الذي استلهم قوته منه والذي كان جماع رؤيته الجمالية ومحنته الروحانية ، فهو كتاب **خوف ورعدة**. وسيكون لهذا الكتاب تأثيراته المتتابعة في جل أعماله ، وسيكوّن فلسفته الدينية ويطورها لاحقًا. والعمل برمته ما هو في حقانية الأمر إلا إنتاج جمالي شاعري ، يروي بصدق واحترافية نضاله المستميت في سبيل النأي عن كل أمل موعود في الفردوس الأرضي المتلاحم بالتجربة الحسية ، فقد آمن سورين كيركغارد إيمانًا كبيرًا بقصة النبي إبراهيم والسعي نحو الاستجابة للإرادة الإلهية المطلقة ، متخذًا من تضحية إبراهيم المدد الروحاني العميق لاكتناه الحقيقة الإيمانية. عادًا أرموزة إبراهيم النبي مسعىً ربانيًا لاختبار إبراهيم ، بيد أن سورين كيركغارد يشير أيضًا إلى أمر آخر ، وهو أن على كل بشري أن يجرب ذاته في أن يضع نفسه مكان النبي إبراهيم ، وهو بذلك أراد أن يناقش باستفاضة موضوعَي الحرية والاختيار بوصفهما عملًا فرديًا خالصًا ، مرتبطين شديد الارتباط بالمسألة الأخلاقية والدينية ، وهو ما يفسر في ما بعد فهمه للإنسان المسيحي الحقاني ، بحكم أنك لن تكون مسيحيًا حقانيًا إلا إذا عانيت وعايشت المحنة. ولما كانت التضحية ضربًا عظيمًا من الإيمان ، وتعبيرًا صدوقًا عن المحبة عند كيركغارد ؛ جاءت دراستنا لتدرس بنوع من الجمالية هذه العلائقية ، وتسلط الضوء على منحى فريد من وجودية سورين كيركغارد المتدثر بدثار الفردية المتوحدة.

فما دلالات التضحية عند سورين كيركغارد ؟ وما منزلة الرجعى في لاهوته الوجودي ؟ وكيف كانت التضحية بالمعشوقة رجين أولسن ضربًا من القربان العظيم ؛ بغية تحصيل المحبة الربانية العرفانية ؟ هل ضحى بها أم تخلت عنه ، لغرابته وشذوذه النفسي وشخصيته السوداوية المكتئبة ؟ هل اختار الابتعاد بالأصح وأين يتنزل المنحى الإيماني الصدوق في سيرة كيركغارد التراجيدية ؟

أولًا. المحنة الأيوبية (أرموزة الرجعى)

"الحب في الرجعى هو وحده الحب السعيد"

سورين كيركغارد (الرجعى)

من المفاهيم الملغزة التي تكتنف مسرح سورين كيركغارد الأنطولوجي مفهوم التضحية الذي يتوالد بطريقة مفارقاتية عن مكابدة روحانية للفرد المنفرد ، ولعل أقرب نموذج تضحوي إلى قلب سورين تجسد في شخص أيوب النبي ، بوصفه النموذج الأكبري في التعبير عن التضحية المتدثرة بدثار الإيمان المتواشج مع الحقيقة الآفاقية المطلقة ، وحضورية أرموزة التضحية الأيوبية تجلت بقوة في كتاب سورين المثير **الرجعى** (*Gjentagelsen*) ، وفضّلْتُ ههنا اعتماد لفظ "الرجعى" بدل "التكرار" ، على الرغم من اعتماد رهط من الباحثين العرب المختصين بكيركغارد لفظ "تكرار" بدل "رجعى"[1] ، وعلى رأسهم عبد الرحمن بدوي ، وجاسم قحطان[2] ، ومجاهد عبد المنعم مجاهد ، ولكلٍ تبريره في ذلك دلالة وضمنًا ، ولكن حينما نعود إلى العنوان الأصلي لكتاب كيركغارد نجده (*Gjentagelsen*) ، ويعتقد سورين أنه لفظ دنماركي خالص ، ويهنّئ اللغة الدنماركية على قدرتها على نحت هذا اللفظ[3].

يتجلى للمتأمل في هذه الأمثولة ؛ أن مقصدها لم يكن يبتغي "تكرار"علاقته برجين أولسن ، بقدر ما كان إعادة إحيائها وبعثها والاستمرار فيها. مثله في ذلك كمثل البستاني الذي يترك أشجاره تذبل لفترة ؛ لأنه لم يسقها بالماء ، ثم يرجع ويعيد سقيها فتبعث بعثًا خلاقًا ، وقد اقترح الباحث الفرنسي نيلي فيالانيكس (Nelly Viallaneix) ترجمة لكلمة (Gjentagelsen) في اللسان الفرنسي هي La reprise[4] ، وليس La répétition ، فيكون اللفظ العربي الأقرب دلالة لها هو "رجعى" ؛ لأن لَفظ رجعى يوحي بالبعث والاسترجاع من جديد بعد الفقد والخسران ، فالكتاب صغير في عدد صفحاته

إلا أنه نحا إلى وصف حالات صراع الفرد المنفرد بين مواقفه الحياتية الجمالية المثالية والإيتيقية الأخلاقية ، ويعتمد سورين نمط كتابة ينعته بـ "بالاتصال غير المباشر" ، والذي يهدف من خلاله إلى نزع صفة الشخصية عن الموضوع الذي يطرقه في الكتاب ، ويقحم القارئ ويحثه على اتخاذ موقف من القضايا المطروقة ، وهي طريقة تشبه طريقة التوليد السقراطية ، وفي الكتاب يعتمدها بدرجة خاصة مع الفتاة[5] ، والفزع المريع الذي يسلك بالفرد بمنحى اليأس والحنين لاستعادة المفقود الذي خسره في لحظة زمنية معينة[6] ، صدر الكتاب عام 1843 ، وهو العام نفسه الذي صدر فيه كتابه الثاني **خوف ورعدة**[7] ، واعتمد سورين في كتاب **الرجعى** على اسم مؤلف مجهول يدعى قسطنطين ، إذ إن كيركغارد عوّدنا في كتاباته بعد انفصاله عن رجين أولسن على أن يكتب كتبه بأسماء مستعارة ، و**الرجعى** في الأساس عبارة عن رسائل وجدانية حميمية شكلت المنحى السيكولوجي المفارقاتي لدى سورين وعالمه الدخلاني.

الرجعى هذه المقولة المفارقاتية ذات الأبعاد الفلسفية واللاهوتية والتعاطفية الكبيرة ، بطلها شاب غامض محموم برعدة الوجدان ، ينحو حثيثًا إلى أفق ارتقابِ رجعى محبوبته التي خسرها لأسباب ملغزة ، شخص وصفه كيركغارد بأنه عاطفي جدًّا ، وحزين ، ويحمل وجدانًا مرهفًا ، يلتقي فجأة بالمستشار قسطنطين الذي يتوسم في هذا الشاب المعاناة النفسية مع معشوقته. وبعد محاورات كثيرة معه يكتشف أن هذا الشاب تائه في غياهب الحب ، وواقع في عشق فتاة ، ولكن بعد ردح من الزمن يتقدم لطلب يدها للزواج ، ويعقد القران الروحاني معها ، إلا أن هذه الخطبة لم تكن فاتحة خير بالنسبة إليه ، بل أيقظت في جوانيته قلقًا وجودانيًا عميقًا ، وأوقعته في مشكلة أنطولوجية وخيمة غير محمودة العواقب ، تسوقه في النهاية إلى فك الارتباط بهذه الفتاة ، وإرجاع خاتم الخطوبة إليها[8] ، ضروب التأويل الممكنة التي يمارسها نص سورين متأثرة بصورة أو بأخرى بالموروث الغربي الفلسفي ، من دون أن ننسى الكتاب المقدس والموروث المسيحي ، أما انفتاحه الكبير فكان مع الفلسفة الإغريقية ؛ فأدوات الحوار والتهكم والنقد تحايث أدوات فلاسفة اليونان (سقراط وأفلاطون وأرسطو)، ولكن في مقابل ذلك ، يستعين بالشعرية والغنائية ، وهي تجسد السرد المألوف في العقل الغربي عموما (الأنماط السردية اليونانية القديمة مثلاً)[9].

المثير أن هذا الشاب فور إقدامه على فسخ الخطوبة تصبح محبوبته ذكرى محبة عابرة ، تجوب خاطره بصورة آسرة ، ويستحضرها في خلواته دائمًا ويستوحي منها صلواته وابتهالاته ، كما لو كانت لقاءً عابرًا على وهاد الوجود ، والأدهى من ذلك أنه لا يكتفي باستحضارها في وجدانه المحموم ذكرى حب جميل سعيد ، بل يهيم ببصيرته إلى استشراف المستقبل البعيد ، متخيلًا نفسه قد غدا شيخًا طاعنًا في السن ، عبثت به سنو الدهر الطوال ، وقد أرهقت كاهله وعثاء الحياة ونال منه المرض ، وهو يستحضر حبه القديم في علاقته الشبابية الحميمية مع فتاة قلبه ، فذكراه وهو رجل عجوز مجردة من اللواحق الحسية والنزوات الحسية ، وقد خبت لفحة شهوته وعنفوانه الشبابي ونزواته القوية التي كان يتمتع بها وهو شاب صغير في السن ، وأثناء استحضاره هذه الذكرى العميقة ؛ يصبح شخصًا شاعريًا وجدانيًا مشبوبًا بروحانية محضة ، ويستيقظ الملكوت الجواني الذي كان قابعًا في نفسه ، ويفيض عليه خشوعًا وتقوى دينية كبيرة ، يعيشها فردًا مفردًا وحدانيًا في الوجود[10].

تتشابك الرجعى الكيركغاردية معرفيًا بصورة كبيرة مع نظرية التذكر الأفلاطونية ؛ إذ يعتقد أفلاطون أن العالم المادي الذي نتعالق به ، ونجربه عن طريق فعل الحواس ، هو عالم غير حقاني البتّة ، بل هو في الأساس عالم مقارب تصوريًا للعالم الحقاني ، وبصورة غير تامة المعالم. ووفقًا لنظريته ؛ ففي عالم الشهادة (العالم الدرني الزائل) تتغاير الموجودات ، تأتي وتذهب. لهذا ؛ هو عالم مليء بالهفوات والمزلات والخطايا ، وفي المقابل ، يرى أفلاطون أن هناك عالمًا آفاقيًا توجد فيه كل الموجودات على حقانيتها التي تتصف بالكمالية ، ولها مثيلاتها التي تشبهها أو تكون عبارة عن صورة طبق الأصل عنها (نسخة منها) في العالم الدرني المحسوس. ونعت أفلاطون هذا العالم بعالم الحقائق المطلقة ؛ فهو مستقل عن كل الموجودات ولا يتأثر باللواحق والمتغيرات التي عبثت بالعالم الذي نعايشه بالتجربة المحسوسة المباشرة ، ومجد المعرفة الحقانية عند أفلاطون لا

تتأتى له سؤدديته القيومية إلا عن طريق التذكر ؛ فبه وحده يعود الإنسان إلى عالم المثل ليعيش الحقائق الصادقة الصحيحة[11] التي لا تبيد ، فالمعرفة عند أفلاطون تذكر ، وإذن ، تكون الرجعى عند الشاب في كتاب كيركغارد ماهي إلا ارتداد إلى الفطرة النقية الصافية ، أي إلى المدرج الديني اللاهوتي قبل أن يشوهه المدرج الحسي والجمالي ، فالشاب الولهان عن طريق تذكره لمحبته الأولى يسترجع فطرته الأصلانية وفي ذلك بعث لها على نحو خلاق ، وحينما نعود إلى أفلاطون نجده يتساءل عن سر هذه المثل الذي تحصل في النفس ، على الرغم من أنه ليس بيننا وبين العالم المعقول من اتصال مباشر ، ليحدو بنا إلى التأمل الذي نستكشفه في نفوسنا بالتفكير ، فلما تعرض لنا قضية تحيرنا في العالم المحسوس ونشعر بالجهالة اتجاهها ، يتبين لنا ظن صادق يتحول إلى علم بالتفكير الخاص ؛ كأن نسأل شخصًا لا قبل له بالمفاهيم الرياضية الهندسية فيجيبنا إجابات صحيحة ويستنبط من نفسه مبادئ هذا العلم ، وبهذا ما دمنا نقتدر من ذواتنا على استخراج مفاهيم ومعارف لم يلقنا إياها أحد ، فلا بد أن تكون النفس قد اكتسبتها في حياة سابقة على الحياة الراهنة[12] ، فالبصيرة المعرفة بالنسبة إلى أفلاطون ؛ هي اكتشاف حقيقة أن الماضي غير متغير ، يجعل من تغيير العالم الحالي ضربًا من الوهم ، إذا كنا بحاجة إلى حب ، ونحن نعود بتفكيرنا إلى الوراء ، أو إلى التذكر المطمئن ، والجوهر السرمدي الموجود هناك بالفعل لإحيائنا ، لدينا معرفة بالحب طوال الوقت ، ولكنها نسيت وقتيًا ، ونحن نحاول أن نتذكر الحب الأول عندما كان حيًا ومثيرًا. لهذا نجد قسطنطين يستبدل الرجعى بالتذكر الأفلاطوني[13].

هناك غواية مخضبة بالحزن والشعور بالانعزالية عن العالم ، والتعبير بإخلاص عن عقيدة الفرد المنفرد السالك طريق خلاصه بنفسه. وبحكم أن الرجعى الكيركفاردية تترنح بين الجمالية الحسية والدينية ، نجد قسطنطين يجسد الحياة الأخلاقية الملتزمة ؛ لأنه يهيب بعقد الزواج ويحتكم إليه بالقانون الوضعي أو الإلهي ، ويدافع عنه كاختيار عظيم أمام الحضرة الربانية ؛ فهو مسؤولية أخلاقية وربانية في الآن عينه[14] ، أما الشاب المتيم فلا يقيم وزنًا لهذه العلاقة ، ويفسخها لتصبح بالنسبة إليه ذكرى محبة ، لكن يجب أن لا نفهم ههنا أن هذا الشاب يتلاعب بمشاعر حبيبته أو أنه شخصية **دونجوانية**(نسبة الدون جوان وهو شخصية أسطورية من الفولكلور الاسباني اشتهر بملاحقته واصطياده لقلوب الفتيات ، حيث يعشق كل الإناث من دون تمييز وبمجرد ايقاعه بفتاة معينة يعمد إلى قضاء وطره منها ثم ينتقل إلى أخرى تاركاً إياها تندب حظها) ، بل بالعكس ؛ هو شخص مؤمن ، ملتزم أخلاقيًا ودينيًا ، ولهذا يلوح في مخيالنا تساؤل حول انفصاله عن محبوبته ما دام يحبها بصدق وإخلاص ، لماذا انفصل عنها مادام أنه فرد ملتزم وليس تلاعبيًا ؟

يجيبنا سورين في لحظة تتلبس بها التعقيدات المفارقاتية المشبوبة بالحزن مستأنسًا بمقولة بيرون: "الحب هو السماء والزواج هو الجحيم" ، مدافعًا عن سر إقدام هذا الشاب على فسخ الخطوبة ، معتقدًا أن السر يكمن في **التضحية**؛ لأن من يريد حالات الوجود الأسمى عليه أن يضحي بحالات الوجود الأدنى ، لكنها ليست تضحية بالمفهوم الذي يعقرها جملةً بل يبقى للمدرج الحسي منزلته بحكم مركزيته ولكن من دون المكوث في عوالمه بل لجعله مطية للعروج نحو المدرج الأسمى منه ، ومن أراد الإلهي السرمدي فعليه أن يضحي بالبشري الفاني. إن الشاب ضحى بحبه ومحبوبته من أجل الحب السرمدي الإلهي الذي نوقظه في اللحظة التي ننأى فيها عن الحب الحسي ، بحكم أنه حب غير خالد ، وتتربصه إمكانات الخيانة بين الفينة والأخرى ، أما الحب الروحاني لها فهو حب أبدي. صحيح أن الشاب الغامض في كتاب **الرجعى** ضحى بها على مذبح عالم المحسوس ، لكنه فاز بها في عالم الروح ، وههنا نتذكر الجملة الغرائبية التي قالها كيركغارد ذات مرة عن محبوبته السابقة بولييت: "لقد شعرت بالميل اتجاه بولييت ، فهي قد أثرت فيّ وربما أثرت فيها أنا أيضًا ، ولكن ظل حبي لها ذا نبرة روحية خالصة"[15].

ضحّى الشاب الغامض ، إذًا ، بمعشوقته ؛ ليفوز بحبها الروحي الذي يكشف له حجب عالم الملكوت اللاهوتي ، ويبعث حبه الروحاني نحو الله ، حيث المحبة المطلقة. لهذا لم تكن هذه الفتاة إلا وسيلة مثلى للعروج إلى المحبة الإلهية الخالصة الطاهرة ، ولا سبيل إلى التعلق بحب الله إلا من خلال تقديم قربان التضحية ، وكانت الفتاة هي هذا القربان ؛ إذ ضحى بأغلى ما يملك في عالم الملكوت الرباني ، ومن يحبه

الرب يبتليه ويمتحنه ، فكان بلاء هذا الشاب أن فسخ عقد المحبة مع أقرب أنثى إلى فؤاده ، وهنا بالضبط تبدأ أمارات الرجعى وإرهاصاتها ؛ لأنه كان يعتقد أنه فور تقديم قربان المحبة الحسية كتضحية سيرجع له الرب حبه الحسي ويغدق عليه محبته الملكوتية الآفاقية ، ولكن ، للأسف ، لم يحصل لهذا الشاب الغامض مبتغاه ، وفشل في مسعاه ، ويقارن كيركغارد في كتابه **الرجعى** دلالات التضحية التي قام بها هذا الشاب مع دلالات التضحية عند النبي أيوب[16].

أثناء تحليل سورين لشخص النبي أيوب ؛ يصفه بذلك الفرد الذي ضاع منه كل ما يملكه من متاع الدنيا ، وتربص به اليأس والبؤس ، من دون أن يكون هناك تفسير سببي لما أصابه ، والغريب أن سورين حينما يتحدث عن هذا النبي لا يستحضره كشخصية دينية آفاقية ، بل كفرد عادي مندهش من العالم الذي أتينا إليه من دون مشورة ، وننتهي منه كذلك من دون مشورة ، فنحن نبدؤه بداية غامضة ، وننتهي نهاية أشد غموضًا. حاول أحباءه أن يخففوا عنه وقع المصيبة التي حلت به قائلين له: لا تتأوه يا أيوب ، إنني ههنا لم اعاقبك لأخطائك ، وعليك أن تتحمل هذا العذاب ، حتى يتسنى لك أن تطهر نفسك من رجس الخطايا والآثام ، لكن هذه المواساة سرعان ما يزدريها بحكم أنهم لا يملكون اليد الطولى لتفسيرها تفسيرًا حقانيًا ، ذاك أنه يشعر في دخلانيته المتسعرة جوانيًا أنه على حق ، حتى إن كان هذا الحق يحسب ضد الرب في حد ذاته الذي خلقه ، لهذا نجد أيوب قوي روحيًا ، لأنه مؤمن إيمانًا قطعيًا بأنه على حق في ما يعمل ، وهو يُقر بأنه في علاقة صحيحة مع الرب ، وأن فؤاده نقي بمنحى الرب والحياة ، وأن الرب في المقابل يعلم هذا ، لكنه يناقض الوجود ويقف ضده ، وتبريرًا لذلك يقول سورين: "السر في قصة أيوب ، القوة والحيوية والجوهر ، والفكرة هو أن هذا النبي على الرغم من كل شيء هو في حق ، هذا الادعاء يجعل منه استثناء من كل الاعتبارات الإنسانية ، مثابرته وقدرته على إثبات سلطته وإقراره على تفسير إنساني هو مجرد سوء فهم له ، وله فيما يتعلق بالله ، كل مشاكله ليست سوى سفسطة ، فقط للتأكيد بأنه ليس بإمكانه أن يحلها بنفسه ولكنه يثق بأن الله يمكنه حلها"[17].

وفي المقابل ؛ على هذا النبي أن يؤمن بالمفارقة المطلقة التي تجسد كونه على حق ومناقضة في الآن عينه للوجود كله ، لهذا يتوصل في النهاية إلى أنه يعرف الرب معرفة قليلة جدًا ، وأنه لن يقتدر على فهم الله فهمًا كاملًا وكليانيًا ، وأن عليه أن يتقبل ما هو غير متقبل عقلًا ، لكنه متقبل قلبًا ، كما أن أي مفسر حاذق يحاول أن يفسر لغزية هذا النبي فإنه سيصل إلى نتيجة واحدة فريدة ؛ هي أن كل شيء يحصل لأيوب هو **اختبار** ، لكن كيف يتأتى للفرد المنفرد أن يكتشف هذا الامتحان ؟ يجيبك سورين عن هذا السؤال قائلًا: "أي شخص لديه أي نوع من تصور الوجود ، في الفكر والوعي من كونه يدرك بسهولة أن يتم ذلك ليس بتلك السهولة أكبر مما يعمل أو يبقي بهذه السهولة كما يقال ، لا بد أولًا من مسح هذا الحدث من سياقه الكوني وأن يحصل على معمودية دينية ، واسم ديني ثم لا بد من وضعه في سياق الأخلاق للفحص ، ومن ثم يأتي هذا التعبير: **اختبار**"[18].

وفي هذا تكمن قيمة الفرد أيوب وعظمتهُ ؛ فقد ناضل وخاض صراعاته على تخوم الايمان ، فقد نال حظوة عظيمة وكلها جاءته من طرف أقرانه من البشر ، وهذا في النزاع الكلياني بين الرب والإنسان ، وعملية ممتدة ومروعة ، تنبع من حقيقة أن الشيطان وضع الفتنة بين الرب وأيوب ، والتي تنتهي في النهاية إلى الاعتراف بأن كل ما في الأمر هو اختبار ، وحينما نحاول اكتناه طبيعة هذا الاختبار ومدرجه الحياتي ؛ نجد أنه لا ينتمي إلى الجمالية ، ولا حتى إلى الأخلاقية ولا العقائدية ، بل هو متسامٍ سؤددي كلياني. وهذا التسامي يضع الفرد أيوب في علاقة شخصية للمعارضة مع الرب[19] ، ولما نجح الفرد أيوب في اختباره مع الرب بارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاده ، وزاد الرب على كل ما كان له ضعفًا ، ومن ثمّ ، حصل على الرجعى ، بحيث استعاد حياته ثانية وبأضعاف ما كان يبتغي ويحلم.

هذا بالضبط مدلول الرجعى في فلسفة سورين كيركغارد ، على الرغم من أنه مدلول غامض ، ويرجع ذلك إلى لبس المفاهيم المندرجة في سياق كتاباته ، إضافة إلى الكلام الملغز الذي نستشفه ونحن نقرأ كتاب **الرجعى**. لهذا كان لزامًا على هذا الشاب أن يعيش أزمة وجودية خانقة حتى يهبه الرب إمكانات الرجعى ، وأثناء عودتنا إلى الشاب المجهول ومحاولة

فهم علاقته بالفتاة ، وكذا محاولة فهم رؤيته للحب والزواج ، يتساءل الشاب في كتاب **الرجعى** عما إذا كان الحب سيكلل بالزواج ؟ وهل في إمكان هذا العشق أن يتحقق فعلًا عن طريق خيار الزواج ؟ وهل هناك إمكان لنقل حركيته من الإمكان إلى الواقع ؟

يستعين سورين ههنا بنظرة أرسطو حينما أعلن أن الانتقال من الإمكان إلى الواقع يمثل الحركة والتغير ، حيث لا يتحرك المحرك وفق الرؤية الأرسطية إلا وفقاً لطرق ثلاثة هي: الأول طريق عرضي غير جوهري ، وثاني جزئي ، وثالث مطلق. وهذه الطرق الثلاث تهم المحرك والمتحرك على السواء ، وفي الحصيلة ، حركة نجدها كذلك تتمظهر في فلسفة شيلينج ، وليس فقط في فلسفته الطبيعية ، ولكن أيضًا في فلسفته الروحانية ، وفي أطروحته حول الحرية ، إذ تحرك جزئيًا في إعادة صياغته للنص ، فهو يناضل بغية تضمين الحركة ، ولهذا نجد أن شخصية قسطنطين في الرجعى لم تستطع -بناءً على وضع مقولة الرجعى في علاقتها بالحركة -أن يستنتج أن الرجعى المتمظهرة في الطبيعة جبلت على هذه الحركية بخلاف الرجعى التي تتم في مجال الروح أصلًا[20].

كما نستجلي نموذجًا فلسفيًا آخر يستحضره سورين في كتاب **الرجعى** ؛ ليفسر الإحقاق الإمكاني لهذه الحالة في اللحظة التقدمية ، بمنحى الاستشراف المستقبلي ، وهي فكرة الوساطة الهيغلية التي من خلالها نفهم التحول التاريخي الممكن للرجعى وتدرجيتها ؛ فالتصور الحالي للشاب في الرجعى يتوسط حالة أولانية (ذكرى محبة) ، ونقيضها (الحب الاستشرافي وما سيكون عليه في آخر حياته) ، واللحظة الراهنة كتوليفة للحظتين ومنها يعقد قرار الشاب. هذا على الرغم من أن قسطنطين يتهكم بالتعاقب الهيغلي الخطواتي (فكرة) ، (نقيض فكرة) ، (توليفة)[21]. فهيغل يقول إن الروح تطور ذاتها من خلال عمقها الخاص[22] ، فهي تتطور بذاتها لا بما يربو على تلك الذات ، وفي هذا تعبير صريح على تطورية الروح ؛ إذ إن ما يتغاير ويتطور من طور إلى آخر ، هو هو ذاته ، إلا أنه ينتقل من هناك إلى هنالك ، قبل أن يعود إلى ذاته مرة أخرى ، والأمر عينه في ما يخص الفكرة من حيث هي تطور ، وإذا كان الفكر الحر يتجوهر بذاته وهذا ما يجعله حيًا ومتحركًا بذاته ، وإذًا ، فهذه الخاصية هي ما تنحو به إلى أن تجعله في قابلية لأن ينتج تاريخه الخاص به بذاته أيضًا ، وتلك هي حركيته وتغيريته قبل أن يعود إلى ذاته ، وهي الحركة التي بسببها يصبح الكائن في ذاته كائنًا هنا ثم كائنًا لذاته ، وهي الأطوار الثلاثة التي لا يعلم تعيين الروح في إحداها ، إلا بتوسط من تلك الحركة ، وهو ما يعني أن هذه الأخيرة هي الماهية الأساسية للفكرة أو العقل بما هو تطور ، وفي لحظة استنفاد الحركية ، يكون قد حقق كمال ماهيته ، وأصبحت إمكاناته الباطنية معروفة لديه ، وأصبح يعيها وعيًا كاملًا ، على أن هوية الكائن محققة في الأطوار الثلاثة كلها[23].

يجد الشاب المجهول نفسه مرعوبًا من أرموزة الزواج ، وهنا يخبره المستشار قسطنطين بأنه سيتحول لا محالة إلى شخص مخادع ، حاله في ذلك كحال الدون جوان ، وألزمه المستشار ضرورة الخنوع لميثاق الزواج ، وأن يكف عن التلاعب بمشاعر هذه الفتاة. لكن مع مرور الزمن ، يستفيق المستشار قسطنطين على مفارقة كبيرة ؛ مفادها أن هذا الشاب لا يعشق هذه الفتاة ، وأن كل ما في الأمر أنها أيقظت المنحى الشاعري الجواني الذي كان يستبطنه ، واستطاعت أن تجعل منه شاعرًا آهاته وأصوات أنينه يفيض منها لحن عذب يطرب السمع. هنا يحضرنا ما كان يدونه سورين كيركغارد في يومياته ؛ إذ تساءل يومًا عن ماهية الشاعر ؟ فأجاب قائلًا: "إنه شخص شقي يبطن في فؤاده همًّا عميقًا ، إذ قطعت شفتاه بحيث لا يمكن لهما أن تصدرا الزفرات والتنهدات ، اللهم إلا على شاكلة أصوات متناغمة. إن مثله في ذلك كمثل التعساء الذين يعذبهم السفاح فالاريس ، حينما يدخلهم في ثور عملاق مصنوع من النحاس ، وتسعر تحته نار خفيفة ، وقد وضع في فتحتي أنف الثور العملاق مزامير ؛ بحيث تجعل صراخ وعويل الضحايا ، ليست على شكل نواح مريع ، وإنما كنوع من الألحان الموسيقية العذبة"[24].

كما اكتشف قسطنطين أن هذا الشاب تعلق قلبه روحيًا بها ، وأنه لا يقتدر أبدًا على حب فتاة غيرها ، كما لا يستطيع أن ينساها ، فهو سيبقى دومًا وأبدًا في شوق وحنين نحوها ، فقد أصبحت جزءًا من خلوته الروحية وذاته الفردة ، إذ أيقظت أصلانيته الذاتية ، على الرغم من أنها في الآن عينه وقعت شهادة وفاتها[25]. ومع هذا الصراع الوجداني المحموم تتربص بالشاب المجهول حالات اليأس والحزن والسوداوية ،

فيبدأ في التفكير في محاولة إيجاد سبيل يخلصه من طبيعته المهمومة والرعشة الوجودانية التي يعيشها ، وما السبيل الناجع للتخلص من هذه الشوكة في اللحم ؟ وكيف له أن يستفيق من هذا التيهان والشرود ؟

في النهاية ؛ يركن هذا الشاب إلى المدد الإلهي ، ويرتشف من شَهْد الروحانية المطلقة ، ويستنجد بالعون الإلهي ، فتحضره فيوضات الابتهالات الأيوبية ، داعيًا الله أن يمن عليه بإمكان الرجعى على الشاكلة الأيوبية ، لكن هذا الشاب لا تكتب له الرجعى ، ولا ينجح في ابتكار الطريقة التي تعيد إنعاش علاقته بالفتاة[26].

حينما نطلع على المخطوط الأصلي الذي كتبه سورين كيركغارد لكتاب **الرجعى**؛ نجده ينهيه نهاية مأساوية بالإعلان عن **انتحار الشاب المجهول** ، لكنه يتراجع في ما بعد ، بعد سماعه بزواج الفتاة[27] ، وبهذا عاش الشاب بقية حياته كما وصفه سورين كيركغارد ، أنه: "فارس حزين من ذكرى حبه السعيد الوحيد"[28]، والغريب حقًا أن طريقة كيركغارد في بسطه لمدلول الرجعى كانت ذات طابع فكاهي كوميدي هزلي ، ولا يشعر قارئها البتة في البداية بأنها تنضح بكل هذه المعاني الوجودية الرحبة ، بخلاف كتابه **مفهوم القلق** الذي كان سوداويًا ، قاتمًا وعنيف الدلالات ، وهو تتويج لكتاب **الرجعى** ، وشرح مستفيض لما ورد فيه ، وقد استنبط كيركغارد الكثير من مفاهيمه من كتاب **الرجعى**.

يجد المتأمل لكتاب **الرجعى** أنه عمل يسعى لرسم خريطة أنطولوجية للسبل الخفية التي تفرضها المعاناة الذاتوية الوحدانية ، ويقترح في المقابل سبلًا للنجاة ، فالرجعى الكيركغاردية هي بمنزلة مرآة للقلق في حياتنا الخالصة المتواترة ، مع المدارج الوجودية الحياتية المتصاعدة ، ويقحمنا سورين في دهاليزه الداكنة بحيث يمكننا أن نؤدي دورًا بصورة أو بأخرى ، من أجل التفاوض حول شدة التوترات السيكولوجية والوجودية التي نترنح فيها بين ماهو أخلاقي وماهو جمالي حسي. صحيح أن أمثولة الرجعى بسطها سورين في قصة قصيرة تنضح باللغزية وتقلبات مصير الذات ، على الرغم من أن جل الدارسين للمسرح الكيركغاردي يقرؤون الأمثولة على أنها بحث تقني حول مفهوم شبه ميتافيزيقي يسمى "الرجعى" ؛ ففي الجزء الأول من كتاب سورين يقدم لنا المفارقة الممكنة بين الرجعى والمفهوم الأفلاطوني القديم للتذكر (نظرية التذكر الأفلاطونية) ، فالمسرح الأفلاطوني يقر بأن العقل البشري يمتلك أبجديات المعرفة التي يحتاجها فهي موجودة بصورة قبلية في عقولنا ، وما على العقل إلا تذكر ما كان يعرفه ونسيه في لحظة فارقة لما تلبس باللواحق الحسية ، وفور أن نبدأ في إعمال قوة المعقولية يكون لدينا وميض من الأفكار البدهية القابعة في عقولنا ، ومن ثمّ ما علينا سوى تذكر الحقائق التي ذهلنا عن استحضارها ، والسبيل الأوحد في ذلك هو الحث على التذكير والتذكر ، إلا أن المستشار قسطنطين المؤلف المستعار الرمزي لكتاب **الرجعى** يقول إن الأزمنة الحديثة تحتاج إلى مفهوم جديد ؛ هو الرجعى ، فهو الصلة الإدراكية الممكنة للمعرفة والأخلاق ، وليس من خلال الحث على التذكر وفق النهج الأفلاطوني ، وبصورة غير متوقعة بتاتًا كهبّة تُمنح لنا من المجهول ، وبوصفها وحيًا من المستقبل ، فالرجعى الكيركغاردية ماهي إلا تمظهر وانبجاس يتدثر في بعض الأحيان ما هو قديم بلباس جديد ، ويقدمه على أنه جديد ، ويمنحه في بعض الأحايين شيئًا جديدًا بصورة راديكالية[29].

إلا أنه وفي النصف الثاني من كتاب **الرجعى** يتجلى المنحى الرسائلي الوعظي بين قسطنطين والشاب المجهول المتيم ، فينهمك هذا الشاب في البحث عن إلهام جواني ، يقتدر من خلاله على إثلاج قلبه ، وجعل حزنه الكبير ينحو إلى اليسر والراحة ، ليقصد طريقه إلى المستشار قسطنطين بغية أن يستشيره بالحكمة الوعظية التي تخلصه من الوعود الزائفة للحب جملةً وتفصيلًا ، إنه يريد مكانًا هادئًا ومريحًا يستكين فيه ويستقر ، كما يحتاج إلى فرجة ومكان آمن وسالم يتقبل حقيقة مفادها أنه قد هجر معشوقته الغالية ، هذا إضافة إلى إبقاء النار المسعِّرة لعشقه لها ملتهبة لا تخمد البتة. وفي النهاية ، يستقر على سعادة تغمره بصورة غريبة ، وعلى نحو نشوة مبالغة ، لأنها منحته في النهاية حريته عن طريق عقدها القران مع رجل آخر. جعله تلقيه لهذا الخبر يعيش ضربين من الشعور الغامض ؛ الأول ينحو به إلى السعي لوضع حد لحياته القاسية المدمرة ، والضرب الثاني الذي اختاره في النهاية هو السعادة والفرح بخبر إطلاق سراحه ، لكننا لا ندري بالفعل ؛ أكانت هذه السعادة التي تجلت على محيا الشاب المتيم

المجهول ، عن طيب خاطر منه ، أم كانت تزييفًا منه وادعاءً للشجاعة وهو في حقانية الأمر مكدود ينزف قلبه دمًا في دخلانيته الملتهبة حرقة وألمًا ؟ إنه على أية حالة في حاجة ملحة إلى استرداد حياة يمكن أن تعاش فعلًا ، وهي "الرجعى" ؛ هذه الأمثولة القادرة وحدها على إنهاء عذاب فؤاده[30].

لكن المثير والمفارق في الآن عينه ، هو طريقة استجابة المستشار قسطنطين لقضية الشاب المجهول ؛ فهو يستقبل حالته بنوع من البرود والاسترخاء ، فتوتر صديقه المدثر بالخطيئة والذنب وحصره ؛ مسألة مثيرة بالنسبة إليه كثيرًا ، ومن المشكوك فيه أنه كان لديه نوع من الشفقة على حالة هذا الشاب المتيم المتألم ، وهو يلمح إلى وجود حيلة قاسية وعنيفة لتدمير أي ارتباط عالق بالفتاة التي أخذت بتلابيب عقله ، قد لا يزال لديها ، فهو متهكم من هذا الحب جملةً ، متسائلًا بمرارة: هل حالة هذا الشاب المتيم ميؤوس منها ؟ وفي النهاية ستكون الرجعى هي الحل الوحيد الكفيل باسترجاع الحب ، ولا بد لنا أن نفهم ههنا أن الرجعى مفهوم غامض ، وقد نقرأ بعض دلالاته في قصة إبراهيم النبي ، وكذا أيوب ، اللذين عايشا مرحلتين (خسارة واستعادة) ، فإبراهيم أوشك أن يفقد ابنه بيديه ، وأيوب فقد صحته وثروته وأولاده وأصدقاءه من دون سبب قابل للفهم ، والشاب المجهول في الرجعى يفقد حبيبته ، وحرقة كبيرة في قلبه ، فهو ليس غاوي أو شخص سيء على الرغم من الغموض والصعوبة التي نجدها حينما نسعى لتفسير السبب الذي حدا به إلى ترك هذه الفتاة ، على الرغم من حبه الكبير لها ، ولماذا لا يزال على الرغم تركه لها يتخيل نفسه معها ، مع استمرار رسائله في منحاها كأنها في مقام زوجته فعلًا.

يحاول قسطنطين أن يجعل الرجعى ممكنة ، وكأنها نوع من الاستكانة والرضوخ للمعنى المفروض في الأمثولة ، ويجهد في أن يحث الشاب المجهول المتيم على الرجوع إلى ملكة قلبه ، وذلك بحثه على تتبع خطواته في مدينة برلين ، فهو يتوق إلى خبرة جديدة تعيد إليه خبرة سابقة كان قد عاشها قبلُ ، بحكم أن الرجعى تنتظر دومًا الجديد الخلاق ، والمتأمل لنصائح قسطنطين للشاب الولهان يجد أن المستشار كأنه يعتمد نموذج أفلاطون في التذكر ، ولكأنه يعود في حركة نكوصية إلى الوراء ليتذكر حبه المطمئن ليحييه من جديد ، ومن ثم ، يصير لدى الشاب معرفة ذات ديمومة مستمرة مع الحب ، لكنها نسيت موقتًا ، وكلما فكر الشاب اقتدر على استدعاء حبه القديم وإحيائه من جديد إحياءً خلاقًا ، لكن قسطنطين يستبدل بالتذكر الأفلاطوني مدلولًا آخر يشابهه ، لكنه ذو حمولة فلسفية جديدة هو الرجعى ، الحركية السيكولوجية والوجودية لكل من التذكر والرجعى ، تسير على الشاكلة والحركية ذاتهما ، ولكن في اتجاهين متعاكسين ، وتأكيدًا لذلك يقول سورين كيركغارد في كتاب **الرجعى** شارحًا وموضحًا هذه الحركية: "إن الحياة كلها سوف تنحل إلى فراغ ، إلى ضوضاء بلا معنى"[31].

ونفهم من ذلك أنه من خلال التذكر والرجعى ؛ نصل إلى معنى واحد يجتمعان عليه معًا ، بحيث يمكن أن نجمع شملهما معًا في ميلاد جديد ؛ ففي الرجعى يجمع المعنى قبل أن يتم تقبله بعد ، فمثلًا ، يوشك المعنى الموسيقي لمعزوفة معينة على الوصول إلى ذروته في عبارة لم تقلها الآلة الموسيقية (البيانو مثلًا) ، فطالب الرجعى يسير قدمًا إلى المستقبل الاستشرافي وهو ينتظر المفاجأة الشديدة الأهمية ، والتي قد تكشف في أية لحظة أثناء التقدم بمنحى المستقبل ، فالشاب مندفع نحو المنحى الاستشرافي المستقبلي لعلاقته بالفتاة مع توهج لهيب إمكان الرجعى (زواج منها أو صداقة معها أو فراق أو استرجاعها مرة أخرى في علاقة جديدة استمرارية تصاعدية فضلى) ، لهذا يبقى متوقع الرجعى في حالة إغراء دائم ، والشاب لن يمل أبدًا بحكم أنه لا يزال في حالة تذكر لماضيه المحمول بذكرى حبه السعيد الوحيد مع ملكة قلبه ؛ فهو يلهث نحو ما وجده النبي أيوب والنبي إبراهيم من تحويل لعاصفة مدمرة أو تدخل مفاجئ من ملك كريم يزرع اليقظة لوعود المستقبل ، فهذا الشاب يعيش على احتمالية شديدة لاستعادة العالم الذي خسره ، بالاستعادة عن طريق الزواج بهذه الفتاة التي انفصل عنها بطريقة غامضة ومبهمة ، أو بالتحرر من هذا الحب تمامًا ، وفي كلتا الحالتين سيكون سعيدًا وستتحقق الرجعى[32].

إن المتأمل الحصيف للحالة التي يعيشها الشاب المجهول في أرموزة الرجعى يجده شابًا متلهفًا منتظرًا لعاصفته الرعدية ، وهو في ذلك يحاكي بطريقة تهكمية شخصية أيوب

على الرغم من أن معاناته وآلامه لا تقارن بهذا النبي طبعًا ، فمعاناته عبارة عن حدس هزلي ينتظر عودة وسط الركام ، ويتحدث عن الزواج لكنه في المقابل يرحب كذلك بالتحرر من الزواج والقران بالفتاة التي ملكت قلبه ، وارتقاب الرجعى ههنا ليس رغبة زائفة ، ولكنها ثقة كبيرة في استعادة الإنجاز ، وليس لدى هذا الشاب الولهان سوى قدر ضئيل من هذه الثقة ، فهو يقول إنه يرتقب الرجعى ، إلا أن يأسه يمكن أن يتجلى لنا كتصنع أو بالأحرى مسرحية تظهر أنها صادقة على نحو ما ، وماهي يا ترى تلك الاستعادة التي يرتقبها ؟ هل يريد فعلًا الفتاة التي يحبها ؟ ربما هو في الحقيقة يريد أن ينساها ليتخلص من الذنب أو بالأحرى الشعور بالذنب الذي يكتنفه ويسحبها معه إلى رهان الحرية ، ينعته قسطنطين بعد ذلك بالشاعر الحزين الذي يوشك على التدين.

ثانيًا، التضحية الإبراهيمية (الخوف والرعدة):

"عندما سأرقد في مثواي الأخير ، سيكون كتاب **خوف ورعدة** وحده كافيا ليمنحني توصيف الكاتب الأبدي ، وسيقرأ الناس الكتاب ، وسيترجم إلى ألسنة عديدة ، سيصاب قرائي بالرعشة من العاطفة الجياشة التي تغدق الكتاب"

سورين كيركغارد ، اليوميات.

التضحية الابراهيمية وفق المسرح الكيركغاردي هي أعظم نموذج للتضحية الأرضية على الإطلاق ، وهي السبيل الايماني الأوحد للتعبير عن الإخلاص الحقيقي للرب والاستجابة لندائه المستور. أرموزة إبراهيم النبي مع ابنه **إسحاق**[33] هي بالنسبة إلى كيركغارد ، المثل الأعلى للعلاقة مع الرباني الخالد في مقابل الدهراني الزائل ، وقد عبر الباحث المختص بفكر كيركغارد ، وولتر لوري ، عن هذه المحنة في مقدمة ترجمته الإنكليزية لكتاب **خوف ورعدة** ، مقتبسًا تدوينة ذات دلالة موحية ؛ تعبّر عن مشروع هذا الكتاب وتجمله إطلاقًا ، فلنتصور أن إسحاق في قصة النبي إبراهيم كان يعرف أن موضوع الرحلة التي كان عليه أن يقطعها مع والده إلى جبل المريا ، هي بمنزلة تقديمه كقربان ، ولو تصورنا أن هناك شاعرًا كان يعيش على هذا الجبل المقدس من جيلنا ، لاقتدر أن يقص علينا من أنباء ما حصل بين إبراهيم وإسحاق ، ومن روحانية الحديث المستور الإلهي الذي دار بينهما أثناء هذه الرحلة الشاقة ، كما يمكن أن يتصور الفرد منا أيضًا أن حياة النبي إبراهيم السالفة لم تكن بتاتًا حياة إيمانية غير متدثرة بالإثم وأحاديث الخطيئة ، وربما نحت به الآن إلى أن يهمس في كوامن نفسه ؛ أن هذا الصعود الجبلي هو بمنزلة عقاب رباني في حقانية الأمر[34]. بل ربما جعله المرء عرضة لأن تخطر في باله هذه الخاطرة المأساوية ؛ أنه يتوجب عليه إلزامًا أن يستجيب لأمر الله لتأتيه العقوبة أثقل وأبلغ ، كما يمكننا أن نتصور كذلك أن النبي إبراهيم قد تبصر في بادئ الأمر ولده إسحاق بكل ما أوتي من حميمية وحب أبوي ، وأنه يهيب تبجيلًا بابنه إسحاق الذي استجاب عن حسن نية وطيب خاطر لهذا المصير ، بكل صبر واحتساب ، ليستل السكين ويقول لإسحاق: إن كنت تعتقد أنني أفعل هذا في سبيل الله ، فأنت مخطئ ، أنا رجل وثني ، وقد استيقظت في نفسي الرغبة من جديد ، وأريد أن أقتلك ، فهذه مشيئتي وقدري ، فأنا أفظع من أي آكل للحوم البشر ، فليدثرك اليأس يا ابني إسحاق الأحمق ، الذي يتصورني أبًا له ، فأنا في الحقيقة لست إلا قاتلك وهذه مشيئتي[35] ، وأقعد الولد إسحاق على ركبتيه وصاح مستغيثا يا إلهي الرحيم ارحمني ، وهنا بالضبط ، تراتلت التسابيح الوجدية في روح إبراهيم بهمس خافت ، هكذا ينبغي أن يكون الأمر ، فمن الأفضل بعد كل هذا أن تعتقد يا إسحاق أنني وحش ضار ، وأن تلعنني لأنني كنت والدك ، بدلًا من أن يعرف أن الله هو الذي قضى بهذا الامتحان الصعب ، فلربما ضاع رشده حينذاك ، وربما صب لعنته على الرب.

إن القارئ المؤمن لأمثولة النبي إبراهيم التضحوية يحضره حنين الفداء والاستجابة الخالدة لإرادة الرب ، ففور قراءتنا لمستهل كتاب **خوف ورعدة** نبدأ في التعرف إلى إرهاصات الفداء الرباني ، وكيف ودع النبي إبراهيم زوجته سارة ، وشق طريقه مع ابنه لتقديمه قربانًا للرب ، وهذه المسيرة دامت ثلاثة أيام وفقًا للمعتقد المسيحي[36] ، رحلة يشوبها الحزن والخوف والوجل ، والجميل في كتاب **خوف ورعدة** قدرة كيركغارد التصويرية الشاعرية ، إذ ينظر إبراهيم إلى الجبل ، وروحه ترتعش ، ويشخص ببصره إلى السماء ملبيًا النداء ، حيث أنشده المنادي ليقدم أغلى ما عنده ؛ فلذة كبده ، لينحو بنا بعد ذكر كيركغارد إلى تصوير رحلة العودة مع الابن ، وطريق العود هذا جسد بحق الهبة الربانية والرجعى العظيمة لمن أسلم وتله للجبين ، وسلم أمره إلى النداء

الرباني ، ونجح في الامتحان الصعب. يقول سورين تصويرًا لروحانية المشهد: "وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم ، فقال له يا إبراهيم ، فقال ها أنذا ، قال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق ، واذهب إلى أرض المريا واصعده ، هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك" ، وتبريرًا لإيمان إبراهيم يقول سورين: **"وبالايمان خرج إبراهيم من أرض آبائه، وأصبح مقيمًا في أرض الميعاد، ترك شيئًا واحدًا وراءه، وأخذ شيئا واحدًا معه. ترك فهمه الدنيوي وأخذ معه الإيمان"**[37]، ويقول سورين كيركغارد في موضع آخر: **"أما إبراهيم، فأنا لا أستطيع أن أفهمه**[38] **ولا أستطيع أن أتعلم منه شيئًا، بمعنى من المعاني إلا الدهشة، ولو تخيل الناس أنهم بتأمل حصيلة هذه القصة قد يتركون أنفسهم للتأثر بالإيمان، فإنهم يخدعون أنفسهم، ويريدون أن ينتزعوا الله في أول حركة للإيمان، وهي التسليم اللامتناهي، إنهم بذلك يمتصون الحكمة الدنيوية من المفارقة، وربما نجح واحد أو أكثر في ذلك، لأن عصرنا ليس مهيئًا للوقوف على الايمان، وعند معجزته في تحويل الماء إلى نبيذ، وإنما يمضي إلى أبعد من ذلك، فيقوم بتحويل النبيذ إلى ماء"**[39].

ويضرب لنا سورين كيركغارد مثالًا غاية في الروعة عن الطريقة التي ينفصل فيها التواشج الروحاني الجامع بين النبي إبراهيم وابنه إسحاق ، مشبهًا لحظة الانفصال بالفطام بالنسبة إلى الطفل في علاقته مع ثدي أمه[40] ؛ طفل صغير تقربه أمه من صدرها في مشهد حميمي تعاطفي ليرضع ثديها ، ثم يكبر هذا الطفل ، وتأتي اللحظة التي ينفصل فيها عن ثديها ، ويتوقف هذا التعالق الروحاني والجسماني في الآن عينه ، وحينما يقترب موعد الفطام ، تعمد الأم إلى تخضيب ثديها بالسواد ؛ إذ إنه من العار قطعًا أن يظهر الثدي مغريًا حينما لا يقتدر الطفل على الوصول إليه ، يؤمن الطفل ايمانًا راسخًا بأن ثدي أمه قد تغير ، ولكن تبقى الأم كما هي لم تتغير ، وحبها الوجداني نحو ابنها بقي كما هو لم يأفل ولم يضمحل ، وبقيت تنظر إلى ابنها بعاطفة الأمومة عينها ، كم هو محظوظ فعلًا ذلك الفرد الذي لا يحتاج إلى وسائل مخيفة لكي يفطم طفله[41].

وهي بالفعل الحالة التي كانت تجمع الابن إسحاق بوالده إبراهيم ، وهذا بالضبط الامتحان العسير الذي خاض غماره النبي إبراهيم. يعلق سورين كيركغارد على هذه الأمثولة قائلًا: **"والشخص الذي يقتدر على تفسير هذا اللغز يكون قد فسر حياتي برمتها، ولكن أين من بين معاصريّ من فهم هذا ؟"**[42].

وهنا يحضرنا سؤال مركزي مفاده: من هو الفرد المفرد القادر على فك طلاسم هذا اللغز الكيركغاردي المحير ؟ إنه ببساطة الفرد المؤمن ، وبرهانًا على ذلك يقول كيركغارد في كتابه **الرجعى** على لسان المستشار قسطنطين في وصفه للشاب المجهول :**"إن مثله كمثل كلمنت ألكسندريوس، يكتب بطريقة بحيث لا يفهمه الكفار"**[43] ، فسورين ههنا يستحضر شخصية كلمنت ألكسندريوس ، وهو واحد من آباء الكنيسة اليونانية بمدرسة الإسكندرية اللاهوتية ، وأبرز ما ميز تعاليمه ؛ ربطه وتوحيده بين الفلسفة اليونانية واللاهوت المسيحي ، فكانت جل كتاباته على العموم موجهة إلى العالم الهيليني والثقافة اليونانية ، فقد جاهد إلكسندريوس لكي يبرهن للعالم أن المسيحيين ليسو برابرة غير متعلمين ، فأعماله تتحدث عن فلسفة مسيحية متقدمة وهي معروفة للحاذقين روحيًا وذهنيًا ويمارسونها ، لكنها غير معروفة للعامة من المسيحيين ، وهو بهذا الصدد يشبه الغنوصيين ، وهو في الحقيقة يصف الحكيم المسيحي بالغنوصي ، ولكن في الآن عينه الذي ادعى فيه الغنوصيون امتلاكهم تعليمًا سريًا نهلوه من الرسل ، اعتقد إلكسندريوس أن الفلسفة المسيحية المتقدمة كانت متاحة للعامة في الكتاب المقدس ، لكنه جادل أولئك الذين يمتلكون بصيرة روحية عميقة ، ووحدهم كانوا قادرين على النظر إلى ما وراء المعنى البسيط للكلمات ، وتفهم المعنى الأعمق لكلمات الكتب المقدسة[44] ، وبذلك نفهم أن في استحضار إلكسندريوس من طرف سورين دليلًا على تأثره بالمذهب الغنوصي الصوفي لهذا الأخير ، وكذا إشارة واضحة إلى أن الرجعى ذات حمولة غنوصية صوفية عميقة ، ولهذا نجده يطمس بعض أرموزاته بلغزية المشهد وغياب حذقه من الناس العاديين من غير الغنوصيين ، حتى إننا نجد كيركغارد يصف النبي ابراهيم في كتابه **خوف ورعدة** على لسان يوحنا الصامت :**"لا يوجد من هو بعظمة إبراهيم، من له القدرة على فهمه"**[45] ، ليسرد لنا بعد ذلك نضال النبي إبراهيم لأجل الأبدية ، وهو النبي المؤمن غير الشاك ، حتى إن جال

في عقله شيء من مغالبة الظنية ، فإنه - بحسب اعتقاد كيركغارد - شك من أجل شيء جليل ، إذ إن النبي المصطفى كان على علم يقيني بأن الله هو الذي طلب منه أن يذبح ابنه ، وكان على علم راسخ لا يتزعزع بأن هذا هو البلاء المبين ، وأقصى تضحية ممكنة في عالم الفناء والمحسوس ، وأظهر السكين وقد تجلت اليد التي كانت بالأمس تربت على كتف الولد إسحاق هاهي اليوم تريد ذبحه ، وههنا نستحضر نصًا جماليًا رائعًا أورده كيركغارد في كتاب **خوف ورعدة** :"**يا إبراهيم، أيها الوالد العظيم في سبيلك الذي نهجت من الجبل إلى بيتك، لا تحتاج البتة إلى ترانيم وجدية تشيد بك، لقد فزت بكل شيء، وفوق ذلك أرجع اليك ابنك ولم يأخذه منك الرب، والأجمل أنك في المقابل من ذلك مكثت معه في الخيمة يغشاك الحبور، ولكأنك في بسطتك تلك تعيش ذلك العالم السرمدي حيث الظل الظليل الأبدي**"[46].

ويصل بذلك كيركغارد إلى نتيجة مفادها أن في أمثولة النبي إبراهيم نتائج مفارقاتية عجيبة ، تبرز لنا المفهوم الحقاني للحظة الإيمانية الخالصة ، وتجسيد العلاقة السرية للفرد مع الرب المستور عن عيون الخلائق ، والنأي بتاتًا عن أي وساطة برانية مهما كان نوعها ، نركن فيها إلى التسليم بالقلب ، ونضع العقل جانبًا ؛ لأنه غير قادر على فهم مثل هذه الأمور وحذقها ، فإبراهيم ضحى بالمدرجين الحسي والأخلاقي الكلياني في استجابته للنداء الديني ، إذ لا معنى للمدرج الحسي الجمالي ، وكذا الأخلاقي الكلي ، أمام الحضرة اللاهوتية المطلقة. وبهذا تكون هذه اللحظة تضحية وخلاصًا من كل ارتباط دنيوي للتوجه إلى المطلق السرمدي. إنها اللحظة التي يقبل فيها إبراهيم على ذلك الفعل ، ويقول: كلا لن يطوي النسيان أبدًا من كان عظيمًا في هذا العالم ، من هؤلاء العظماء كان عظيمًا على طريقته وكل منهم كان عظيما بالنسبة إلى العظمة التي أحبها[47].

واللحظة الأشدّ إبهارًا في مفارقة إبراهيم وسر إيمانه ، تكمن في أنه كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أن الرب قادر على فعل كل شيء مستحيل ، فإن إبراهيم في الوقت الذي كان يريد القيام بالتضحية بولده إسحاق ، كان على يقين راسخ بأن ولده سيرجع ويعود إليه ، وذلك بحكم أن الرب كان قد وعد إبراهيم أن يجعل نسله في صلب إسحاق ، وطبقًا لهذا الوعد الرباني ، كان النبي إبراهيم يؤمن بالمستحيل ، وكان ينشد المحال عند الرب ، وكان المحال ههنا يتمثل في الحفاظ على سلامة إسحاق وإعادته إليه حيًا ، وكان هو بنفسه مندهشًا من يقينه بما ستؤول إليه الأمور في نهاية المطاف ، ولكن من خلال حركة مزدوجة ، عاد الايمان إلى حالته السابقة ، وحصل على إسحاق على نحو أشدّ سعادة من الحالة الأولى[48]. كما أن النبي إبراهيم كان في غنى عن إقامة البرهان العقلي على ما حصل له ، لأن هذا ضرب من الايمان كما يقول عبد الجبار الرفاعي في كتابه: **الدين والظمأ الأنطولوجي**:"**الايمان هو حالة أنطولوجية لا تستطيع الإطاحة بها، حتى لو قررت التخلي عنها، إنها تنحو من الاشراق الروحي الذي لا يمكن توصيفه بوضوح، لأنه مما يوجد لا مما يدرك، وكما نصطلح في المنطق هو نوع من الحضور الوجودي الذي يتوطن القلب، وليس نوعًا من العلم والتصور والفهم المرتسم في الذهن**"[49].

لكن يجب أن نلفت إلى قضية مهمة جدًا ، وهي طبيعة الإيمان الذي حصله إبراهيم في لحظة الصعود إلى الجبل للتضحية بابنه إسحاق ، فلربما يفهم على أنه نوع من التجرد التام والمطلق من عالم الدُنيوة والعبور إلى العالم الأخروي ، لكنه كان بخلاف ذلك تمامًا ، فتحصيل الرجعى الدنيوية ضرورية لإتمام معنى الإيمان الحقيقي ، وكذلك إحقاق كامل للرجعى في مدرجيها الحسي والديني ، وتأكيدًا لذلك يقول سورين: "**ظل إبراهيم على إيمانه، وكان يؤمن بهذه الحياة الدنيوية، أجل، لو كان إيمانه قاصرًا على أن يكون إيمانًا بحياة أخرى، لكان ألقى بكل شيء حتى يسارع بالخروج من هذه الحياة التي لا ينتمي إليها، غير أن إيمان إبراهيم لم يكن بهذا النوع، وإن كان لمثل هذا الايمان وجود، فالحق أن هذا ليس إيمانًا، ولكنه أبعد إمكانية للإيمان الذي يشعر بموضوعه في الحد الأقصى من الأفق، ومع ذلك ينفصل عنه بهوة عميقة يقوم اليأس بداخلها بلعبته، فأما إبراهيم فكان يؤمن حقًا بهذه الحياة الدنيا، وبأنه سيهرم في أرض آبائه وسيقوم الشعب بتكريمه وسيتذكره الناس إلى الأبد في إسحاق**"[50].

خاتمة

و نلخص في النهاية إلى حقيقة جوهرية مفادها أن أرموزة الرجعى كانت هي الخيط الناظم المفسر لجل فلسفة سورين كيركجارد ، فهذا اللاهوتي الدانماركي عمد إلى التضحية بالسيدة أولسن كعربون محبة آفاقية لا يمكن فهمها بالطريقة الدنيوية في تعقل الأشياء ، لأنها مسألة روحانية خالصة مشبوبة برعدة الخوف والقشعريرة ، ولكن يبقى مفهوم الفداء أقنوم جوهري في المعتقد المسيحي كضرب من التكفير عن الخطيئة ، لكن اللاهوتي والفيلسوف سورين اغدق عليه بعداً تعاطفياً أكثر من خلال علاقته برجين أولسن ، فطالما كان سورن يتغنى بالمذبح ، ويحلم بأن يقيم مذبحاً كرمزية دينية تعبر عن النزوع الفدائي لأجل الرب في قيوميته وكبرهان واقعي عملي للمحبة المتواشجة مع التضحية ، من منظور أن الحب من دون تضحية وبرهان عياني لا يساوي شيئاً في العالم الروحاني ، كما اعتبر كيركجارد أن الرجعى مقولة فلسفية هامة وجوهرية ، فمثلها كمثل البستاني الذي يترك أزهاره تذبل لأنه لم يسقيها بالماء لفترة معينة ، ثم يسقيها فتبعث من جديد بعثاً خلاقاً ، لهذا تكون هذه المقولة الفلسفية ليست تكراراً لعلاقة أو حياة فاشلة ، بل هي إعادة تجديد وبعث وخلق العلاقة من جديد والاستمرار فيها ،و لعل سورين إذا لم يحالفه الحظ العاثر في الذود برجين في عالم الزوال سيستردها في عالم الأبدية.

الهوامش

* **الأمثولة:** هي قصة رمزية تحمل أكثر من معنى ، ومعظم القصص الرمزية تتضمن معاني فلسفية ، أخلاقية أو دينية ، وقد كان للقصص الرمزية شهرة كبيرة خلال العصور الوسطى والنهضة في أوروبا.وقد اتعمد كيركجارد هذا الضرب من القصص الرمزية بغية إيصال معاني دينية ولاهوتية وعاطفية

1. يدل على المعاودة والبعث من جديد ، كما يدل على العود إلى ما كان منه البدء ، أو تقدير البدء مكانا كان أو فعلا ، أو قولا ، وبذاته كان رجوعه ، أو بجزء من أجزائه ، أو بفعل من أفعاله. فالرجوع: العود ، والرجع: الإعادة ، والرجعة في الطلاق ، وفي العود إلى الدنيا بعد الممات ، ويقال: فلان يؤمن بالرجعة. والرجاع: مختص برجوع الطير بعد قطاعها (انظر: ابن فارس اللغوي ، **مجمل اللغة** ، الجزء الثاني ، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان ، ط2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1986 ، ص422).

2. كاتب وشاعر عراقي مقيم في العاصمة الدانماركية كوبنهاغن ، مهتم كثيرًا بكتابات سورين كيركغارد بلسانها الأصلي ، سيصدر له قريبا كتاب مترجم لسورين كيركغارد يحمل عنوان:"**تكرار**".

3. سورين كيركغارد ، **التكرار** ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ط1 ، مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2013 ، ص 60.

4. **La Reprise** - et non La Répétition, comme l'ont voulu, à tort, des traductions moins littérales - est l'un des textes les plus célèbres de Sören Kierkegaard. L'auteur songe à une reprise de ses relations avec Régine Olsen, son ancienne fiancée ; non pas à la reproduction de leur échec, mais à leur renouvellement (Soren kierkegaard, *la reprise*, traduction et présentation par Nelly Viallaneix .gf flammarion .paris . 1990).

5. Jean-luc berlet, le *syndrome Kierkegaard*, Nice, edition Romaines, 2012, p65.

6. فريتيوف برانت ، **كيركغارد**، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ،ط 1 ، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1981 ،ص72.

7. يقترح الباحث جاسم قحطان ترجمة الكتاب إلى :"**خوف قشعريرة**[7]**.**"

8. لما سافر سورين إلى مدينة برلين بعد فسخ خطوبته من رجين أولسن لاح في مخياله إمكانية الرجعى بطريقة غريبة وغامضة ، وفي هذا الوقت بالذات فكر في الرجوع إليها ، وكان يسأل عنها كثيرا صديقه الحميم بوزين ، ويستفسر عن حالها يومًا بعد يوم ،و يسأل صديقه عن حالها وهل يراها أم لا وكيف هي وماذا تقول وهل ذهب عنها الروع ، وهذا ما تجلى بطريقة رمزية من خلال كتابيه: "**الرجعى**" و"**خوف ورعدة**" وهما كتابان يجسدان حالة الفزع الذي كان يعانيه نفسيًا بعد قطع العلاقة ،و قد أورد هذه التساؤلات الحميمية الرجعوية في كتاب الرجعى على لسان الشاب المجهول الذي تخفى عن طريقه سورين :"وذات يوم مكثت بعيدًا ، بدون أن أقول كلمة واحدة لها ،ركبت متن سفينة إلى استوكهولم لقد انطلقت بعيدًا واختبأت عن كل إنسان ، والله في السماء يساعدها في تفسيرها ، هل رأيتموها ؟ ،الفتاة التي لم أذكرها على الاطلاق ، والتي لم أجرؤ بما فيه الكفاية لكي أكتب اسمها ،و ذلك لأن يدي سوف تهتز رعبًا ، هل رأيتموها ؟ ،هل هي شاحبة ، أم هي ربما تكون ميتة ؟ ،هل هي تبكي ؟ ،أم أنها اخترعت شرحًا من شأنه أن يواسيها ؟ ،هل لا تزال تمشي بخفة ؟ ،أم رأسها منحنية ؟ ،و هل تصرفها مضطرب ؟ ،يا الله إن خيالي قادر على تزويدي بكل شيء ، هل شفتاها شاحبتان ؟ ،تلكما الشفتان اللتان أعجبت بهما برغم أني قد سمحت لنفسي وحسب أن تقبلا يدها.(سورين كيركغارد، **التكرار**،ص132).

9. ستيفن ايفانز ، كيرككورد: **الإشارات الطبيعية ومعرفة الله** ، ترجمة زهراء الطاهر ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة ، مركز فلسفة الدين بغداد (العراق) ، العدد 55 -56 ، خريف 2013 ص 66

10. soren Kierkegaard, **La reprise**, p 12.

11. وولتر ستيس ، **تاريخ الفلسفة اليونانية** ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافية للنشر والتوزيع ، القاهرة ،1984 ، ص ص ص159-160 .

12. يوسف كرم ، **تاريخ الفلسفة اليونانية** ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، 2014 ، ص 92.

13. سورين كيركغارد ، **التكرار** ، ص 16

14. عبد الرحمن بدوي ، **دراسات في الفلسفة الوجودية** ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1980 ، ص 60

15. Soren Kierkegaard, *The journals*, edited and translated by Alexander Dru, Fontana university press, 1959, p69.

16. Soren Kierkegaard, **la reprise**, p 25.

17. سورين كيركغارد ، **التكرار** ، ص 155

18. المرجع نفسه ، ص 159 .

19. سورين كيركغارد ، **التكرار** ، 160 .

20. سورين كيركغارد ، **التكرار** ، ص 260 .
21. المرجع نفسه ، ص 17

22. حينما نقارن هذا التطور مع مقولة الرجعى ، نجد بأن الفكرة عينها يثيرها سورين ، في اعتقاده بأن الذات تسعى من خلال الرجعى إلى العود الدائم أو بالأحرى البدء لاستعادة الاستعادة للذكرى أو الحادثة المسترجعة ، المغاير فقط هو التحول الحاصل للفرد في تمرحلات حياته الذاتية وصيرورتها (الحياة الماضية)، ونقيضها (الحياة المستقبلية التقدمية)، والتوليفة التي تمثل اللحظة الراهنة.

23. أحمد زيغمي ، **فلسفة التاريخ عند هيغل** ، ط1 ، دار الكلمة(تونس)، دار الأمان(المغرب)، منشورات الاختلاف(الجزائر)، منشورات ضفاف(لبنان)، 2015، ص ص 182-183.

24. عبد الله كرمون ، **تأملات الفيلسوف كيركغارد** ، موقع إيلاف الإلكتروني ، الاثنين 02 مارس 2009 ، أنظر

http://elaph.com/Web/Culture/2009/2/411216.htm

25. فريتيوف برانت ، **كيركغارد**، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ط1 ، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1981 ، ص72.

26. غنار سكيربك ونلز غيلجي ، **تاريخ الفكر الغربي**، ترجمة حيدر حاج إسماعيل ، ط1 ، المنظمة العربية للترجمة ، 2012 ، ص705.

27. Nelly Viallaneix, in Søren Kierkegaard, *La Reprise*, p. 213, note 129. Pour les suites de l'histoire entre Régine et Kierkegaard, cf. Aude Lancelin et Marie Lemonnier, *Les philosophes et l'amour*, p. 141-171.

28. Soren Kierkegaard , *la reprise*, p85.

29. سورين كيركغارد ، **التكرار**، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ط1 ، الناشر: مكتبة دار الكلمة ، القاهرة ، 2013، ص ص 8-9

30. سورين كيركغارد ، **التكرار** ، المرجع السابق ، ص 9 .
31. سورين كيركغارد ، **التكرار** ، مرجع سابق ، ص 57 .
32. المرجع نفسه ، ص 18.

33. لم ترد تضحية النبي إبراهيم في القرآن المسماة باسمه ، وإنما وردت في آيات من سورة الصافات ، كما أن النصوص القرآنية لم تحدد بصراحة اسم الابن الذبيح بأي حال من الأحوال ، وإلا لما ذكره بعد القصة الفداء مباشرة في هذه الآية القرآنية:" وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ:الصافات: (112)،فهذه البشرى كانت تالية لقصة التضحية ولم تكن قبلها ، كما أن الله قد أنعم على إبراهيم بعد أن بلغ من العمر عتيا وكانت امرأته (سارة) كانت عاقرًا ، فوهبت على الكبر بالنبي إسحاق ، وعندما جاءته البشرى في تلك السن المتأخرة ضحكت سارة من هذا النبأ لاعتقادها في استحالته ، وكيف يكون نسل بين شيخ وامرأة عاقر؟ ، بخلاف ما جاء في التوراة حيث يذكر اسم اسحاق صريحاً في قصة التضحية وأنه هو الذبيح الذي نزل عنه الفداء من السماء

34. سرن كيركجور ، **خوف ورعدة** ، ترجمة فؤاد كامل ، ط1 ، الناشر: دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1984 ، ص 08 .
35. سورين كيركغارد ، **خوف ورعدة**، ص 08.

36. يسرد لنا سورين كيركغارد بلغة شاعرية أرموزة رحلة إبراهيم مع ابنه إسحاق لتلبية النداء الرباني واحقاق التضحية حيث كان صباحا باكرا عندما نهض إبراهيم من فراشه ، وقبل سارة عروس شيخوخته ، وقبلت سارة إسحاق ، فقد كان موضع فخرها ورجائها في كل وقت وركبا صامتين الطريق ، وكانت نظرة إبراهيم مطرقة إلى الأرض حتى كان اليوم الرابع عندما رفع عينيه ، وأبصر جبل المريا بعيدًا ، ولكنه عاد فأطرق اسحق على الجبين ،و استل سكينه في صمت ، وهنا شاهد الكبش الذي أنزله الله فقدمه قربانا ،وقفل راجعًا إلى البيت ومنذ ذلك الحين شاخ إبراهيم ، ولم يكن يستطيع أن ينسى أن الله قد طلب منه ذلك ، أما إسحاق فقد أخذ ينمو ويزهر كما كان من قبل ، على حين أظلمت عينا إبراهيم ، ولم يعد يعرف للسرور طمعا.

37. سورين كيركغارد ، **خوف ورعدة** ، ص 33.

38. الرجعى مفهوم ملغز بالنسبة لسورين وطريقه حصوله هي من الأمور التي لم يقتدر هو نفسه على فهمها ، معتبرًا إياها من الأمور الخارجة عن اطار الفهم البشري الدنيوي ، أي أن الرب لم يركب في الفاهمة البشرية إلا قدرتها على اكتناه ماهو متعلق بالطبيعة أما الأمور الغيبية والتي تحصل كالمعجزات والخوارق هي عثرة امام العقل ،بحكم أن هذا العقل حدوده تتجلى على تخوم المفارقة لأنها خارج الفهم البشري الممكن ، الرجعى ماهي في الحقيقة إلا ضرب من المفارقة ، لأنك لو عمدت إلى البحث عن السبب الذي حدا بالرب إلى ابتلاء أيوب وارجاع صحته وزوجه وأصدقائه مرة أخرى في لحظة بعثية روحية وحسية جمالية ستقع في المستحيل حتمًا ، لأن المنطق لا يستطيع حلها وكشف حقانيتها ،فالمفارقة ههنا تهرب من فكر وفهم لأنها ببساطة لا تخضع لتسلسل منطقي ولا ترتبط بعلة ومعلول وتتجاوز كل القوانين وتدحض كل منهج وتهدم كل نسق إنها قريبة كل القرب من الحب الاعمى ، واذا كان للفرد المنفرد القيومية على ذاته أن يلج حب حقيقي صادق ، وأن يتمتع في المقابل من ذلك بهذا الحب ،أما إذا فتح عينيه واستعمل

العقل ونور الفكر فإن الحب عنده لابد وأن ينقلب حبًا شاحبا فاترا على تدفق العاطفة ، وثورة الشعور ، فبفضل هذا الايمان المفارقاتي يقفز الفرد إلى الهاوية دون تريث أو تفكير (و ههنا لو أن إبراهيم سلم نفسه إلى منطق العقل ، ورفض منطق الذبح والتضحية بإبنه ، لعارض الإله في أمره وطلب تبريرا عقليًا ومنطقيًا عن هذه الفعلة ، ولحكم عليها بأن جريمة أخلاقية واجتماعية يعاقب عليها القانون الطبيعي للبشر)و لهذا تكون المفارقة في الرجعى ماهي إلا اسقاط للعقل.(للتعمق أكثر عن **دور العقل وحدوده في ضوء المفارقة** يرجى الاطلاع على كتاب : علي عبد المعطي محمد ، **سورين كيركجارد: مؤسس الوجودية المسيحية** ، ط4، دار منشأة المعارف بالإسكندرية ، 2000، ص ص 176-177-178).

39. المرجع نفسه ، ص 52

40. المرجع نفسه ، ص 09 .

41. المرجع نفسه .

42. المرجع نفسه.

43. المرجع نفسه .

44. القس حنا الخضري ، الجزء الأول: **تاريخ الفكر المسيحي** ، ط1 ، الناشر: مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع ، 2013، ص44 .

45. المرجع السابق ، ص 85.

46. Soren Kierkegaard, Fear *and Trembling*, Trans: by Walter lawrie Princeton university press, 1970, p65.

47. حسن يوسف طه ، **الحب والايمان: جدل الأرض والسماء عند كيركغارد**، ط1، ضمن كتاب: الإيمان والتجربة الدينية ، تحرير عبد الجبار الرفاعي ، مركز دراسات فلسفة الدين (العراق)، دار التنوير (لبنان)، 2015، ص ص 315-316 .

48. نعيمة بور محمدى ، اللاهوت **العاطفي عند كيركجور** ، ترجمة حسن الهاشمي ، ط1 ، ضمن كتاب: علم الكلام الجديد مدخل لدراسة اللاهوت الجديد وجدل العلم والدين ، تحرير عبد الجبار الرفاعي ، مركز دراسات فلسفة الدين (العراق)، دار التنوير(لبنان)، 2016، ص ص 340-341

49. عبد الجبار الرفاعي ، **الدين والظمأ الأنطولوجي** ، ط1 ، مركز دراسات فلسفة الدين(العراق)، دار التنوير(لبنان)، 2016، ص ص 83-84

50. سورين كيركغارد ، **خوف ورعدة**، ص ص 36-37